التدبر والبيان

في

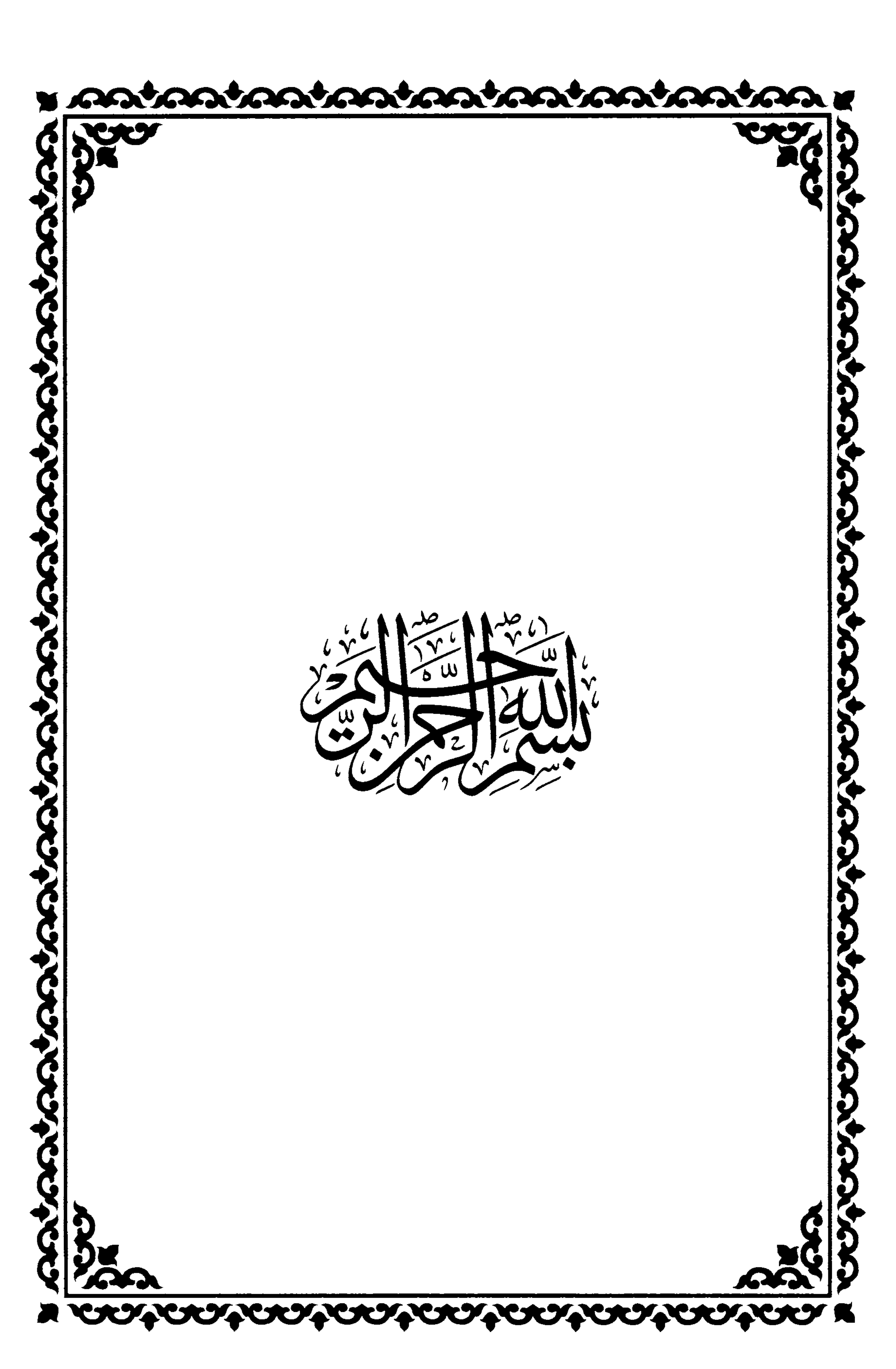
تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور

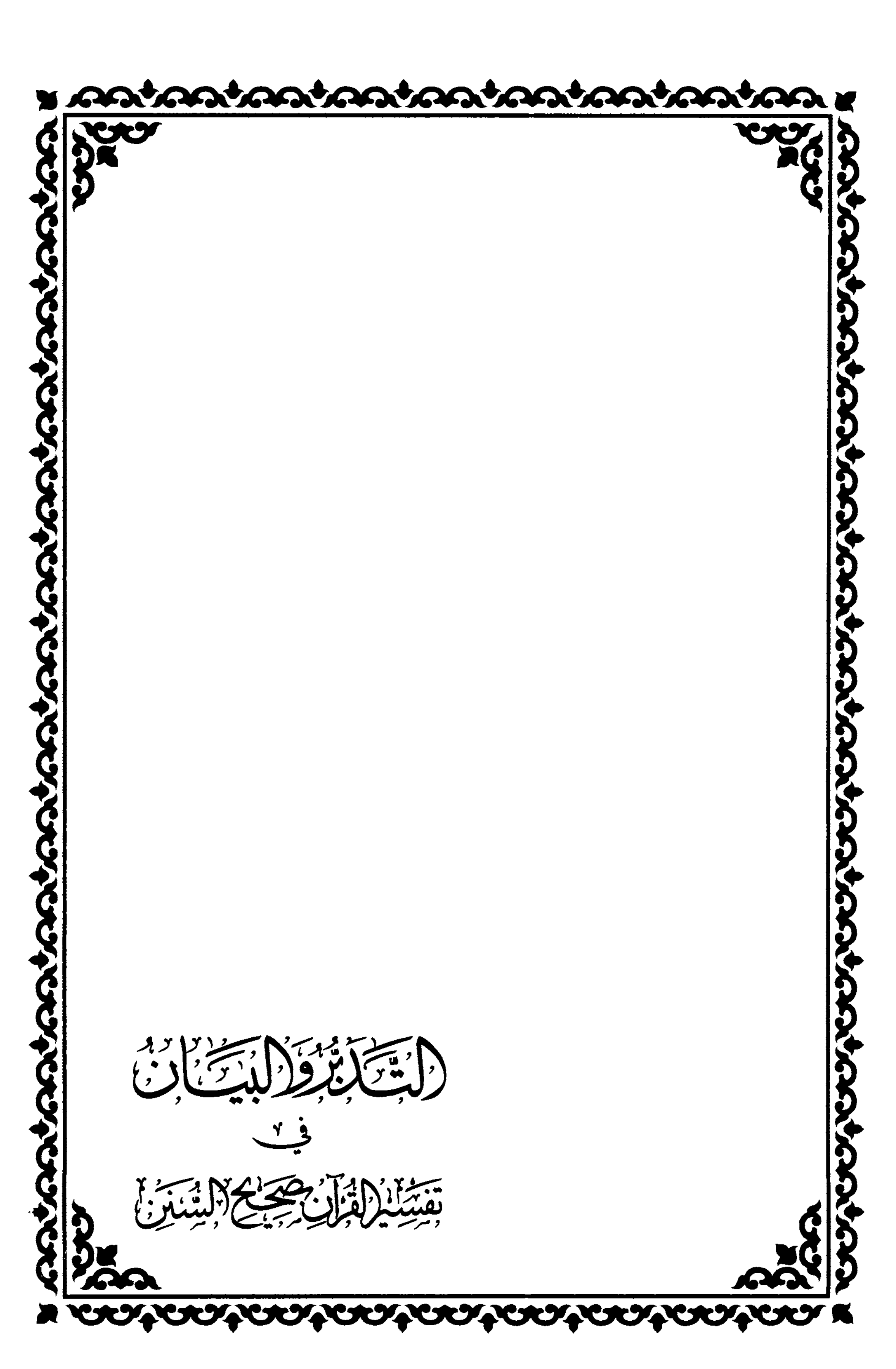
أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثامن والعشرون

سبأ - ص



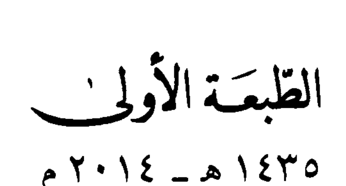
بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon — بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st — الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨



سورة سبأ

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «من أغراض هذه السورة إبطال قواعد الشرك، وأعظمها إشراكهم آلهةً مع اللَّه، وإنكار البعث، فابتدئ بدليل على انفراده تعالى بالإلهية، ونفي الإلهية عن أصنامهم، ونفي أن تكون الأصنام شفعاء لعبّادها.

ثم موضوع البعث.. وإثبات إحاطة علم اللَّه بما في السماوات وما في الأرض، فما يخبر به فهو واقع، ومن ذلك إثبات البعث والجزاء، وإثبات صدق النبي ﷺ فيما أخبر به، وصدق ما جاء به القرآن، وأن القرآن شهدت به علماء أهل الكتاب.

وتخلل ذلك بضروب من تهديد المشركين وموعظتهم بما حل ببعض الأمم المشركين من قبل، وعُرّض بأنّ جَعْلهم لله شركاء كفرانٌ لنعمة الخالق، فضُرب لهم المثل بمن شكروا نعمة اللَّه واتقوه، فأوتوا خير الدنيا والآخرة، وسُخرت لهم الخيرات؛ مثل داود وسليمان، وبمن كفروا باللَّه فسلط عليه الأرزاء[1] في الدنيا، وأعد لهم العذاب في الآخرة مثل سبأ، وحُذّروا من الشيطان، وذُكّروا بأن ما هم فيه من قرة العين لا يقربهم إلى اللَّه، وأنذروا بما سيلقون يوم الجزاء من خزي وتكذيب وندامة، وعدم النصير، وخلود في العذاب، وبُشّر المؤمنون بالنعيم المقيم»[2].

* * *

---

(١) مفرده رُزء كقفل ورزيئة أو رزية وهي المصيبة، وتجمع كذلك على رزايا.

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٣٤-١٣٥).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «افتتحت هذه السورة بالحمد؛ للتنبيه على أن السورة تتضمن من دلائل تفرده بالإلهية، واتصافه بصفات العظمة؛ ما يقتضي إنشاء الحمد له، والإخبار باختصاصه به.. وهذه إحدى سُورٍ خمس مفتتحة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهن كلها مكية، وقد وضعت في ترتيب القرآن في أوله ووسطه والربع الأخير، فكانت أرباع القرآن مفتتحة بالحمد لله، كان ذلك بتوفيق من اللَّه أو توقيف»[(١)].

قال ابن عطية: «أي: الحمد على تنوّعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة، ثم جاء بالصفات التي تستوجب المحامد وهي مِلكه جميع ما في السماوات والأرض، وعلمه المحيط بكل شيء، وخبرته بالأشياء، إذ وجودها إنما هو به جلّت قدرته، ورحمته بأنواع خلقه، وغفرانه لمن سبق في علمه أن يغفر له من مؤمن»[(٢)].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن نفسه الكريمة، أن له الحمدَ المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، وتحت قهره وتصرفه، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾[(٤)] ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فهو المعبود أبدا، المحمود على طول المدى. وقال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء»[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٣٥).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٠٤).
(٣) سورة القصص: الآية (٧٠).
(٤) سورة الليل: الآية (١٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٤).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

يلج: الولوج: الدخول. ومنه قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ﴾[1].

يعرج: يصعد. المعارج: الدرج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدَدَه وكيفيتَه وصفاته، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من قطر ورزق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتَهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه»[2].

وقال ابن القيم: «أما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ؛ ففيه معنى يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلا وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف، وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقّب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ثم عقّبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة، غير منقطع أبدا؛ فإنه حمدٌ يستحقه لذاته وكمال أوصافه، وما يستحقه لذاته دائم بدوامه، لا يزول أبدا. وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه، فإنّ اقتران أحدهما بالآخر له

---

(١) الأعراف: الآية (٤٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٤).

كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر؛ فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزا، والحمد مع الملك غاية الكمال، ونظير هذا العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم، فوسّط الملك بين الجملتين، فجعله محفوفا بحمد قبله، وحمد بعده، ثم عقّب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير، الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات؛ فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بِخَبره، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر، والحكمة باطنة، والعلم ظاهر، والخبرة باطنة، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفا عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها، فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه.

ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه، وهما: الرحمة والمغفرة، فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم، ويهَب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته، وحكمه ومغفرته، وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة، كما يقرن بين العلم والحلم، فمن الأول قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[١] ومن الثاني: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[٢] فما قُرن شيءٌ إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم. و(حملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك)[٣]؛

(١) سورة غافر: الآية (٧). (٢) سورة النساء: الآية (١٢).

(٣) الأثر أخرجه: أبو نعيم في الحلية (٦/ ٧٤) وأورده الذهبي في العلو، وقال إسناده قوي، ووافقه الشيخ الألباني مختصر العلو (ص١٠١ح٤٢) عن حسان بن عطية مقطوعا. وأخرجه كذلك عن هارون بن رياب البيهقي في الشعب (١/ ٣٢٧/ ٣٦٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٥) وأبو الشيخ في العظمة (٤٨١).

فاقتران العفو بالقدرة، كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحَسُن ذكر الرحيم بعده ليقترن به، فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر، وتضمّنِ ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدما على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع؛ ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله؛ قُدّم على الغفور»[1].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٩-٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يعزب: يغيب ويبعد: يقال: عزب عن عينه: إذا غاب وبعد.

مثقال: وزن ومقدار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويستعجلك يا محمد الذين جحدوا قدرة اللَّه على إعادة خلقه بعد فنائهم بهيئتهم التي كانوا بها من قبل فنائهم من قومك بقيام الساعة؛ استهزاء بوعدك إياهم، وتكذيبا لخبرك، قل لهم: بلى تأتيكم وربي، قسمًا به لتأتينكم الساعة»(١).

قال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾(٤) وقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(٥) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾(٦) والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا، وما ذكره -جل وعلا- من أنه أمَر نبيّه بالإقسام لهم على أنهم يبعثون جاء موضحًا في مواضع أخر»(٧).

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٦٠).
(٢) سورة النحل: الآية (٣٨).
(٣) سورة يس: الآية (٧٨).
(٤) سورة مريم: الآية (٦٦).
(٥) سورة الأنعام: الآية (٢٩).
(٦) سورة الدخان: الآية (٣٥).
(٧) أضواء البيان (٦/ ٢٦٢).

قال ابن كثير: «هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر اللَّه رسولَه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لَمَّا أنكره مَنْ أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝﴾[1] والثانية هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثالثة في التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾[2] فقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، قال مجاهد وقتادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم»[3].

وقال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أنه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾[5] والآيات بمثل ذلك كثيرة»[6].

* * *

(١) سورة يونس: الآية (٥٣).
(٢) سورة التغابن: الآية (٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٥).
(٤) يونس: الآية (٦١).
(٥) سورة الأنعام: الآية (٥٩).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾»[1].

قال ابن جرير: «أثبت ذلك في الكتاب المبين كي يثيب الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به، وانتهوا عما نهاهم عنه، على طاعتهم ربهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ يقول -جل ثناؤه-: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة من ربهم لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يقول: وعيش هنيء يوم القيامة في الجنة»[2].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾:

قال ابن كثير: «أي: سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: ليَنعَم السعداء من المؤمنين، ويعذِّب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[4]»[5].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٥).
(٢) جامع البيان (٢٢/ ٦١).
(٣) الحشر: الآية (٢٠).
(٤) ص: الآية (٢٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب اللّه في الدنيا؛ رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]، ويقال أيضًا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2]، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾[3]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾. العزيز هو: المنيع الجناب، الذي لا يُغالب ولا يُمَانع، بل قد قهر كل شيء. الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه، وقدره، وهو المحمود في ذلك كله»[4].

قال السعدي: «هذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علما وتصديقا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحِكم أوامره ونواهيه؛ كان من أهل العلم الذين جعلهم اللّه حجة على ما جاء به الرسول، احتج اللّه بهم على المكذبين المعاندين كما في هذه الآية وغيرها»[5].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٤٣).
(٢) يس: الآية (٥٢).
(٣) الروم: الآية (٥٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٥).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٦١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾

★ غريب الآية:

جِنَّة: بكسر الجيم؛ أي: جنون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللَّه عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب، وتمزقت كل ممزق: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي: بعد هذا الحال ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على اللَّه أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد؛ لكن لُبّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؟ قال اللَّه تعالى رادًا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ أي: في الكفر المفضي بهم إلى عذاب اللَّه، ﴿وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا»[1].

وقال السعدي: «وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق اللّه وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه، فلو كان كاذبا مجنونا لم ينبغِ لكم -يا أهل العقول غير الزاكية- أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٤).

للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يَبلغ قوله منه كلَّ مَبلغ.

ولولا عنادكم وظلمكم لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة اللَّه على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلًا، والباطل والضلال حقًّا وهدى»[2].

* * *

(١) يونس: الآية (١٠١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

★ غريب الآية:

كسفًا: قِطَعًا، واحدها: كِسْفَة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أعلم اللَّه تعالى أن الذي قَدَر على خلق السماوات والأرض وما فيهن، قادرٌ على البعث وعلى تعجيل العقوبة لهم، فاستدل بقدرته عليهم، وأن السماوات والأرض ملكه، وأنهما محيطتان بهم من كل جانب، فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة...

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي في هذا الذي ذكرنا من قدرتنا لآية؛ أي: دلالة ظاهرة. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: تائب رجاع إلى اللَّه بقلبه. وخص المنيب بالذكر؛ لأنه المنتفع بالفكرة في حجج اللَّه وآياته»[1].

وقال السعدي: «فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى اللّه، كان انتفاعه بالآيات أعظم؛ لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهمّاته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريبا من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة»[2].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٩-١٧٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾

★ **غريب الآية:**

أوّبي: أي رَجِّعي بالتسبيح. والأوب: ضرب من الرجوع.

سابغات: أي: تامات كاملات واسعات. يقال: سبَغَ الثوبُ: إذا غطى جميع البدن وفضل منه شيء.

السرد: في الأصل: نسج ما يخشن. ومنه قيل لصانع حلق الدروع: سراد. وأصله من الإحكام. قال لبيد:

صنع الحديدَ مضاعفا أسرادَه ... لينال طول العيش غير مَرُومِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود صلوات اللَّه وسلامه عليه، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكّن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصمّ الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة؛ أنه آتى داود منه فضلًا تفضل به عليه، وبيّن هذا الفضل، الذي تفضل به على داود في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[2]

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٧).
(٢) البقرة: الآية (٢٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات»[٧].

قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾ قال أبو حيان: «أي: قلنا: يا جبال! وجعل الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا؛ إشعارًا بأنه ما من حيوان وجماد، وناطق وصامت؛ إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته، ودلالة على عزة الربوبية، وكبرياء الألوهية، حيث نادى الجبال وأمرها»[٨].

وقال ابن كثير: «ومعنى قوله: ﴿أَوِّبِى﴾ أي: سبحي. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد.

وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سَبّحي بلسان الحبشة. وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجّع معه بأصواتها.

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: في كتاب «الجمل» في باب النداء منه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب: سير النهار كله، والإسآد: سير الليل كله. وهذا لفظه، وهو غريب جدًا لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية ههنا.

والصواب أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: رَجّعي مُسَبّحة معه كما تقدم. والله أعلم»[٩].

قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ قال ابن جرير: «ذُكر أن الحديد كان في يده كالطين المبلول يصرفه في يده كيف يشاء بغير إدخال نار ولا ضرب بحديد.

---

(١) ص: الآية (٢٠).
(٢) ص: الآية (٣٠).
(٣) ص: الآية (٢٥).
(٤) ص: الآية (٢٦).
(٥) النمل: الآية (١٥).
(٦) الإسراء: الآية (٥٥).
(٧) أضواء البيان (٦/ ٢٦٦).
(٨) البحر المحيط (٧/ ٢٥٢).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٧).

وقوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ يقول: وعهدنا إليه أن اعمل سابغات: وهي التوامُّ الكوامل من الدروع..

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ اختلف أهل التأويل في السرد؛ فقال بعضهم: السرد هو مسمار حِلَق الدرع.. وقال آخرون: هو الحِلَق بعينها.. وقيل: إنما قال لداود: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ لأنها كانت من قبلُ صفائح..

وعنى بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: وقدر المسامير في حِلق الدروع، حتى يكون بمقدار لا تغلِّظ المسمار، وتضيِّق الحلَقة فتفصم الحلقة، ولا توسع الحلقة وتصغر المسامير وتدقها، فتسلس في الحلقة»[١].

قال البقاعي: «والظاهر أنه لم يكن في حِلَقها مسامير؛ لعدم الحاجة بإلانة الحديد إليها، وإلا لم يكن بينه وبين غيره فرق، ولا كان للإلانة فائدة»[٢].

قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ **قال ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: واعمل يا داود أنت وآلك بطاعة اللَّه ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول -جل ثناؤه-: إني بما تعمل أنت وأتباعك ذو بصر لا يخفى عليَّ منه شيء، وأنا مجازيك وإياهم على جميع ذلك»[٣].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرّف بها لا يُنقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخليّ عن الامتنان»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر نبي اللَّه داود -عليه الصلاة والسلام-

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«خُفف على داود ﷺ القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده»**[٥].

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال له: **«يا أبا موسى، لقد أوتيت**

(١) جامع البيان (٢٢/ ٦٦).
(٢) نظم الدرر (١٥/ ٤٥٩).
(٣) جامع البيان (٢٢ / ٦٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٧١).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤) والبخاري (٦/ ٥٦٠/ ٣٤١٧).

مزمارا من مزامير آل داود»[١].

* عن عبد اللَّه بن عمرو ﵄ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أحب الصيام إلى اللَّه صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا. وأحب الصلاة إلى اللَّه صلاة داود ﵇، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه**»[٢].

★ غريب الأحاديث:

القرآن: المراد بالقرآن القراءة، والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وقيل: المراد الزبور، وقيل: التوراة، وقراءة كل نبي تطلق على كتابه الذي أوحي إليه.

مزمار: المراد بالمزمار الصوت الحسن، وأصله الآلة؛ أطلق اسمه على الصوت للمشابهة.

★ فوائد الأحاديث:

أفادت هذه الأحاديث ذكر نبي اللَّه داود ﵇، وذكر شيء من فضائله وشمائله وعبادته، وما أنعم اللَّه به عليه. فمن ذلك: أنه كان حسن الصوت بالزبور.

قال ابن العربي: -في شرح قوله ﷺ لأبي موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود- «يريد أوتيتَ صوتًا حسنًا من الأصوات الحسان التي كان أوتيها داود؛ فإنه يروى أنه كان من أحسن الناس صوتًا، وأن الطير والجبال كانت تراجعه الذكر لحسن صوته، وحسن الصوت يأخذ بالأسماع، كما يأخذ بالأبصار حسن الرُّواء»[٣].

ومنها: أن اللَّه خفف عنه قراءة القرآن، «والمراد الزبور الذي أوحي إليه، فإنه كان ملكًا له أتباع، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب، وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع؛ صلوات اللَّه وسلامه عليه[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥١) والبخاري (٩/ ١١٣/ ٥٠٤٨)، ومسلم (١/ ٥٤٦/ ٧٩٣)، والترمذي (٥/ ٦٥٠/ ٣٨٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠) والبخاري (٦/ ٥٦٣/ ٣٤٢٠)، ومسلم (٢/ ٨١٢/ ١١٥٩[١٨٩]) وأبو داود (٢/ ٨٢١/ ٢٤٤٨) والنسائي (٤/ ٥١٢/ ٢٣٤٣) وابن ماجه (١/ ٥٤٦/ ١٧١٢).

(٣) عارضة الأحوذي (١٣/ ٢٤٢).

(٤) البداية والنهاية (٢/ ١١) بتصرف يسير.

قال الحافظ: «في الحديث أن البركة قد تقع في الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير. قال النووي: أكثر ما بلغنا من ذلك مَن كان يقرأ أربع ختمات بالليل، وأربعًا بالنهار، وقد بالغ بعض الصوفية في ذلك فادعى شيئا مفرطا. والعلم عند الله»[١].

ومنها: أنه لا يأكل إلا من عمل يده «وهو من ثمن ما كان يعمل من الدروع من الحديد بلا نار ولا مطرقة ولا سندان، وهو أول من عمل الدروع من زرد وكانت قبل ذلك صفائح»[٢].

قال الحافظ: «فيه دليل على أنه أفضل المكاسب، وقد استدل به على مشروعية الإجارة من جهة أن عمل اليد أعم من أن يكون للغير أو للنفس، والذي يظهر أن الذي كان يعمله داود بيده هو نسج الدروع، وألان اللّه له الحديد، فكان ينسج الدروع ويبيعها، ولا يأكل إلا من ثمن ذلك، مع كونه كان من كبار الملوك، قال اللّه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾[٣]، وفي حديث الباب أيضاً ما يدل على ذلك، وأنه مع سعته بحيث إنه كان له دواب تسرج إذا أراد أن يركب ويتولى خدمتها غيرُه، ومع ذلك كان يتورع ولا يأكل إلا مما يعمل بيده»[٤].

ومنها: أنه كان ذا عبادة وشكر لله على ما أولاه من النعم، فكان يقوم الليل ويصوم النهار، ولا يفر إذا لاقى. قال ابن الملقن: -في شرح حديث عبد اللّه بن عمرو- «يؤخذ منه مراعاته للأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام في الاتباع، حيث ذكرهم اللّه تعالى في كتابه، وأمره بالاقتداء بهم في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٥]، الذين من جملتهم في الذكر داود ﷺ، وفي رواية مسلم: «**فصم صوم داود نبي الله؛ فإنه كان أعبد الناس**». وفي رواية له: «**كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ولا يفر إذا لاقى**»»[٦].

وقال العيني: «قوله: «**لا يفر إذا لاقى**»: وجه اتصاله بما قبله هو بيان أن صومه ما كان يضعفه عن الحرب»[٧].

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٦٢).
(٢) عمدة القاري (١١/ ١٥٨).
(٣) ص: الآية (٢٠).
(٤) فتح الباري (٦/ ٥٦٨).
(٥) الأنعام: الآية (٩٠).
(٦) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ٣٤٣-٣٤٤).
(٧) عمدة القاري (١١/ ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

محاريب: جمع مِحْراب، والمحراب: الغرفة، والقصر، وصدر البيت، وأكرم مواضعه، ومقام الإمام من السجد، و قيل لا يسمى محرابًا إلا ما يرتقى إليه بدرج.

تماثيل: صور الأشياء. واحدها: تمثال.

جفان: جمع جفنة، وهي القصعة الكبيرة.

الجوابي: جمع جابية، وهي الحوض العظيم يجبى فيه الماء.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود؛ عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان، من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوُّها شهر ورواحُها شهر»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وسخرنا لسليمان الريح، غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر، ورواحها من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر..

قوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ يقول: وأذبنا له عين النحاس وأجريناها له..

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٩).

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن الجن من يطيعه ويأتمر بأمره وينتهي لنهيه؛ فيعمل بين يديه ما يأمره طاعةً له بإذن ربه، يقول: بأمر اللَّه بذلك، وتسخيره إياه له ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ يقول: ومن يزُل ويعدل من الجن عن أمرنا الذي أمرناه من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة، وذلك عذاب نار جهنم الموقدة..

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يعمل الجن لسليمان ما يشاء من محاريب، وهي جمع محراب، والمحراب: مُقدَّم كل مسجدٍ وبيتٍ ومصلى.. قوله: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ يعني أنهم يعملون له تماثيل من نحاس وزجاج»[1].

قال صديق حسن خان: «وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحا في شرع سليمان، ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ»[2].

قال الألوسي: «وأنت تعلم أنه ورد في شرعنا من تشديد الوعيد على المصورين ما ورد؛ فلا يلتفت إلى هذا القول، ولا يصح الاحتجاج بالآية، وكأنه إنما حرمت التماثيل لأنه بمرور الزمان اتخذها الجهلة مما يعبد، وظنوا وضعها في المعابد لذلك، فشاعت عبادة الأصنام، أو سدًا لباب التشبه بمتخذي الأصنام بالكلية»[3].

قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: وينحتون له ما يشاء من جفان كالجواب، وهي جمع جابية والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء.. قوله: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ يقول: وقدور ثابتات لا يحرَّكن عن أماكنهن، ولا تحوّل لعظمهن..

قوله: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وقلنا لهم: اعملوا بطاعة اللَّه يا آل داود، شكرًا له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه، مع الشكر له على سائر نعمه التي عمّكم بها مع سائر خلقه، وتُرك ذكر: (وقلنا لهم) اكتفاء بدلالة الكلام على ما ترك منه، وأخرج قوله: ﴿شُكْرًا﴾ مصدرا

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٦٨-٧٠).
(٢) فتح البيان (١١/ ١٧٣).
(٣) روح المعاني (٢٢/ ١١٩).

من قوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ لأن معنى قوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ اشكروا ربكم بطاعتكم إياه، وأن العمل بالذي رضي اللَّه لله شكر»[1].

قال أبو حيان: «وعقّب ما يعمله الجن ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾، إشارةً إلى أن الإنسان لا يستغرق في الدنيا، ولا يلتفت إلى زخارفها، وأنه يجب أن يعمل صالحا»[2].

قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقليل من عبادي المخلصو توحيدي، والمفردو طاعتي وشكري على نعمتي عليهم»[3].

قال الألوسي: «وفيها تنبيه وتحريض على الشكر»[4].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ٧١-٧٢).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٥٥).
(٣) جامع البيان (٢٢/ ٧٢).
(٤) روح المعاني (٢٢/ ١٢١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

منسأته: المنسأة: العصا، سميت بذلك لأنه يُنْسَأُ بها، أي يزجر ويطرد. وقرئت بترك الهمز. قال الشاعر:

إذا دَبَبْتَ على المِنْساةِ من هَرم ... فقد تباعد عنكَ اللهوُ والغَزَلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما أمضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات؛ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ يقول: لم يدلّ الجن على موت سليمان ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الأَرَضة[1]، وقعت في عصاه التي كان متكئًا عليها فأكلتها، فذلك قول اللَّه ﷻ: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾..

وقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ يقول ﷻ: فلما خر سليمان ساقطًا بانكسار منسأته؛ تبيّنت الجن ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ الذي يدّعون علمه؛ ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ المذِل، حولًا كاملا بعد موت سليمان، وهم يحسبون أن سليمان حي»[2].

قال أبو حيان: «فالمعنى: ظَهَر للناس جهلُ الجن بعلم الغيب، وأن ما ادعوه من ذلك ليس بصحيح»[3].

قال الألوسي: «وفي الآية دليل على أن الغيب لا يختص بالأمور المستقبلة، بل

(١) الأَرَضَة دُوَيبَّة تأكل الخشب.

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٧٣).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٥٧).

يشمل الأمور الواقعة التي هي غائبة عن الشخص أيضا»[١].

قال ابن عطية: «وكثّر المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له، ولا تقتضيه ألفاظ القرآن، وفي معانيه بُعد»[٢].

* * *

(١) روح المعاني (٢٢/ ١٢٤).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤١٢).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلَها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ[١]، شذر مذر»[٢].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بينة، وحجة واضحة، على أنه لا رب لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها»[٣].

قال أبو حيان: «﴿ءَايَةٌ﴾: أي علامة دالة على الله، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره. أو جعل قصتهم لأنفسهم آية؛ إذ أعرَضَ أهلُها عن شكر الله عليهم، فخرّبهم وأبدلهم عنها الخمطَ والأَثل ثمرة لهم»[٤].

قوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قال ابن جرير: «يعني بستانا كان بين جبلين عن يمين من أتاهما وشماله.. قوله: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الذي يرزقكم من هاتين الجنتين من زروعهما وأثمارهما، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على ما أنعم به عليكم من رزقه ذلك، وإلى هذا منتهى الخبر، ثم ابتدأ الخبر عن البلدة؛ فقيل: هذه ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، أي ليست بسَبِخة[٥]، ولكنها كما ذكرنا من صفتها عن عبد الرحمن بن زيد إن كانت كما وصفها به.. أنه لم يكن فيها شيء مؤذٍ؛ الهمج والدبيب والهوام

---

(١) سار مثلا في التفرق الذي لا اجتماع بعده.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٠٤).
(٣) جامع البيان (٢٢/ ٧٦).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٥٩).
(٥) الأرض السَّبِخة بكسر الباء وفتحها أيضا: المِلحة. وتنبت الطرفاء.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يقول: ورب غفور لذنوبكم إن أنتم أطعتموه»(١).

قال أبو حيان: «فيه إشارة إلى تكميل النعمة عليهم، حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوفٌ ولا مرضٌ»(٢).

وقال السعدي: «ومن نعم اللّه ولطفه بالناس عموما، وبالعرب خصوصًا، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناسُ أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه آية، والآية هنا: ما أدرَّ اللّه عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا اللّه ويشكروه.

ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدا محكما يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم اللّه بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن اللّه جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن اللّه تعالى وعدهم -إن شكروه- أن يغفر لهم وَيرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أن اللّه لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة -الظاهر أنها قرى صنعاء؛ قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام- هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة، من الأمن وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد»(٣).

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٧٧-٧٨).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٥٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص (٦٢٣-٦٢٤).

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

العرِم: السّد الذي يحبس الماء. وقيل: العرِم: اسم وادي سبأ تجتمع فيه السيول. وقيل: اسم الجرذ الذي نقب السد. وقيل: العرِم: المطر الشديد.

خمطٍ: قال المبرد: الخمط: كل ما تغير إلى ما لا يشتهى. وقال أبو عبيدة: (هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة). واللبن إذا حمض فهو خمط.

سدر: السدر نوعان: برّي لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول، وله تمر عَفِص لا يؤكل. وسدر ينبت على الماء، وثمره النَّبِق وورقه غَسُول.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأعرضت سبأ عن طاعة ربها، وصدّت عن اتباع ما دعتها إليه رسلها من أنه خالقها . .

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فثقبنا عليهم -حين أعرضوا عن تصديق رسلنا- سدَّهم الذي كان يحبس عنهم السيول. . .

وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جَنى ثمر الأراك، والأراك هو الخمط. .

وأما الأثْل فإنه يقال له الطرفاء، وقيل: شجر شبيه بالطرفاء، غير أنه أعظم منها، وقيل: إنها السّمُر[1]. . عن قتادة: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ

(١) واحدها: سمُرة وهي شجرة الطلح.

﴿قَلِيلٍ﴾ قال: بينما شجر القوم خير الشجر، إذ صيره اللَّه من شر الشجر بأعمالهم»[١].

قال ابن كثير: «فهذا الذي صار أمرُ تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر، ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم باللَّه، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل»[٢].

وقال الألوسي: «فيه إشارة إلى غاية انعكاس الحال، حيث أومأ الكلام إلى أنهم لم يُؤتوا بعد إذهاب جنتهم شيئًا مما لجنسه شأن عند العرب إلا السدر، وما أوتوه من هذا الجنس حقير قليل، وتسمية البدل جنتين مع أنه ما سمعت؛ للمشاكلة والتهكم»[٣].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم، حتى هلَكت أموالهم، وخربت جناتهم، جزاءً منَّا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا. .

وقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ . . معنى الكلام: كذلك كافأناهم على كفرهم باللَّه، وهل يجازى إلا الكفور لنعمة اللَّه، فإن قال قائل: أوَ ما يجزي اللَّه أهل الإيمان به على أعمالهم الصالحة، فيخص أهل الكفر بالجزاء؛ فيقال: وهل يجازى إلا الكفور؟ قيل: إن المجازاة في هذا الموضع المكافأة، واللَّه -تعالى ذكره- وعد أهل الإيمان به التفضل عليهم، وأن يجعل لهم بالواحدة من أعمالهم الصالحة عشر أمثالها إلى ما لا نهاية له من التضعيف، ووعد المسيء من عباده أن يجعل بالواحدة من سيئاته مثلها مكافأة له على جرمه، والمكافأة لأهل الكبائر والكفر، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل، فلذلك قال -جل ثناؤه- في هذا الموضع: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، كأنه قال -جل ثناؤه-: لا يجازى: لا يكافأ على عمله إلا الكفور، إذا كانت المكافأة مثل المكافأ عليه، واللَّه لا يغفر له من ذنوبه شيئًا، ولا يُمَحَّص شيء منها في الدنيا. وأما المؤمن فإنه يتفضل عليه على ما وصفت»[٤].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٧٨-٨٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٠٨).
(٣) روح المعاني (٢٢/ ١٢٨).
(٤) جامع البيان (٢٢/ ٨٢-٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والعيش الهنيء الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، قيل: هي قرى بصنعاء. وقيل: قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. وقيل: بيت المقدس. وقيل: هي قرى عربية بين المدينة والشام.

﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يَقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، وقرأ آخرون: (بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)، وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة -كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد- وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى، وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم:

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[٣] وقال في حق هؤلاء: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثا للناس، وَسمَرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: (تفرقوا أيدي سبأ) (وأيادي سبأ) و(تفرقوا شذر مذر). . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام؛ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم»[٤].

قال صديق حسن خان: «خص الصّبار والشكور؛ لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات»[٥].

قال القشيري: «كذلك من الناس من يكون في رغد من الحال، واتصال من التوفيق، وطيب من القلب، ومساعدة من الوقت؛ فيرتكب زلة، أو يسيء أدبًا، أو يتبع شهوة، ولا يعرف قدر ما هو فيه فيغيَّر عليه الحال، فلا وقت ولا حال، ولا طرب ولا وصال، يُظلم عليه النهار، وكانت لياليه مضيئة ببدائع الأنوار»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التعريف بسبأ، وأن من صفات المؤمن المنتفع بالآيات الصبر على البلاء، والشكر على النعماء

* عن فروة بن مُسَيك المرادي رضي الله عنه قال: «**أتيت النبي ﷺ**، فقلت: يا رسول الله! ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أَقبل منهم؟ فأذن لي في قتالهم

(١) البقرة: الآية (٦١). (٢) القصص: الآية (٥٨).
(٣) النحل: الآية (١١٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٠٨-٥١٢) بتصرف يسير.
(٥) فتح البيان (١١/ ١٨٥). (٦) نظم الدرر للبقاعي (١٥/ ٤٨٤-٤٨٥).

وأمّرني، فلما خرجت من عنده، سأل عني: **ما فعل الغُطَيفي؟** فأُخبر أني قد سرت. قال: فأرسل في أثري فردّني، فأتيته وهو في نفر من أصحابه، فقال: **ادع القوم، فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أُحْدث إليك**. قال: وأُنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله! وما سبأ؛ أرض أو امرأة؟ قال: **ليس بأرض، ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة؛ فأما الذين تشاءموا فلخم، وجذام، وغسان وعاملة. وأما الذين تيامنوا فالأزد، والأشعريون، وحمير، ومذحج، وأنمار، وكندة**. فقال رجل: يا رسول اللَّه، وما أنمار؟ قال: **الذين منهم خثعم، وبَجيلة**»[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو؟ أرجل أم امرأة، أم أرض؟ فقال: «**بل هو رجل ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، عرباء كلها. وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان**»[2].

⭑ غريب الحديثين:

فأرسل في أثري: بفتحتين. وبكسر الهمزة وسكون المثلثة (إِثْري): أي: عَقِبِي. قال في «القاموس»: خرج في أثره، وإثره: أي: بعده.

سبأ: بفتح السين والموحدة وبالهمزة، والمراد بها القبيلة التي هي من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود.

فَتَيامَنَ: أي: أخذوا ناحية اليمن، وسكنوا بها.

فتشاءم: قصدوا ناحية الشام.

---

(١) أخرجه: أبو داود (٤/ ٢٨٨/ ٣٩٨٨)، والترمذي (٥/ ٣٣٦-٣٣٧/ ٣٢٢٢) وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (٢/ ٤٢٤) وجعله شاهداً لحديث ابن عباس الآتي، وأحمد في «العلل» (٢/ ٢٥٤-٢٥٥/ ٢٢٨٩و٢٢٨٣) والبخاري في «التاريخ» (٧/ ١٢٦-١٢٧)، من طرق عن فروة به. وقال الحافظ ابن كثير (٦/ ٤٩٢) عقب أحد طرق الإمام أحمد: «وهذا أيضاً إسناد جيد وإن كان فيه أبو جناب الكلبي وقد تكلموا فيه. وذكر له متابع». وله شاهد من حديث ابن عباس وهو الآتي بعده.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣١٦)، والحاكم (٢/ ٤٢٣) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ ابن كثير (٦/ ٤٩١) من طريق أحمد، ثم قال: «ورواه عبد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة به، وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه، وقد روي من طرق متعددة.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن العربي: «قوله: «**إن سبأ رجل**» كلام صحيح، ولكن سمي به بنوه، وسميت به أرضه، فصار يطلق على الكل، وما جاء في هذا الحديث مطلق»(١).

وقال ابن كثير: «ومعنى قوله ﷺ: «**كان رجلًا من العرب**» يعني العرب العاربة، الذين كانوا قبل الخليل -عليه الصلاة والسلام- من سلالة سام بن نوح. وقيل: كان من سلالة الخليل عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم. ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مرّ بنفر من أسلم ينتضلون(٢) فقال: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا**»(٣)، فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله ﷻ عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم غسان بماء نزلوا عليه قِبل اليمن، وقيل: إنه قريب من المشلل، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إما سألت فإنّا معشر نُجُب ... الأزد نسبتنا والماء غسان

ومعنى قوله ﷺ: «**وُلد له عشرة**» أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينَه وبينَه الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب.

ومعنى قوله ﷺ: «**فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة**» أي: بعدما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها. وكان من أمْر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سدًا عظيمًا محكمًا، حتى ارتفع الماء، وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل -وهو الذي تخترف فيه الثمار- فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه، من غير أن يحتاج إلى كلفة

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٠٠).

(٢) أي يستبقون في الرمي. يقال: انْتَضَل القومُ وتَناضَلوا؛ أي: رَمَوْا للسَّبْق.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٥٠)، والبخاري (٦/ ١١٣/ ٢٨٩٩) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

ولا قطاف، لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب. وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج، وعناية اللَّه بهم ليوحدوه ويعبدوه، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ ثم فسرها بقوله ﷻ: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين، والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد»[1].

* عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**[2].

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث له تعلق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وهذا حال المؤمن المنتفع بالآيات، يكون كثير الشكر لنعم اللَّه ﷻ، صبورًا على ما يصيبه من البلايا والمحن «قال قتادة: كان مطرف بن عبد اللَّه يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر»[3].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٦-٥٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ولقد ظن إبليس بهؤلاء الذين بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط عقوبة منّا لهم؛ ظنًّا غير يقين، علم أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله، فصدق ظنه عليهم بإغوائه إياهم، حتى أطاعوه وعصوا ربهم، إلا فريقًا من المؤمنين بالله؛ فإنهم ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس»[١].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[٢] والآيات في هذا كثيرة»[٣].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٨٧).

(٢) الأعراف: الآية (١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما كان لإبليس على هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم من حجة يضلهم بها إلا بتسليطناه عليهم؛ ليعلم حزبُنا وأولياؤنا ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ يقول: من يصدق بالبعث والثواب والعقاب ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ فلا يوقن بالمعاد، ولا يصدق بثواب ولا عقاب..

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وربك يا محمد على أعمال هؤلاء الكفرة به، وغير ذلك من الأشياء كلها ﴿حَفِيظٌ﴾ لا يعزب عنه علم شيء منه، وهو مجازٍ جميعهم يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من خير وشر»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ قال ابن عباس: أي من حجة. وقال الحسن البصري: واللَّه ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها فأجابوه.

وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: إنما سلطناه عليهم ليظهرَ أمر مَنْ هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسِنَ عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شك.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: ومع حفظه ضَلّ من ضَلّ من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سَلِم مَنْ سلم من المؤمنين أتباع الرسل»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ٨٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٣).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾

★ غريب الآية:

ظهير: معين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عُبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾(١).

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، من عون يعينه بشيء. وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه، لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾(٢)، وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾(٣)، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾(٤)»(٥).

---

(١) فاطر: الآية (١٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٣) النجم: الآية (٢٦).
(٤) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٣-٥١٤).

قال ابن القيم: «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لِما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه؛ فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك؛ فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا؛ فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلا من الأعلى إلى ما دونه؛ فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا ونجاة وتجريدا للتوحيد، وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن»[١].

وقال أيضًا: «فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سدّ وأبلغه؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه؛ وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكا لمالكها، أو ظهيرا أو وزيرا ومعاونا له، أو وجيها ذا حرمة وقدْر يشفع عنده؛ فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت؛ انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السماوات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق، فنفى شركتها له. فيقول المشرك: قد تكون ظهيرا ووزيرا ومعاونا، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع؛ فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين؛ فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما مَن كل ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه»[٢].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦١).

وقال السعدي: «فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر وغيرهم، قطعها اللّه وبيَّن بطلانها، تبيينا حاسما لمواد الشرك، قاطعا لأصوله؛ لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير اللّه، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه غيرَ اللّه لا مالكا للنفع والضر، ولا شريكا للمالك، ولا عونا وظهيرا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك؛ كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالا في العقل، باطلة في الشرع. بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فبيَّن اللّه بطلانه وعدمه، وبيَّن في آيات أخر، ضرره على عابديه وأنه يوم القيامة، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضا، ومأواهم النار ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[1].

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل بزعمه أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان»[2].

* * *

(١) الأحقاف: الآية (٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا أيضا مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السماوات كلامه، أُرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود ومسروق وغيرهما»[١].

قال ابن عطية: «تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية أعني قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل، وبالأمر يأمر به؛ سمعت كجر سلسلة الحديد على صفوان، فتفزع عند ذلك تعظيمًا وهيبة. وقيل: خوف أن تقوم الساعة؛ فإذا فُزّع ذلك؛ ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أُطير الفزع عنها وكشف، فيقول بعضهم لبعض ولجبريل: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيقول المسؤولون قال: ﴿ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات؛ تتسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾[٢] لم تتصل لهم هذه الآية بما قبلها، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها حتى قال بعضهم في الكفار بعد حلول الموت ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بفقد الحياة، فرأوا الحقيقة وزال فزعهم من شبه ما يقال لهم في حياتهم، فيقال لهم حينئذ ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون قال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ يقرّون حين لا ينفعهم الإقرار. وقالت فرقة: الآية في جميع العالم، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ يريد في القيامة.

قال الفقيه الإمام القاضي: والتأويل الأول في الملائكة هو الصحيح، وهو الذي تظاهرت به الأحاديث، وهذان بعيدان»[٣].

قال ابن كثير: «وقد اختار ابن جرير القول الأول؛ أن الضمير عائد على

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٤).

(٢) سبأ: الآية (٢٢).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٤١٨).

الملائكة. هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن المراد بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الملائكة

* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار؛ أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا -تبارك وتعالى- اسمه، إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا. ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيخبرونهم ماذا قال. قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون**»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ف﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضُهُ فوق بعض،** -ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه- **فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كَذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سَمع من السماء**»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٨)، ومسلم (٤/ ١٧٥٠-١٧٥١/ ٢٢٢٩)، والترمذي (٥/ ٣٣٧-٣٣٨/ ٣٢٢٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٤/ ١١٢٧٢).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٨٩-٦٩٠/ ٤٨٠٠)، وأبو داود (٤/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣٩٨٩)، والترمذي (٥/ ٣٣٧/ ٣٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٦٩-٧٠/ ١٩٤).

★ **غريب الحديثين:**

يقرفون: قال النووي: «هذه اللفظة ضبطوها من رواية صالح على وجهين: أحدهما: بالراء، والثاني: بالذال، ووقع في رواية الأوزاعي وابن معقل (الراء) باتفاق النسخ، ومعناه: يخلطون فيه الكذب، وهو بمعنى «يقذفون»، وفي رواية يونس: «يرقون». قال القاضي: ضبطناه عن شيوخنا بضم الياء وفتح الراء وتشديد القاف. قال: ورواه بعضهم بفتح الياء وإسكان الراء، قال في المشارق، قال بعضهم: صوابه بفتح الياء وإسكان الراء وفتح القاف، قال: وكذا ذكره الخطابي قال: ومعناه معنى (يزيدون). يقال: رقي فلان إلى الباطل، بكسر القاف، أي: رفعه، وأصله من الصعود، أي: يدعون فيها فوق ما سمعوا. قال القاضي: وقد يصح الرواية الأولى على تضعيف هذا الفعل وتكثيره»[1].

خَضَعانًا: بفتحتين من الخضوع، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه.

سلسلة على صفوان: أي: كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، وهو الحجر الأملس.

فيسمعها مُسترِق السمع: أي: يسمع الكلمة التي قضاها الله مسترق السمع، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضًا، فيسمعون أصوات الملائكة بالأمر يقضيه الله.

بَدَّدَ: فرّق بين أصابعه.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الشيخ ابن عثيمين: «وهذا الحديث -إشارة إلى حديث أبي هريرة- مطابق للآية تماما، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يُقبَل لأي قائل أن يفسرها بغيره؛ لأن تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنة؛ فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه. فلا يقبل أن يقال: إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامة، بل نقول: الرسول ﷺ فسّر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبيا وجاء به النص؛ فالواجب علينا قبوله»[2].

---

(١) شرح مسلم (١٤/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) شرح كتاب التوحيد ضمن فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٩/ ٣٠٣).

وفي الآية والحديث «بيان لحال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم مَن عُبد من دون اللَّه، فإذا كان هذا حالهم مع اللَّه تعالى، وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله؟ وإذا كانوا لا يدعون مع اللَّه تعالى لا استقلالًا، ولا وساطة بالشفاعة، فغيرهم ممن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى أن لا يدعى، ولا يعبد، ففيه الرد على جميع فرق المشركين الذين يدعون مع اللَّه من لا يداني الملائكة، ولا يساويهم في صفة من صفاتهم. وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1]. فهذه حالهم وصفاتهم، وليس لهم من الربوبية والإلهية شيء، بل ذلك لله وحده لا شريك له، وكذا قال في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها»[2].

قال القرطبي: «قوله: **«لكن ربنا إذا قضى أمرًا سبّح حملة العرش»** أي: أظهر قضاءه، وما حَكَم به لملائكته؛ لأن قضاءه إنما هو راجع إلى سابق علمه، ونفوذ مشيئته وحكمه، وهما أزليان، فإذا اطّلع حملة العرش على ما سبق في علمه خضعت الملائكة لعظمته، وضجّت بتسبيحه وتقديسه، فيسمع ذلك أهل السماء التي تليهم، وهكذا ينتهي التسبيح لملائكة سماء الدنيا، ثم يتساءلون فيما بينهم: ماذا قال ربكم؟ على الترتيب المذكور في الحديث.

ففيه ما يدل على أن حملة العرش أفضل الملائكة، وأعلاهم منزلة، وأن فضائل الملائكة على حسب مراتبهم في السماوات، وأن الكل منهم لا يعلمون شيئًا من الأمور إلا بأن يعلمهم اللَّه تعالى به، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[3].

وفيه: ما يدل على أن علوم الملائكة بالكائنات يستفيده بعضهم من بعض إلا حملة العرش؛ فإنهم يستفيدون علومهم من الحق ﷻ؛ فإنهم هم المبدوؤون

---

(١) الأنبياء: الآيات (٢٦-٢٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٦٢-٢٦٣).

(٣) الجن: الآيتان (٢٦و٢٧).

بالإعلام أولًا . ثم إن ملائكة كل سماء تستفيد من التي فوقها ، وفي هذا دليل على أن النجوم لا يُعرف بها علم الغيب ، ولا القضاء ، ولو كان كذلك لكانت الملائكة أعلم بذلك وأحق به . وكل ما يتعاطاه المنجمون من ذلك فليس شيء منه علمًا يقينًا ؛ وإنما هو رجم بظن ، وتخمين بوهم ، الإصابة فيه نادرة ، والخطأ والكذب فيه غالب . وهذا مشاهد من أحوال المنجمين . والمطلوب من العلوم النجوميات ما يُهتدى به في الظلمات ، وتُعرف به الأوقات ، وما سوى ذلك فمخارق وترّهات ، ويكفي في الرد عليهم ظهور كذبهم ، واضطراب قولهم . وقد اتفقت الشرائع على أن القضاء بالنجوم ؛ محرم مذموم»[١] .

* * *

(١) المفهم (٥/ ٦٣٧-٦٣٨).

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مقرا تفرده بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض -أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع- إلا اللَّه، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره»[1].

قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

قال صديق حسن خان: «والمعنى أن أحد الفريقين من الذين يوحّدون اللَّه الخالق الرازق، ويخصّونه بالعبادة، والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق ولا رزق، ولا نفع ولا ضر، لعَلى أحد الأمرين من الهدى والضلالة. ومعلوم لكل عاقل أن من عبد الذي يخلق ويرزق، وينفع ويضر؛ هو الذي على الهدى، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق، ولا نفع ولا ضر؛ هو الذي على الضلالة.

فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، وهم المسلمون، وفريق الضلالة وهم المشركون، على وجه أبلغ من التصريح.

وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من مُوال أو منافٍ قالوا: لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك»[2].

وقال السعدي: «أي قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم، ما به يُعلم علمًا يقينًا لا شك فيه مَن المحق منا ومن المبطل، ومن المهتدي ومن الضال! حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه، فإنك إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥١٧).

(٢) فتح البيان (١١/ ١٩١-١٩٢).

الخالق لسائر المخلوقات -المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله، والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه، العلي الكبير في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال وكل جلال وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه- وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها ولا لمن عبدها، نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل هي جمادات لا تعقل، ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون اللّه، فهو يدعو مَنْ هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين للّه ويحاربه، ويكذب رسل اللّه الذين جاءوا بالإخلاص للّه وحده؛ تَبَيَّنَ لك أي الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال، أوضح من لسان المقال»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «معناه التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى اللَّه وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]، وقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[2]»[3].

قال صديق حسن خان: «وفي إسناد الجرم إلى المسلمين، ونسبةِ مطلق العمل إلى المخاطبين مع كون أعمال المسلمين من البرّ الخالص، والطاعة المحضة، وأعمال الكفار من المعصية البينة، والإثم الواضح؛ من الإنصاف ما لا يُقادَر قدره، والمقصود المهادنة والمتاركة، وقد قيل: نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف»[4].

قال ابن عاشور: «وليس لهذه الآية تعلق بمشاركة القتال، فلا تجعل منسوخة بآيات القتال»[5].

* * *

---

(١) يونس: الآية (٤١).

(٢) سورة الكافرون (١-٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٧).

(٤) فتح البيان (١١/ ١٩٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الفتاح: القاضي والحاكم بالحق، سمي القاضي كذلك، لأنه يفتح ما أغلق في القضايا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور»[2].

* * *

(١) الروم: الآيات (١٤-١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين باللَّه الآلهة والأصنام: أروني أيها القوم الذين ألحقتموهم باللَّه فصيرتموهم له شركاء في عبادتكم إياهم؛ ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السماوات ﴿كَلَّا﴾ يقول -تعالى ذكره-: كذَبُوا، ليس الأمر كما وصفوا، ولا كما جعلوا وقالوا من أن لله شريكًا، بل هو المعبود الذي لا شريك له، ولا يصلح أن يكون له شريك في ملكه، العزيز في انتقامه ممن أشرك به من خلقه، الحكيم في تدبيره خلقه»[1].

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى ﴿أَرُونِيَ﴾ وكان يراهم ويعرفهم؟ قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء باللَّه، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم، ليطلعهم على إحالة القياس إليه، والإشراك به. و﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة، كما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2] بعد ما حجّهم، وقد نبه على تفاحش غلطهم وإن لم يقدُروا اللَّه حق قدره بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات، وهو راجع إلى اللَّه وحده، أو ضمير الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾[3]»[4].

وقال السعدي: «﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مدبر. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٩٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٦٧).
(٣) الإخلاص: الآية (١).
(٤) الكشاف (٣/ ٢٨٩-٢٩٠).

الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده، وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقا للنجاة، ونهى عن الشرك به، واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقًا للشقاء والهلاك، لكفى بذلك برهانا على كمال حكمته، فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين؛ العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرًا من أطاعك، ونذيرًا من كذبك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر»[(١)].

قال ابن كثير: «﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[(٢)]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾[(٣)]»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالة النبي ﷺ للثقلين

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[(٥)].

★ **فوائد الحديث:**

«فيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الإنس والجن، وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام»[(٦)].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٩٦).
(٢) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٣) الفرقان: الآية (١).
(٤) تفسير القرآن القظيم (٦/ ٥١٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).
(٦) فتح البيان (١١/ ١٩٤).

ففيه «دليل على فضل النبي ﷺ على الأنبياء بعموم الرسالة للإنس والجن»[١].
وقد تقدم الكلام على الحديث في سورة الأعراف الآية (١٥٨).

* * *

(١) نظم الدرر (١٥/ ٥٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويقول هؤلاء المشركون بالله إذا سمعوا وعيد الله الكفار وما هو فاعل بهم في معادهم مما أنزل الله في كتابه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ جائيًا، وفي أي وقت هو كائن ﴿إِن كُنتُمْ﴾ فيما تعدوننا من ذلك ﴿صَٰدِقِينَ﴾ أنه كائن، قال الله لنبيه: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّكُم﴾ أيها القوم ﴿مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ هو آتيكم ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ﴾ إذا جاءكم ﴿سَاعَةً﴾ فتُنظروا للتوبة والإنابة ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قبله بالعذاب؛ لأن الله جعل لكم ذلك أجلًا»[1].

قال ابن كثير: «ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾[2]. ثم قال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا ينتقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يُقدّم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾[4]»[5].

وقال السعدي: «فمما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا ظلم منهم؛ فأي ملازمة بين صدقه، وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير في أمر في أحوال الدنيا، لو جاء قوما يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٩٦).
(٢) الشورى: الآية (١٨).
(٣) نوح: الآية (٤).
(٤) هود: الآيتان (١٠٤و١٠٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥١٩).

ينتهز الفرصة منهم ويُعِدُّ لهم فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم. فلو قال بعضهم: إن كنت صادقا، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلا أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له، ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه؟ قُلْ لهم -مخبرًا بوقت وقوعه الذي لا شك فيه-: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال الذين كفروا من مشركي العرب: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي جاءنا به محمد ﷺ، ولا بالكتاب الذي جاء به غيره من بين يديه. .

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يتلاومون، يحاور بعضهم بعضًا؛ يقول المستضعفون كانوا في الدنيا، للذين كانوا عليهم فيها يستكبرون: لولا أنتم أيها الرؤساء والكبراء في الدنيا لكنا مؤمنين بالله وآياته»[1].

وقال السعدي: «لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب، لا بد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنك لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لَرأيت أمرًا عظيمًا وهولًا جسيمًا، ورأيت كيف يتراجعون ويرجع بعضهم إلى بعض القول، فـ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم القادة: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفران، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صددناكم: منعناكم. مأخوذ من صَدِّ الجبل وهو ما يَحُولُ بينك وبينه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ في الدنيا فرأسوا في الضلالة والكفر بالله ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ فيها فكانوا أتباعًا لأهل الضلالة منهم إذ قالوا لهم ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ ومنعناكم من اتباع الحق ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ من عند الله يبين لكم، ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ فمنعكم إيثاركم الكفر بالله على الإيمان من اتباع الهدى، والإيمان بالله ورسوله»[1].

وقال ابن كثير: «فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأغلال: جمع غُلٍّ، وهو ما يقيد به كالحبل ونحوه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال الذين استضعفوا من الكفرة بالله في الدنيا، فكانوا أتباعًا لرؤسائهم في الضلالة ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ فيها، فكانوا لهم رؤساء، بل مكركم لنا بـ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ صدّنا عن الهدى ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أمثالًا وأشباهًا في العبادة والألوهة. وأضيف المكر إلى الليل والنهار. والمعنى ما ذكرنا من مكر المستكبرين بالمستضعفين في الليل والنهار، على اتساع العرب في الذي قد عُرِفَ معناها فيه من منطقها، من نقل صفة الشيء إلى غيره، فتقول للرجل: يا فلان نهارُك صائمٌ وليلُك قائمٌ، وكما قال الشاعر:

وَنِـمْـتِ ومَـا لَـيْـلُ الـمَـطِـيِّ بِـنَـائـمِ

وما أشبه ذلك..

وقوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ يقول: حين تأمروننا أن نكفر بالله. وقوله: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ يقول شركاء. وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يقول: وندموا على ما فرطوا من طاعة الله في الدنيا حين عاينوا عذاب الله الذي أعد لهم. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وغُلّت أيدي الكافرين بالله في جهنم إلى أعناقهم في جوامع من نار جهنم، جزاء بما كانوا بالله في الدنيا يكفرون، يقول -جل ثناؤه-: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثوابًا لأعمالهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا

يعملونها، ومكافأة لهم عليها»[١].

وقال ابن كثير: «أي: كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا وتَغُرّونا وتُمَنّونا، وتخبرونا أنّا على هدى وأنّا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن.

قال قتادة، وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكركم بالليل والنهار. وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم: مكركم بالليل والنهار.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ أي: نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شُبَهًا وأشياءَ من المحال تضلونا بها ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۚ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع، كُلٌّ ندم على ما سَلَف منه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم كُلٌّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ٩٨).

(٢) الأعراف: الآية (٣٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مترفوها: جمع مترَف، وهو المتنعِّم بأنواع النِّعم، المتوسع فيها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما بعثنا إلى أهل قرية نذيرا ينذرهم بأسنا أن ينزل بهم على معصيتهم إيانا، إلا قال كبراؤها ورؤساؤها في الضلالة كما قال قوم فرعون من المشركين له: إنَّا بما أرسلتم به من النذارة، وبعثتم به من توحيد اللَّه، والبراءة من الآلهة والأنداد؛ كافرون»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مسليا لنبيه، وآمرًا له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبيًا في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم؛ كما قال قوم نوح: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[2]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[3]، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[5]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ﴾[6] وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[7]. وقال

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٩٩).
(٢) الشعراء: الآية (١١١).
(٣) هود: الآية (٢٧).
(٤) الأعراف: الآيتان (٧٥و٧٦).
(٥) الأنعام: الآية (٥٣).
(٦) الأنعام: الآية (١٢٣).
(٧) الإسراء: الآية (١٦).

ههنا : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي : نبي أو رسول .

﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة . قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر . ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي : لا نؤمن به ولا نتبعه»[١] .

قال أبو حيان : «ونص على المترفين ؛ لأنهم أول المكذبين للرسل ؛ لِما شغلوا به من زخرفة الدنيا ، وما غلب على عقولهم منها ، فقلوبهم أبدًا مشغولة منهمكة ، بخلاف الفقراء ؛ فإنهم خالون من مستلذات الدنيا ، فقلوبهم أقبل للخير ، ولذلك هم أتباع الأنبياء كما جاء في حديث هرقل»[٢] .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٠-٥٢١).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٧٢).

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يبسط : يوسع . من البسط : وهو الاتساع في الشيء .

يقدر : يقتر ويضيق .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : وقال أهل الاستكبار على اللَّه من كل قرية أرسلنا فيها نذيرًا لأنبيائنا ورسلنا : نحن أكثر أموالا وأولادًا وما نحن في الآخرة بمعذبين ؛ لأن اللَّه لو لم يكن راضيًا ما نحن عليه من الملة والعمل لم يخولنا الأموال والأولاد، ولم يبسط لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا من ذلك لرضاه أعمالنا ، وآثرنا بما آثرنا على غيرنا لفضلنا ، وزلفة لنا عنده، يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ : قل لهم يا محمد ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ من المعاش والرياش[1] في الدنيا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ فيضيّق على من يشاء لا لمحبة فيمن يبسط له ذلك، ولا خير فيه ولا زلفة له استحق بها منه، ولا لبغض منه لمن قدر عليه ذلك ولا مقت، ولكنه يفعل ذلك محنة لعباده وابتلاء، وأكثر الناس لا يعلمون أن اللَّه يفعل ذلك اختبارًا لعباده، ولكنهم يظنون أن ذلك منه محبةُ لمن بسط له ومقت لمن قدر عليه»[2] .

قال ابن كثير : «أي : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة اللَّه لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ

(١) المال والخصب والمعاش .

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٩٩).

لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾[3].

وقد أخبر اللَّه عن صاحب تينك الجنتين: أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئا، بل سُلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا قال ﷻ هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾»[4].

* * *

(١) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).

(٢) التوبة: الآية (٥٥).

(٣) المدثر: الآيات (١١-١٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢١-٥٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وما أموالكم التي تفتخرون بها أيها القوم على الناس، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم، بالتي تقربكم منا قربة»[(١)].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ **قال ابن كثير:** «أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن المظاهر الحسنة لا تقرب أحدا من اللَّه ما لم يقارنها إيمان وعمل صالح وما ورد في صفة غرف أهل الجنة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

دلت الآية والحديث، على أن اللَّه ﷻ لا يثيب الإنسان ولا يقربه منه من أجل مظهره الحسن، أو صورته الجميلة؛ أو أمواله وأولاده، وإنما يثيبه ويقربه لأجل

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٩)، ومسلم (٤/ ١٩٨٧/ ٢٥٦٤[٣٤])، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٨/ ٤١٤٣).

إيمانه وعمله الصالح.

قال النووي: «ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب، وهو من نحو قوله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة**» الحديث. قال المازري: واحتج بعض الناس بهذا الحديث على أن العقل في القلب لا في الرأس، وقد سبقت المسألة مبسوطة في حديث «**إن في الجسد مضغة**»»(١)(٢).

قال الشيخ ابن عثيمين: «**فاللَّه سبحانه لا ينظر إلى العباد إلى أجسامهم؛ هل هي** كبيرة أو صغيرة، أو صحيحة أو سقيمة، ولا ينظر إلى الصور؛ هل هي جميلة أو ذميمة، كل هذا ليس بشيء عند اللَّه، وكذلك لا ينظر إلى الأنساب؛ هل هي رفيعة أو دنيئة، ولا ينظر إلى الأموال، ولا ينظر إلى شيء من هذا أبدًا، ليس بين اللَّه وبين خلقه صلة إلا بالتقوى، فمن كان لله أتقى كان من اللَّه أقرب، وكان عند اللَّه أكرم.

إذن؛ لا تفتخر بمالك ولا بجمالك ولا ببدنك ولا بأولادك ولا بقصورك ولا بسياراتك ولا بشيء من هذه الدنيا أبدًا، إنما إذا وفقك اللَّه للتقوى؛ فهذا من فضل اللَّه عليك، فاحمد اللَّه عليه»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة غرف أهل الجنة

* عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها اللَّه لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام**»(٤).

★ **غريب الحديث:**

يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها: أي: يرى أهل الجنة ظاهرها من باطنها؛ لكونها شفّافة لا تحجب ما وراءها.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٠) والبخاري (١/ ١٦٨/ ٥٢) ومسلم (/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩)،) وأبو داود (٣/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٣٣٣٠)، والترمذي (٣/ ٥١١/ ١٢٠٥) والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥) وابن ماجة (٢/ ١٣١٨-١٣١٩/ ٣٩٨٤) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) شرح مسلم (١٦/ ٩٩).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٣) وصححه ابن حبان (٢/ ٢٦٢/ ٩٠٥)، والحاكم (١/ ١٢٣) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

لمن أطعم الطعام: للعيال، والفقراء، والأضياف، والإخوان، ونحوهم.

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث له تعلق بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وفيه بيان صفة هذه الغرف وصفة أهلها الذين أعدها اللَّه لهم.

و قد تقدّم الكلام على هذا الحديث في سورة (الفرقان) الآية (٧٦)، وسيأتي الكلام عليه في سورة (الذاريات) الآية (١٧) إن شاء اللَّه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يسعون في الصد عن سبيل اللّه واتباع الرسل والتصديق بآياته، ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٢-٥٢٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة يبسطُ على هذا من المال كثيرا، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[1] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقِع، وهذا غني مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغَمرَات في أسفل الدركات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**قد أفلح مَنْ أسلم ورُزق كفَافا، وقَنَّعه اللَّه بما آتاه**»[2]. رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو.

وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب»[3].

وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قال ابن جرير: «يقول: وهو خير من قيل إنه يرزق ووُصِف به، وذلك أنه قد يوصف بذلك من دونه فيقال: فلان يرزق أهله وعياله»[4].

---

(١) الإسراء: الآية (٢١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨) ومسلم (٢/ ٧٣٠/ ١٠٥٤) والترمذي (٤/ ٤٩٧/ ٢٣٤٨) وابن ماجه (٢/ ١٣٨٦/ ٤١٣٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٤) جامع البيان (٢٢/ ١٠١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحض على الإنفاق وتبشير المنفق بالخلف

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قال الله: أَنفِق يا بن آدم أُنفق عليك**»[١].

★ من فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله ﷻ: «**أنفق أنفق عليك**» هو معنى قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فيتضمن الحث على الإنفاق في وجوه الخير، والتبشير بالخلف من فضل اللَّه تعالى»[٢].

قال الحافظ: «وفي ترك تقييد النفقة بشيء معين ما يرشد إلى أن الحث على الإنفاق يشمل جميع أنواع الخير»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»[٤].

★ من فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**اللهم أعط منفقًا خلفًا**» هو موافق في المعنى لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ وهذا يعم الواجبات والمندوبات»[٥].

وقد تقدمت فوائد الحديثين عند قوله تعالى من سورة (الإسراء): ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾.. الآية (٢٩).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٢)، والبخاري (٩/ ٦٢١/ ٥٣٥٢) مختصراً. ومسلم مطولا (٢/ ٦٩٠-٦٩١/ ٩٩٣).

(٢) شرح مسلم بشرح النووي (٧/ ٦٩).

(٣) فتح الباري (٩/ ٦٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٣٨٨/ ١٤٤٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٠/ ١٠١٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٥/ ٩١٧٨).

(٥) المفهم (٣/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويوم نحشر هؤلاء الكفار بالله جميعًا، ثم نقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا؟ فتتبرأ منهم الملائكة ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ ربنا؛ تنزيهًا لك وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء من الشركاء والأنداد ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ لا نتخذ وليًّا دونك ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾.. وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ يقول: أكثرهم بالجن مصدقون، يزعمون أنهم بنات الله، تعالى الله عمَّا يقولون علوا كبيرا»(١).

وقال ابن كثير: «﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾(٢)، وكما يقول لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾(٣). وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله»(٤).

وقال أبو حيان: «وخطاب الملائكة تقريع للكفار، وقد علم تعالى أن الملائكة منزهون بُرآء مما وجه عليهم من السؤال، وإنما ذلك على طريق توقيف الكفار، وقد علم سوء ما ارتكبوه من عبادة غير الله، وأن من عبدوه متبرِّئ منهم»(٥).

وقال ابن عطية: «﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يريدون البراءة من أن يكون لهم رضى

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٢).
(٢) الفرقان: الآية (١٧).
(٣) المائدة: الآية (١١٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٤).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٢٧٣).

أو علم أو مشاركة في أن يعبدهم البشر، ثم قرروا أن البشر إنما عبدت الجن برضى الجن وبإغوائها للبشر، فلم تنف الملائكة عبادة البشر إياها، وإنما قررت أنها لم تكن لها في ذلك مشاركة، ثم ذنّبت الجن، وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن بطاعتهم إياهم وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم، فهذا نوع من العبادة. وقد يجوز إن كان في الأمم الكافرة من عبد الجن، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها»[1].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٤٢٣).

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فاليوم لا يملك بعضكم أيها الملائكة للذين كانوا في الدنيا يعبدونكم نفعًا ينفعونكم به، ولا ضرًّا ينالونكم به أو تنالونهم به ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول: ونقول للذين عبدوا غير اللَّه فوضعوا العبادة في غير موضعها، وجعلوها لغير من تنبغي أن تكون له ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ فقد وردتموها»[1].

قال أبو حيان: «قيل هنا: ﴿الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وفي السجدة: ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ كل منهما أي: من العذاب ومن النار، لأنهم هنا لم يكونوا ملتبسين بالعذاب، بل ذلك أول ما رأوا النار، إذ جاء عقيب الحشر، فوصفت لهم النار بأنها هي التي كنتم تكذبون بها. وأما الذي في السجدة، فهم ملابسوا العذاب، متردّدون فيه لقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[2] فوصف لهم العذاب الذي هم مباشروه، وهو العذاب المؤبد الذي أنكروه»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٢).
(٢) السجدة: الآية (٢٠).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات كتابنا بيِّنات، يقول: واضحات؛ أنهن حق من عندنا ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يقول: قالوا عند ذلك: لا تتبعوا محمدًا، فما هو إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم من الأوثان، ويغير دينكم ودين آبائكم ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء المشركون: ما هذا الذي تتلو علينا يا محمد، يعنون القرآن، ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾، يقول: إلا كذب ﴿مُّفْتَرًى﴾: يقول: مختلق متخرَّص.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وقال الكفار للحق، يعني محمدًا ﷺ، لما جاءهم، يعني: لما بعثه اللّه نبيًّا: هذا سحر مبين، يقول: ما هذا إلا سحر مبين، يبين لمن رآه وتأمله أنه سحر»[1].

وقال ابن عطية: «ذكر اللّه تعالى في هذه الآية أقوال الكفرة، وأنواع كلامهم عندما يُقرأ عليهم القرآن، ويسمعون حكمته وبراهينه البينة؛ فقائل طَعن على النبي ﷺ بأنه يقدح في الأوثان ودين الآباء. وقائل طعن عليه بأن هذا القرآن مفترى، أي مصنوع من قبل محمد ﷺ، ويدعي أنه من عند اللّه. وقائل طعن عليه بأن ما عنده من الرِّقة واستجلاب النفوس واستمالة الأسماع؛ إنما هو سحر به يجلب ويستدعي، تعالى اللّه عن أقوالهم، وتقدست شريعته عن طعنهم»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

⋆ غريب الآية:

نكير: النكير اسم بمعنى الإنكار. والأصل: نكيري، فحذفت الياء لمراعاة الفواصل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما أنزلنا على المشركين القائلين لمحمد ﷺ لما جاءهم بآياتنا: هذا سحر مبين، بما يقولون من ذلك؛ كتبًا يدرسونها، يقول: يقرؤونها..

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ يقول: وما أرسلنا إلى هؤلاء المشركين من قومك يا محمد فيما يقولون ويعملون قبلك من نبي ينذرهم بأسنا عليهم.

وقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يقول: وكذب الذين من قبلهم من الأمم رسلنا وتنزيلنا ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ يقول: ولم يبلغ قومك يا محمد عشر ما أعطينا الذين من قبلهم من الأمم من القوة والأيدي والبطش، وغير ذلك من النعم..

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يقول: فكذبوا رسلي فيما أتوهم به من رسالتي، فعاقبناهم بتغييرنا بهم ما كنا آتيناهم من النعم، فانظر يا محمد كيف كان نكير، يقول: كيف كان تغييري بهم وعقوبتي»[1].

وقال ابن كثير: «أي: ما أنزل اللَّه على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٣-١٠٤).

كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما مَنَّ اللّه عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه. ثم قال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم، ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا. وكذلك قال قتادة، والسدّي، وابن زيد. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾[2]، أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب اللّه ولا رده، بل دمر اللّه عليهم لما كذبوا رسله؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي»[3].

وقال السعدي: «وقد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالخسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء، فاحذروا يا هؤلاء المكذبون، أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم»[4].

* * *

---

(١) الأحقاف: الآية (٢٦).

(٢) غافر: الآية (٨٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٤٣-٥٤٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٢٩).

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: إنما أعظكم أيها القوم بواحدة وهي طاعة اللَّه.. وقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ يقول: وتلك الواحدة التي أعظكم بها هي أن تقوموا لله اثنين اثنين، وفرادى فرادى.. وقوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ يقول: لأنه ليس بمجنون.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: ما محمد إلا نذير لكم ينذركم على كفركم باللَّه عقابه أمام عذاب جهنم قبل أن تصْلوها، وقوله: ﴿هُوَ﴾ هو كناية اسم محمد ﷺ»[1].

وقال الرازي: «قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى قرب العذاب، كأنه قال: ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدي العذاب؛ أي: سوف يأتي العذاب بعده»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إنذار النبي ﷺ قومه بين يدي الساعة

* عن ابن عباس ﵄ قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «**يا صباحاه!**»، فاجتمعت إليه قريش قالوا: مالَك؟ قال: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو**

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٤-١٠٥).

(٢) تفسير الرازي (٢٥/ ٢٧٠).

يصبّحكم أو يمسّيكم؛ أما كنتم تصدّقوني؟» قالوا: بلى. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًّا لك؛ ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1]»[2].

* عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: خرج إلينا النبي ﷺ يومًا، فنادى ثلاث مرار، فقال: «**أيها الناس، تدرون ما مَثلي ومَثلكم؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**إنما مثلي ومثلكم مثَل قوم خافوا عدُوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءى لهم، فبينما هم كذلك، أبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أُتيتم، أيها الناس أتيتم**» ثلاث مرار[3].

* عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**بعثت أنا والساعة جميعًا، إن كادت لتسبقني**»[4].

★ غريب الأحاديث:

يا صباحاه: يحتمل وجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يُغيرون وقت الصباح، وأنشدوا: نحن صَبَحنا عامرًا في دارها. فكأن القائل: يا صباحاه، يقول: قد رهَقَنا العدوّ.

والثاني: لما كان الأعداء يتراجعون عن القتال في الليل، فإذا جاء النهار عاودوه، كان قول القائل: يا صباحاه، بمعنى: قد جاء وقت الصباح

---

(١) المسد: الآية (١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨١)، والبخاري (٨/ ٦٩٢/ ٤٨٠١)، ومسلم (١/ ١٩٣-١٩٤/ ٢٠٨)، والترمذي (٥/ ٤٢٠/ ٣٣٦٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٨٨): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».
قلت: في إسناده بشير بن المهاجر تكلم فيه أحمد فقال: «منكر الحديث يجيء بالعجب»، وقال أبو حاتم: «لا يحتج به»، وقال ابن عدي: فيه بعض الضعف ووثقه ابن معين وغيره، وقال النسائي: «لا بأس به»، قال الحافظ في التقريب: «صدوق لين رمي بالإرجاء»، فحديثه هذا حسن، واللَّه أعلم، خاصة وأن له شاهداً في صحيح البخاري.

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٨)، والبزار- كما في «المجمع» (١٠/ ٣١١)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجاله الصحيح».
قلت: هو بالإسناد المتقدم، وهو حسن واللَّه أعلم. وله شاهد من حديث وهب بن عبد اللَّه السوائي عند أحمد (٤/ ٣٠٩) وإسناده حسن.

فتأهّبوا للّقاء[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

أفادت هذه الأحاديث إنذار النبي ﷺ قومه بين يدي الساعة «أي قدامها وهو عذاب الآخرة»[٢].

قال الطيبي: «قوله: «**بين يدي**» ظرف لقوله: «**نذير**»، وهو بمعنى قدّام؛ لأن كل من يكون قدّام أحد يكون بين الجهتين السابقتين ليمينه وشماله، وفيه تمثيل، مثّل إنذاره القوم بعذاب اللَّه تعالى النازل على القوم بنذير قوم يتقدم جيش العدو فينذرهم»[٣].

وقال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه: انتهاء رسول اللَّه ﷺ إلى الغاية في التبليغ.

وفيه أيضًا من الحكمة البداءة في ذلك بالعشيرة الأقربين؛ من أجل أنهم أهل العلم ببواطن الإنسان وأسراره، وهم المطلعون على خفيّ أحواله، فلا يمكنه أن يأمر الأقربين من أهله بما يخالفهم إلى غيره، ثم يبلّغ إلى الناس بعدهم»[٤].

وقال الحافظ: «والسر في الأمر بإنذار الأقربين أولًا؛ أن الحجة إذا قامت عليهم تعدّت إلى غيرهم، وإلا فكانوا علة للأبعدين في الامتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، فلذلك نصّ له على إنذارهم»[٥].

* * *

(١) كشف المشكل (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).
(٢) فتح البيان (١١/ ٢٠٩).
(٣) شرح الطيبي (١١/ ٣٣٩٧).
(٤) الإفصاح (٣/ ٦٣).
(٥) فتح الباري (٨/ ٦٤٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لقومك المكذبين الرادين عليك ما أتيتهم به من عند ربك: ما أسألكم من جُعْلٍ على إنذاريكم عذاب اللَّه، وتخويفكم به بأسه، ونصيحتي لكم في أمري إياكم بالإيمان باللَّه، والعمل بطاعته، فهو لكم، لا حاجة لي به. وإنما معنى الكلام: قل لهم: إني لم أسألكم على ذلك جعلا فتتهموني، وتظنوا أني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمال آخذه منكم..

قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقول: ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمان باللَّه والعمل بطاعته، وتبليغكم رسالته، إلا على اللَّه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ يقول: واللَّه على حقيقة ما أقول لكم شهيد يشهد لي به، وعلى غير ذلك من الأشياء كلها»[(١)].

وقال ابن عطية: «أمره اللَّه تعالى في هذه الآية بالتبري من طلب الدنيا، وطلب الأجر على الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أربابها، والتوكل على اللَّه في الأجر وجزاء الجد، والإقرار بأنه شهيد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك»[(٢)].

قال صديق حسن خان: «ومثل هذه الآية قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[(٣)] وقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾[(٤)]»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٥).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٢٥).
(٣) الشورى: الآية (٢٣).
(٤) الفرقان: الآية (٥٧).
(٥) فتح البيان (١١/ ٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ وهو الوحي، يقول: ينزله من السماء، فيقذفه إلى نبيه محمد ﷺ ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يقول: علام ما يغيب عن الأبصار، ولا مَظْهَر لها، وما لم يكن مما هو كائن، وذلك من صفة الرب..

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يقول: قل يا محمد جاء القرآن ووحي الله ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ يقول: وما ينشئ الباطل خَلقًا، والباطل هو فيما فسره أهل التأويل إبليس ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ يقول: ولا يعيده حيا بعد فنائه»[1].

قال ابن كثير تعليقا على هذا القول: «وهذا وإن كان حقا، ولكن ليس هو المراد ههنا. والله أعلم».

وقال: «قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾... ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة»[2].

وقال الزمخشري: «والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[3]»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٥-١٠٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٧).
(٣) الإسراء: الآية (٨١).
(٤) الكشاف (٣/ ٢٩٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الحق بالتوحيد، والباطل بالشرك وعبادة الأصنام

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾»[2].

★ غريب الحديث:

زهق: قال في «المختار»: زهقت نفسه: خرجت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾[3]، وزهق الباطل: أي: اضمحلّ، وبابه: خضع، وزهِقت نفسه، بالكسر، زهوقًا، لغة فيه عند بعضهم.

نُصُب: النُّصب: ما نصُب فعُبد من دون اللّه.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**جاء الحق**»: قال ابن الجوزي: «يعني الإسلام والتوحيد. و«**زهق**» أي: بطل واضمحلّ «**الباطل**» وهو الشرك.

فإن قيل: الشرك في اعتقاد أهله صحيح معمول عليه عندهم، فكيف يقال: بطل؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه لما أُزيلت الأصنام ومُنع من عبادتها بمكة بطلت.

والثاني: أنه لما وضح عيب الشرك بالدليل؛ بطل حكمه عند المتدبر الناظر»[4].

قال الحافظ: «وفعل النبي ﷺ ذلك لإذلال الأصنام وعابديها، ولإظهار أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تدفع عن نفسها شيئًا»[5].

---

(١) الإسراء: الآية (٨١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٧-٣٧٨)، والبخاري (٨/ ٥١٠/ ٤٧٢٠)، ومسلم (٣/ ١٤٠٨-١٤٠٩/ ١٧٨١)، والترمذي (٥/ ٢٨٣-٢٨٤/ ٣١٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٢/ ١١٢٩٧).

(٣) التوبة: الآية (٥٥)، والآية (٨٥).

(٤) كشف المشكل (١/ ٢٨٢).

(٥) فتح الباري (٨/ ٢٠).

وقال ابن هبيرة: «وفي هذا الحديث دلالة على صدق اللَّه ورسوله مَن وعده على أن رسول اللَّه ﷺ وَثِقَ باستمرار ما فتح اللَّه به عليه؛ من ذلك طعنه الأصنام.

وقوله: «**جاء الحق وزهق الباطل**» قول واثق بدوام ذلك، موقن باستمراره»[١].

وقال العيني: «وفي كسر الأصنام دلالة على كسر ما في معناها من العيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر اللَّه ﷻ. وقال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصورُ المتخذة من المدر والخشب وشبهها، ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من ذهب أو فضة أو خشب أو حديد أو رصاص إذا غيرت وصارت قطعًا. وقال المهلب: ما كسر من آلات الباطل وكان فيها بعد كسرها منفعة؛ فصاحبها أولى بها مكسورة، ألا يُرى أن الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال؟ وقد همّ ﷺ بحرق دور من تخلف عن صلاة الجماعة؟ واللَّه ﷻ أعلم»[٢].

* * *

(١) الإفصاح (٢/ ٣٥).

(٢) عمدة القاري (١٣/ ١٢٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- قل يا محمد لقومك: إن ضللت عن الهدى فسلكت غير طريق الحق؛ إنما ضلالي عن الصواب على نفسي، يقول: فإن ضلالي عن الهدى على نفسي ضره.

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ يقول: وإن استقمت على الحق ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ يقول: فبوحي اللَّه الذي يوحِي إلي، وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى»[١].

وقال ابن كثير: «الخير كله من عند اللَّه، وفيما أنزله ﷺ من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومَنْ ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من الأدب إضافة الخير والهدى إلى اللَّه سبحانه، وإضافة الشر والضلال والخطأ إلى النفس والشيطان

* عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أتي برجل تزوج امرأة ولم يفرض لها، فتوفي قبل أن يدخل بها: (أقول فيها برأيي؛ فإن يكن صوابًا فمن اللَّه، وان يكن خطأً فمني ومن الشيطان، واللَّه ورسوله بريئان منه)[٣].

★ **فوائد الأثر:**

قال ابن القيم: «فيه أن اللَّه تعالى هو الموفّق للصواب، الملهم له بتوفيقه وإعانته، وأن الخطأ من النفس والشيطان، ولا يضاف إلى اللَّه ولا إلى رسوله.

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٠٦). (٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٠-٤٣١)، وأبو داود (٢/ ٥٨٩-٥٩٠/ ٢١١٦)، والنسائي (٦/ ٤٣٠-٤٣١/ ٣٣٥٤)، والحاكم (٢/ ١٨٠)، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

ولا حجة فيه للقدرية المجوسية، إذ إضافته إلى النفس والشيطان إضافة إلى محله ومصدره، وهو النفس وشبهها، وهو الشيطان وتلبيسه الحق بالباطل، بل فيه رد على القدرية الجبرية الذين يبرئون النفس والشيطان من الأفعال البتة، ولا يرون للمكلف فعلًا اختياريًّا يكون صوابًا أو خطأ. والذي دل عليه قول ابن مسعود، وهو قول الصحابة كلهم، وأئمة السنة من التابعين ومن بعدهم؛ هو إثبات القدر الذي هو نظام التوحيد، وإثبات فعل العبد الاختياري الذي هو نظام الأمر والنهي، وهو متعلَّق المدح والذم والثواب والعقاب»[1].

* * *

(١) تهذيب السنن ضمن حاشية «عون المعبود» (٦/ ١٤٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: إن ربي سميع لما أقول لكم حافظ له، وهو المجازي لي على صدقي في ذلك، وذلك مني غير بعيد، فيتعذر عليه سماع ما أقول لكم، وما تقولون، وما يقوله غيرنا، ولكنه قريب من كل متكلم، يسمع كل ما ينطق به، أقرب إليه من حبل الوريد»(١).

قال ابن كثير: «أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفتي السمع والقرب

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «كنا مع رسول اللّٰه ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبّرنا، ارتفعت أصواتنا. فقال النبي ﷺ: **يا أيها الناس! اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جده**»(٣).

★ فوائد الحديث:

في الآية والحديث بيان أن اللّٰه ﷻ متصف بالسمع والقرب وهما صفتان لله تليقان بجلاله.

قال ابن القيم: «فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد. وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستوائه على عرشه، بل يجامعه

---

(١) جامع البيان ٢٢/ ١٠٦).	(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٧)، والبخاري (٦/ ١٦٦/ ٢٩٩٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٧/ ٢٧٠٤[٤٦])، وأبو داود (٢/ ١٨٢/ ١٥٢٦)، والترمذي (٥/ ٤٢٧/ ٣٣٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٣٧-١٣٨/ ١٠٣٧١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٦/ ٣٨٢٤).

ويلازمه؛ فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، ولكنه نوع آخر. والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدًّا من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جليسه، كما قيل:

ألا رُبّ مـن يـدنـو ويـزعـم أنـه يُحبك والنائي أحب وأقرب»[1].

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

★ **غريب الآية:**

لا فوت: لا نجاة ولا مهرب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولو ترى يا محمد إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يكونوا يُمنعون في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقتادة: من تحت أقدامهم. وعن ابن عباس والضحاك: يعني: عذابهم في الدنيا. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر.

والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك»[١].

قال أبو حيان: «والظاهر أن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أنه وقت البعث وقيام الساعة، وكثيرًا جاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[٢] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٣] وكل ذلك في يوم القيامة»[٤].

وقال ابن كثير: «وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس، ثم أورد في ذلك حديثا موضوعا بالكلية. ثم لم ينبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه»[٥].

وقال صديق حسن خان: «وقد ثبت في الصحيح أنه يخسف بجيشٍ في البيداء

---

(١) تفسير القرآن العضيم (٦/ ٥٢٨).
(٢) الأنعام: الآية (٢٧).
(٣) السجدة: الآية (١٢).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٢٧٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٨).

من حديث حفصة وعائشة، وخارج الصحيح من حديث أم سلمة وصفية وأبي هريرة وابن مسعود، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية»[١].

* * *

(١) فتح البيان (١١/ ٢١٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

التناوش: التناول. يقال: تناوش القوم كذا: أي تَناوَلُوهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء المشركون حين عاينوا عذاب الله: آمنا به، يعني آمنا بالله وبكتابه وبرسوله.

وقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي: وأين لهم التوبة والرجعة، أي: قد بعدت عنهم، فصاروا منها كموضع بعيد أن يتناولوها، وإنما وصفت ذلك الموضع بالبعيد؛ لأنهم قالوا ذلك في القيامة، فقال الله: أنى لهم التوبة المقبولة، والتوبة المقبولة إنما كانت في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيدًا من الآخرة»[1].

قال ابن كثير: «﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبكتبه ورسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[2]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد»[3].

وقال الشنقيطي: «والمعنى أنه يستبعد كل الاستبعاد، ويَبعُد كل البعد أن يتناول الكفار الإيمان النافع في الآخرة بعد ما ضيّعوا ذلك وقت إمكانه في دار الدنيا،

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٠).
(٢) السجدة: الآية (١٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٨).

وقيل: الاستبعاد لردّهم إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا، والأول أظهر، ويدل عليه قوله قبله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ومن أراد تناول شيء من مكان بعيد لا يمكنه ذلك. والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

* * *

(١) أضواء البيان (٦/ ٢٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ يقول: وقد كفروا بما يسألونه ربهم عند نزول العذاب بهم، ومعاينتهم إياه من الإقالة له، وذلك الإيمان بالله وبمحمد ﷺ وبما جاءهم به من عند الله..

وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقول: وهم اليوم يقذفون بالغيب محمدًا من مكان بعيد، يعني أنهم يرجمونه، وما أتاهم من كتاب الله بالظنون والأوهام، فيقول بعضهم: هو ساحر، وبعضهم شاعر، وغير ذلك»[1].

وقال ابن كثير: «قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ﴾[2]، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذّبون بالغيب والنشور والمعاد، ويقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[3]. قال قتادة: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار»[4].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١١).

(٢) الكهف: الآية (٢٢).

(٣) الجاثية: الآية (٣٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وحيل بين هؤلاء المشركين حين فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب، فقالوا: آمنَّا به ﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ حينئذ من الإيمان بما كانوا به في الدنيا قبل ذلك يكفرون، ولا سبيل لهم إليه..

وقال آخرون معنى ذلك: وحيل بينهم وبين ما يشتهون من مال وولد وزهرة الحياة الدنيا..

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك؛ لأن القوم إنما تمنوا حين عاينوا من عذاب اللَّه ما عاينوا، ما أخبر اللَّه عنهم أنهم تمنوه، وقالوا آمنا به، فقال الله: وأنى لهم تناوش ذلك من مكان بعيد، وقد كفروا من قبل ذلك في الدنيا. فإذا كان ذلك كذلك فلأن يكون قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ خبرًا عن أنه لا سبيل لهم إلى ما تمنوه أولى من أن يكون خبرًا عن غيره.

وقوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ يقول: فعلنا بهؤلاء المشركين؛ فحُلنا بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان باللَّه عند نزول سخط اللَّه بهم، ومعاينتهم بأسه، كما فعلنا بأشياعهم على كفرهم باللَّه من قبلهم من كفار الأمم؛ فلم نقبل منهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما لم نقبل في مثل ذلك الوقت من ضرائبهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وحيل بين هؤلاء المشركين حين عاينوا بأس اللَّه وبين الإيمان؛ إنهم كانوا قبل في الدنيا في شك، من نزول العذاب الذي نزل بهم وعاينوه، وقد أخبرهم نبيهم أنهم إن لم ينيبوا مما هم عليه مقيمون من الكفر باللَّه، وعبادة الأوثان؛ أن اللَّه مهلكهم، ومُحِلٌّ بهم

عقوبته في عاجل الدنيا، وآجل الآخرة قبل نزوله بهم، ﴿مُرِيبٍ﴾ يقول: موجب لصاحبه الذي هو به ما يريبه من مكروه، من قولهم: قد أراب الرجلُ إذا أتى ريبة، وركب فاحشة»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٢-١١٣).



سورة فاطر

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت هذه السورة على إثبات تفرد اللَّه تعالى بالإلهية؛ فافتتحت بما يدل على أنه مستحق الحمد على ما أبدع من الكائنات الدالّ إبداعها على تفرده تعالى بالإلهية، وعلى إثبات صدق الرسول ﷺ فيما جاء به، وأنه جاء به الرسل من قبله. وإثبات البعث والدار الآخرة. وتذكير الناس بإنعام اللَّه عليهم بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئا، وقد عبَدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم. وتثبيت النبي ﷺ على ما يلاقيه من قومه، وكشف نواياهم في الإعراض عن اتباع الإسلام؛ لأنهم احتفظوا بعزتهم. وإنذارهم أن يَحُل بهم ما حل بالأمم المكذبة قبلهم. والثناء على الذين تلقوا الإسلام بالتصديق، وبضد حال المكذبين. وتذكيرهم بأنهم كانوا يودّون أن يرسَل إليهم رسول، فلما جاءهم رسول تكبروا واستنكفوا. وأنهم لا مفر لهم من حلول العذاب عليهم؛ فقد شاهدوا آثار الأمم المكذبين مِن قبلهم، وأن لا يغتروا بإمهال اللَّه إياهم؛ فإن اللَّه لا يخلف وعده. والتحذير من غرور الشيطان، والتذكير بعداوته لنوع الإنسان»[1].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٤٧-٢٤٨).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فاطر: الفاطر: الخالق. وأصل الفَطْر: الشَّقُّ عن الشيء. يقال: فَطَرْتُهُ فَانْفَطَرَ: أي انشقّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الشكر الكامل للمعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي أن تكون لغيره، خالقِ السماوات السبع والأرض، ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى من يشاء من عباده، وفيما شاء من أمره ونهيه ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ يقول: أصحاب أجنحة، يعني ملائكة، فمنهم من له اثنان من الأجنحة، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة..

وقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ وذلك زيادته -تبارك وتعالى- في خلق هذا الملَك من الأجنحة على الآخَر ما يشاء، ونقصانه عن الآخَر ما أحب، وكذلك ذلك في جميع خلقه؛ يزيد ما يشاء في خلق ما شاء منه، وينقص ما شاء من خلق ما شاء، له الخلق والأمر، وله القدرة والسلطان، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: إن اللَّه -تعالى ذكره- قدير على زيادة ما شاء من ذلك فيما شاء، ونقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده ﷻ»[١].

قلت: للَّه در الإمام ابن جرير على هذا التوضيح؛ فإن اختلاف الخلق زيادةً ونقصانًا وشكلًا ومضمونًا وهدايةً وكفرًا، كل ذلك من آياته، وأوضح ذلك في كتابه، وأن اختلاف الألوان والأزمنة من آياته.

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٤).

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلـــى أنـــه واحـــد

لا يشبهه أحد في خلقه، ولا في حكمه، فله الخلق والأمر، ولا راد لحكمه، فكمال توحيد المسلم أن يعرف أن الخلق كله للَّه، وأن الأمر كله له، فلا يشركه في خلقه ولا حكمه أحد. فتبارك اللَّه أحسن الخالقين، وتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، نسأل اللَّه أن يهدينا فيمن هدى لمعرفة قدره، فنقدره حق قدره، ولا نجعل له الشركاء والأنداد في خلقه وعبادته وربوبيته وحكمه وتشريعه، إنه سميع مجيب.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عدد أجنحة الملائكة

* عن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زرّ بن حبيش عن قول اللَّه تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾[1] قال: حدثنا ابن مسعود «أنه -أي النبي ﷺ- رأى جبريل له ستمائة جناح»[2].

★ **فوائد الحديث:**

في الآية والحديث دليل على أن للملائكة أجنحة مختلفة العدد، وأن جبريل عليه السلام أكثرهم ذلك، وهذا يدل على عظم خلقه عليه السلام.

قال ابن كثير: «قوله: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا، ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث» ثم ذكر حديث ابن مسعود[3].



---

(١) النجم: الآيتان (٩و١٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٨٥/ ٣٢٣٢) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٥٨/ ١٧٤)، والترمذي (٥/ ٣٦٧/ ٣٢٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٣٢).

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده؛ فما يفتح اللَّه للناس من خير فلا مُغلق له، ولا ممسك عنهم؛ لأن ذلك أمره لا يستطيع أمرَه أحد، وكذلك ما يُغلق من خير عنهم فلا يبسطه عليهم ولا يفتحه لهم، فلا فاتح له سواه؛ لأن الأمور كلها إليه وله»(١).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. . وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾(٢) ولهذا نظائر كثيرة»(٣).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال ابن جرير: «وهو العزيز في نقمته ممن انتقم منه من خلقه بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه وفتحه لهم الرحمة إذا كان فتح ذلك صلاحًا، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة»(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن العطاء والمنع بيد اللَّه تعالى

* عن ورّاد كاتب المغيرة بن شعبة قال: أملى علي المغيرة بن شعبة في كتاب إلى معاوية: أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «**لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(٥).

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٥).
(٢) يونس: الآية (١٠٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٣).
(٤) جامع البيان (٢٢/ ١١٥).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٠)، والبخاري (٢/ ٤١٣/ ٨٤٤)، ومسلم (١/ ٤١٤-٤١٥/ ٥٩٣)، وأبو داود (٢/ ١٧٢-١٧٣/ ١٥٠٥)، والنسائي (٣/ ٧٩-٨٠/ ١٣٤٠).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: **ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد. أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[١].

★ غريب الحديثين:

لا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ: الجَدُّ: الحظُّ والسَّعادة والغنَى، أي: لا ينفع ذا الغِنَى منك غِنَاه وإنَّما ينفعُه الإيمانُ والطاعة. وقوله: «**منك**» معناه عندك.

★ من فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «المراد بهذا الحديث إثبات خلق اللَّه تعالى جميعَ أعمال العباد؛ لأن قوله: «**لا مانع لما أعطيت**» يقتضي نفي جميع المانعين سواه، وكذلك قوله: «**ولا معطي لما منعت**» يقتضي نفي جميع المعْطِين سواه، وأنه لا معطي ولا مانع على الحقيقة بفعل المنع والعطاء سواه، وإذا كان ذلك كذلك؛ ثبت أن من أعطى أو منع من المخلوقين؛ فإعطاؤه ومنْعه خلق لله وكسب للعبد، واللَّه تعالى هو المعطي وهو المانع لذلك حقيقة؛ من حيث كان مخترِعًا خالقًا للإعطاء والمنع، والعبد مكتسب لهما بقدرة محدَثة، فبان أنه إنما نفى مانعًا ومعطيًا مخترِعًا للمنع والإعطاء ويخلقهما»[٢].

وقال ابن القيم: «ففي هذا نفي الشريك عنه بكل اعتبار، وإثبات عموم الملك له بكل اعتبار، وإثبات عموم الحمد، وإثبات عموم القدرة، وأن اللَّه سبحانه إذا أعطى عبدا فلا مانع له، وإذا منعه فلا معطي له. وعند القدرية أن العبد قد يمنع من أعطى اللهُ، ويعطي من منعه؛ فإنه يفعل باختياره عطاء ومنعا لم يشأه اللَّه ولم يجعله معطيا مانعا، فيتصور أن يكون لمن أعطى مانع، ولمن منع معطٍ»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٧)، ومسلم (١/ ٣٤٧/ ٤٧٧) واللفظ له، وأبو داود (١/ ٥٢٩/ ٨٤٧)، والنسائي (٢/ ٥٤٤-٥٤٥/ ١٠٦٧).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٢١).

(٣) شفاء العليل (١/ ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾

★ **غريب الآية:**

تؤفكون: تصرفون من الإفك: وهو أشد الكذب. وأصله الصرف، وسمي إفكًا لأن فيه صرف الكلام من الحق إلى الباطل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى للمشركين به من قوم رسول اللَّه ﷺ من قريش: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعمها عليكم، بفتحه لكم من خيراته ما فتح، وبسطه لكم من العيش ما بسط، وفكِّروا فانظروا ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ سوى فاطر السماوات والأرض الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها، ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فتعبدوه دونه، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا معبود تنبغي له العبادة إلا الذي فطر السماوات والأرض، القادر على كل شيء، الذي بيده مفاتح الأشياء وخزائنها، ومغالق ذلك كله، فلا تعبدوا أيها الناس شيئا سواه، فإنه لا يقدر على نفعكم وضركم سواه، فله فأخلصوا العبادة، وإياه فأفردوا بالألوهة، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ يقول: فأي وجه عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضركم تصرفون»[1].

قال السعدي: «يأمر تعالى، جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافا، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقيادا، فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره، ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا اللّه، نتج من ذلك، أن كان

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٥-١١٦).

ذلك دليلا على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق»[1].

قال ابن عاشور: «والمقصود من تذكّر النعمة شكرُها وقدرُها قدرَها. ومن أكبر تلك النعم نعمة الرسالة المحمدية، التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتبعونها بالنعيم الأبدي»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك يا محمد! هؤلاء المشركون باللَّه من قومك فلا يحزننّك ذاك، ولا يَعظُم عليك، فإن ذلك سنة أمثالهم من كفرة الأمم باللَّه من قبلهم، وتكذيبهم رسل اللَّه التي أرسلها إليهم من قبلك، ولن يعدو مشركو قومك أن يكونوا مثلهم، فيتبعوا في تكذيبك منهاجهم، ويسلكوا سبيلهم. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإلى اللَّه مرجع أمرك وأمرهم، فمُحِلٌّ بهم العقوبة، إن هم لم ينيبوا إلى طاعتنا في اتباعك والإقرار بنبوتك، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة، نظيرَ ما أحللنا بنظرائهم من الأمم المكذبة رسلها قبلك، ومنجيك وأتباعك من ذلك، سنتنا بمن قبلك في رسلنا وأوليائنا»[1].

وقال السعدي: «﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا أيها الرسول، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين، ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فأهلك المكذبون، ونجى اللّه الرسل وأتباعهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ في الآخرة، فيجازي المكذبين وينصر المرسلين وأتباعهم»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٠-٦٣١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لمشركي قريش المكذبي رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ إياكم بأسه على إصراركم على الكفر به، وتكذيب رسوله محمد ﷺ، وتحذيركم نزول سطوته بكم على ذلك ﴿حَقٌّ﴾، فأيقنوا بذلك، وبادروا حلول عقوبتكم بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله والإيمان به وبرسوله. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يقول: فلا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا، ورياستكم التي تترأسون بها في ضعفائكم فيها عن اتباع محمد والإيمان، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يقول: ولا يخدعنكم بالله الشيطان، فيمنيكم الأماني، ويعدكم من الله العِدات الكاذبة، ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله»[1].

قال ابن كثير: «وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[2] وقال مالك عن زيد بن أسلم: هو الشيطان؛ كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝١٤﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن الغرور

* عن أبان قال: أتيت عثمان بن عفان بطهور وهو جالس على المقاعد، فتوضأ فأحسن الوضوء ثم قال: رأيت النبي ﷺ توضأ وهو في هذا المجلس، فأحسن

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٦).
(٢) لقمان: الآية (٣٣).
(٣) الحديد: الآيتان (١٣و١٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٤).

الوضوء، ثم قال: «**من توضأ مثل هذا الوضوء، ثم أتى المسجد، فركع ركعتين، ثم جلس، غفر له ما تقدم من ذنبه**». قال: وقال النبي ﷺ: «**لا تغترّوا**»(١).

★ **فوائد الحديث:**

ترجم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الحديث في كتاب الرقاق من صحيحه بالآية. قال العيني: «مطابقته للآية التي هي الترجمة في قوله: «**لا تغترّوا**»»(٢).

وقال: «قوله: «**لا تغترّوا**»: فتجسرون على الذنوب، معتمدين على المغفرة للذنوب، فإن ذلك بمشيئة اللَّه ﷻ»(٣).

وقال ابن بطال: «نهى اللَّه عباده عن الاغترار بالحياة الدنيا وزخرفها الفاني، وعن الاغترار بالشيطان، وبيّن لنا تعالى عداوته لنا لئلا نلتفت إلى تسويله وتزيينه لنا الشهوات المردية، وحذرنا تعالى طاعته، وأخبر أن أتباعه وحزبه من أصحاب السعير، والسعير: النار. فحق على المؤمن العاقل أن يحذر ما حذّره منه ربه - ﷻ - ونبيّه ﷺ وأن يكون مشفقًا خائفًا وجلًا، إن واقع ذنبًا أسرع الندم عليه والتوبة منه، وعزم ألا يعود إليه، وإذا أتى حسنة استقلّها، واستصغر عمله، ولم يُدْل بها، ألا ترى قول عثمان: «**من أتى المسجد، فركع ركعتين ثم جلس، غفر له ما تقدم من ذنبه**». وهذا لا يكون إلا من قول النبي ﷺ، ثم أتبع ذلك بقول النبي ﷺ: «**لا تغترّوا**». ففهم عثمان رضي الله عنه من ذلك أن المؤمن ينبغي له ألا يتكل على عمله، ويستشعر الحذر والإشفاق بتجنب الاغترار»(٤).

وقال الحافظ: «وحاصله: لا تحمِلُوا الغفران على عمومه في جميع الذنوب، فتسترسلوا في الذنوب اتكالًا على غفرانها بالصلاة، فإن الصلاة التي تكفّر الذنوب هي المقبولة، ولا اطلاع لأحد عليه. وظهر لي جواب آخر: وهو أن المكفَّر بالصلاة هي الصغائر، فلا تغترّوا فتعملوا الكبيرة بناءً على تكفير الذنوب بالصلاة؛

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٥٩)، والبخاري (١١/ ٣٠٠-٣٠١/ ٦٤٣٣)، مسلم (١/ ٢٠٤/ ٢٢٦)، وأبو داود (١/ ٧٨/ ١٠٦)، والنسائي (١/ ٦٨-٦٩/ ٨٤-٨٥)، وابن ماجه (١/ ١٠٥/ ٢٨٥).

(٢) عمدة القاري (١٥/ ٥١٣).

(٣) عمدة القاري (١٥/ ٥١٤).

(٤) شرح ابن بطال (١٠/ ١٥٧-١٥٨).

فإنه خاصّ بالصغائر. أو لا تستكثروا من الصغائر؛ فإنها بالإصرار تعطى حكم الكبيرة، فلا يكفّرها ما يكفّر الصغيرة. أو أن ذلك خاصّ بأهل الطاعة، فلا يناله من هو مرتبكٌ في المعصية»[1].

* * *

(١) فتح الباري (١١/ ٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الشيطان الذي نهيتكم أيها الناس أن تغتروا بغروره إياكم بالله ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يقول: فأنزلوه من أنفسكم منزلة العدو منكم، واحذروه بطاعة الله، واستغشاشكم[1] إياه، حذركم من عدوكم الذي تخافون غائلته على أنفسكم، فلا تطيعوه ولا تتبعوا خطواته، فإنه ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ يعني شيعته ومن أطاعه، إلى طاعته والقبول منه، والكفر بالله ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يقول: ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها»[2].

قال ابن كثير: «أي هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

وهذه كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾[3]، قال بعض العلماء: تحت هذا الخطاب، نوع لطيف من العتاب، كأنه يقول: إنما عاديتُ إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه، بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه»[4].

* * *

---

(١) ظنكم الغش به، يقال: استغشه ضد استنصحه.

(٢) جامع البيان (٢٢/ ١١٧).

(٣) الكهف: الآية (٥٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٤).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى عذاب السعير؛ ذكر بعد ذلك أن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي لِما كان منهم من ذنب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير»[1].

قال السعدي: «ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبدا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا۟﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم، الأعمال ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يحصل به المطلوب»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٣١).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾

★ غريب الآية:

حسرات: جمع حَسْرَة، وهي الغم على فوات الأمر، والندم عليه، وأصل الحسر: الكشف. تقول: حسر عن ذراعِهِ: إذا كشفها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذه الآية تسلية للنبي ﷺ عن كفر قومه، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاء وهداية من شاء، وأمر نبيه ﷺ بالإعراض عن أمرهم، وأن لا يبخع نفسه أسفًا عليهم»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفمن حسّن له الشيطان أعماله السيئة من معاصي اللَّه والكفر به، وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان، فرآه حسنًا؛ فحسب سيئ ذلك حسنًا، وظن أن قبحه جميل، لتزيين الشيطان ذلك له؛ ذهبت نفسك عليهم حسرات، وحذف من الكلام: ذهبت نفسك عليهم حسرات اكتفاء بدلالة، قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ منه، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ يقول: فإن اللَّه يخذل من يشاء عن الإيمان به واتباعك وتصديقك، فيضله عن الرشاد إلى الحق في ذلك، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، يقول: ويوفق من يشاء للإيمان به واتباعك والقبول منك، فتهديه إلى سبيل الرشاد ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ يقول: فلا تهلك نفسك حزنًا على ضلالتهم وكفرهم باللَّه وتكذيبهم لك»[٢].

قال ابن كثير: «أي لا تأسف على ذلك؛ فإن اللَّه حكيم في قدره؛ إنما يضل من

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٤٣٠).

(٢) جامع البيان (٢٢/ ١١٨).

يضل، ويهدي من يهدي؛ لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إلقاء اللَّه -جل وعلا- النور على من شاء هدايته من خلقه

* عن عبد اللَّه بن الديلمي قال: دخلت على عبد اللَّه بن عمرو، فقلت: إنهم يزعمون أنك تقول: الشقي من شقي في بطن أمه؟ فقال: لا أُحل لأحد أن يكذب عليّ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه خلق خلقه في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأ ضل**»، فلذلك أقول: جفّ القلم عن علم اللَّه -جل وعلا-[2].

★ فوائد الحديث:

"هذا الحديث مسوق في القدَر بدليل قوله: «**جف القلم**»، فنبه فيه على أن الإنسان خُلق على حالة لا تنفكّ عن ظلمة؛ إلا من أصابه من ذلك النور الملقى عليهم"[3].

وفيه أن الهداية والإضلال بمشيئة اللَّه، قال ابن القيم: «قد اتفقت رسل اللَّه من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه»[4].

وقد تقدّم الحديث بفوائد أخرى في سورة الأعراف، الآية (١٧٨).

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٧)، والترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤٢) وقال: «حديث حسن»، وصححه ابن حبان (١٤/ ٤٣-٤٥/ ٦١٦٩)، والحاكم (١/ ٣٠-٣١) ووافقه الذهبي.

(٣) المرقاة (١/ ٣٠٣).

(٤) شفاء العليل (١/ ١٨١).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

النشور: البعث، وهو إحياء الموتى. قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبًا للميت الناشر

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والله الذي أرسل الرياح فتثير السحاب للحياة والغيث ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يقول: فسقناه إلى بلد مُجدِب الأهل، مَحْلِ الأرض، داثرٌ لا نبت فيه ولا زرع ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يقول: فأخصبنا بغيث ذلك السحاب الأرض التي سقناه إليها بعد جدوبها، وأنبتنا فيها الزرع بعد المحْل ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هكذا يُنْشِر الله الموتى بعد بلائهم في قبورهم، فيحييهم بعد فنائهم، كما أحيينا هذه الأرض بالغيث بعد مماتها»[1].

قال ابن عطية: «هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكار البعث مِن القبور، فدلهم تعالى على المثال الذي يعاينونه، وهو سواء مع إحياء الموتى»[2].

قال ابن كثير: «كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها -كما في أول سورة الحج- ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك؛ فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[3]، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعًا، فتنبت

(١) جامع البيان (٢٢/ ١١٩).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) الحج: الآية (٥).

الأجساد في قبورها، كما ينبت الحب في الأرض.. ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات بعث الأجساد من القبور

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عَجْب الذَّنَب، منه خُلق وفيه يُركّب**»(٢).

★ غريب الحديث:

عَجْبُ الذَّنَب: العَجْب، بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة، ويقال له: عجم، بالميم أيضًا عوضًا عن الباء، وهو عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العُصْعُص، وهو مكان رأس الذنَب من ذوات الأربع.

★ فوائد الحديث:

دلت الآية والحديث على أن اللَّه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها بالمطر النازل؛ كذلك يحيي الأجساد في القبور. وأن أول ما ينشأ منه الإنسان في قبره عجب ذنبه.

قال السندي: «وظاهر الحديث أنه -أي: عجْبُ الذَّنَب- يبقى. قيل: هو عظم لطيف، هو أول ما يخلق من الآدمي، ويبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه، وهذا هو الموافق لما روى ابن أبي الدنيا عن أبي سعيد الخدري، قيل: يارسول الله! وما هو؟ قال: «**مثل حبة خردل**»(٣). وقال المظهري: أراد طول بقائه، لا أنه لا يبلى أصلا؛ لأنه خلاف المحسوس. وقيل: أمر العجْب عجَب؛ فإنه آخر ما يَخلُق وأول ما يُخلَق، يَخلُق الأول بفتح الياء(٤) أي: يصير خَلَقًا، والثاني بضمها. «**منه خلق**

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (٨/ ٧٠٨/ ٤٨١٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧١/ ٢٩٥٥)، وأبو داود (٥/ ١٠٨/ ٤٧٤٣) واللفظ له، والنسائي (٤/ ٤١٧/ ٢٠٧٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٥/ ٤٢٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨) وصححه ابن حبان (٧/ ٤٠٩/ ٣١٤٠) والحاكم (٤/ ٦٠٩) ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٢) وقال: رواه أحمد وإسناده حسن. قلت: فيه دراج أبو السمح وهو ضعيف في روايته عن أبي الهيثم، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترغيب (٢/ ٤١٠/ ٢٠٨٥).

(٤) من باب سَهُل.

ومنه يركّب» أي: أول ما خلق من الإنسان هو، ثم إن اللَّه تعالى يبقيه إلى أن يركّب الخلق منه تارة أخرى. وعلى ما قال المظهري، ثم يعيده أولا ليخلق منه تارة أخرى. واللَّه أعلم»(١).

قوله: «**ويبلى كل شيء من الإنسان**»:

قال الحافظ: «يحتمل أن يريد به: يفنى، أي: تعدم أجزاؤه بالكلية. ويحتمل أن يراد به: يستحيل، فتزول صورته المعهودة، فيصير على صفة جسم التراب، ثم يعاد إذا ركبت إلى ما عهد. وزعم بعض الشراح أن المراد أنه لا يبلى، أي: يطول بقاؤه، لا أنه لا يفنى أصلًا. والحكمة فيه أنه قاعدة بدء الإنسان، وأسّه الذي ينبني عليه، فهو أصلب من الجميع، كقاعدة الجدار، وإذا كان أصلبَ كان أدومَ بقاءً، وهذا مردود؛ لأنه خلاف الظاهر بغير دليل. وقال العلماء: هذا عامّ يخصّ منه الأنبياء؛ لأن الأرض لا تأكل أجسادهم»(٢).

وقال ابن الجوزي: «فإن قال قائل: فما فائدة إبقاء هذا العظم دون سائر الجسد؟ فقد أجاب ابن عقيل فقال: لله سبحانه في هذا سر لا نعلمه؛ لأن من ينحت الوجود من العدم؛ لا يحتاج أن يكون لفعله شيء يُبنى عليه، فإن عُلّل هذا، فيجوز أن يكون الباري سبحانه جعل ذلك للملائكة علامة على أنه يحيي كل إنسان بجواهره بأعيانها، ولا يحصل العلم للملائكة بذلك إلا بإبقاء عظم من كل شخص ليعلم أنه إنما أراد بذلك إعادة الأرواح إلى تلك الأعيان التي هذا جزء منها، كما أنه لما أمات عُزيرًا وحماره، أبقى عظام الحمار وكساها ليعلم أن هذا المُنشَأ ذلك الحمارُ لا غيره، ولولا إبقاء شيء لجوّزت الملائكة أن تكون الإعادة للأرواح إلى أمثال الأجساد لا إلى أعيانها»(٣).

قلت: المسلم يصدق كلام اللَّه وما صح من سنة رسوله ﷺ، ويبتعد عما لا علم له به مما لم يصله به خبر عن اللَّه وعن رسوله، فإن صح عن النبي ﷺ أن الإنسان يفنى جسده، ويصير ترابا ورميما، ويبقى منه عجب الذنب لا يفنى فعلى الرأس والعين،

(١) حاشية السندي على النسائي (٤/ ٤١٧).
(٢) فتح الباري (٨/ ٧١٠).
(٣) كشف المشكل (٣/ ٤٥٤).

ولا يبحث عن تفاصيل ذلك من العقول والقياسات التي قد توقع الإنسان في المخالفة ولا يدري. كما حصل لكثير من أئمة الكلام والفلسفة، الذين خاضوا فيما لا علم لهم به، فوقعوا في مزالق كبرى ربما أوصلتهم إلى الكفر، فقياس الشاهد على الغائب الذي ليس عليه دليل هو منهاج فاسد لا يعول عليه.

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

يبور: يهلِك ويبطُل. أصله من البوار، وهو فَرْط الكساد. يقال: بارَ المتاعُ: إذا كَسَدَ وفسد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: من كان يريد العزة بعبادة الآلهة والأوثان؛ فإن العزة لله جميعًا..

وقال آخرون: معنى ذلك: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة اللَّه..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: من كان يريد علم العزة لمن هي؛ فإنه لله جميعًا كلها، أي: كل وجه من العزة فلله..

والذي هو أولى الأقوال بالصواب عندي قول من قال: من كان يريد العزة فباللَّه فليتعزز، فلله العزة جميعًا، دون كل ما دونه من الآلهة والأوثان. وإنما قلت ذلك أولى بالصواب؛ لأن الآيات التي قبل هذه الآية، جرت بتقريع اللَّه المشركين على عبادتهم الأوثان، وتوبيخه إياهم، ووعيده لهم عليها، فأولى بهذه أيضًا أن تكون من جنس الحث على فراق ذلك، فكانت قصتها شبيهة بقصتها، وكانت في سياقها»[١].

قال ابن كثير: «﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي من كان يحب أن يكون

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٠).

عزيزا في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة اللَّه تعالى؛ فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن اللَّه تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[1] وقال ﷻ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾[2] وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]»[4].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إليه يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ يقول: ويرفع ذكرَ العبد ربَّه إليه عملُه الصالح، وهو العمل بطاعته، وأداء فرائضه، والانتهاء إلى ما أُمر به»[5].

قال السعدي: «﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيُرفع إلى اللّه، ويعرض عليه، ويُثني اللّه على صاحبه بين الملأ الأعلى. ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ اللّه تعالى إليه أيضًا، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفعُ الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح؛ لم يُرفع له قول إلى اللّه تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى اللّه تعالى، ويرفع اللّه صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبُها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا هوانًا ونزولًا؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئا؛ لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل»[6].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ وعمل هؤلاء المشركين يبور، فيبطل فيذهب؛ لأنه لم يكن لله فلم ينفع عامله»[7].

---

(١) النساء: الآية (١٣٩).
(٢) يونس: الآية (٦٥).
(٣) المنافقون: الآية (٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٦).
(٥) جامع البيان (٢٢/ ١٢١).
(٦) تفسير السعدي (٦/ ٣٠٣-٣٠٤).
(٧) جامع البيان (٢٢/ ١٢١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحية في إثبات صفة العلو لله تعالى، وفي الكلم الطيب

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من تصدق بعِدل تمرة من كسب طيب؛ ولا يصعد إلى اللَّه إلا الطيب؛ فإن اللَّه يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبه كما يربي أحدُكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل**»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»[٢].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يدعو عند الكرب: «**لا إله إلا اللَّه العظيم الحليم، لا إله إلا اللَّه رب العرش العظيم، لا إله إلا اللَّه رب السماوات ورب العرش الكريم**»[٣].

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بعث عليٌّ وهو في اليمن إلى النبي ﷺ بذُهيبة في تُربتها، فقسمها.. فأقبل رجل غائر العينين، ناتئ الجبين، كث اللحية، مشرف الوجنتين، محلوق الرأس فقال: يا محمد! اتق الله؛ فقال النبي ﷺ: «**فمن يطيع اللَّه إذا عصيته؟ فَيَأْمَنِّي على أهل الأرض ولا تأمنوني؟**» فسأله رجل من القوم قتْلَه، فمنعه النبي ﷺ. فلما ولّى قال النبي ﷺ: «**إن من ضئضئ هذا قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد**»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣١)، البخاري (١٣/ ٥١١/ ٧٤٣٠)، مسلم (٢/ ٧٠٢/ ١٠١٤/ [٦٣-٦٤])، والترمذي (٣/ ٤٩-٥٠/ ٦٦١-٦٦٢)، والنسائي (٥/ ٥٩-٦٠/ ٢٥٢٤)، وابن ماجه (١/ ٥٩٠/ ١٨٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٦) والبخاري (١٣/ ٤١٥/ ٧٤٢٩)، ومسلم (١/ ٤٣٩٩٣٤/ ٦٣٢) والنسائي (١/ ٢٦٠-٢٦١/ ٤٨٤).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨٤)، البخاري (١١/ ١٧٤/ ٦٣٤٥)، مسلم (٤/ ٢٠٩٢-٢٠٩٣/ ٢٧٣٠)، الترمذي (٥/ ٤٦١-٤٦٢/ ٣٤٣٥)، النسائي في الكبرى (٦/ ١٦٧/ ١٠٤٨٩)، ابن ماجه (٢/ ١٢٧٨/ ٣٨٨٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨و٧٣)، والبخاري (١٣/ ٥١١-٥١٢/ ٧٤٣٢)، ومسلم (٢/ ٧٤١/ ١٠٦٤)، وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٣/ ٤٧٦٤)، والنسائي (٥/ ٨٧/ ٢٥٧٧).

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾(١) قال: «**مستقرّها تحت العرش**»(٢).

★ من فوائد الأحاديث:

أورد البخاري رحمه الله هذه الأحاديث في كتاب التوحيد من صحيحه، في: «باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾».

«ومقصوده بهذا الباب ذكر بعض الأدلة على علوّ اللَّه تعالى، وبيان أن ذلك ثابت بكتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ وبالعقل والفطرة، فقد فطر اللَّه تعالى العباد على الإيمان بذلك، وآمن الصحابة به، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل؛ فالإيمان بعلو اللَّه تعالى وفوقيته فطري عقلي شرعي، ومن خالف ذلك فقد انحرف عن طريق الرسل، وسلك في ذلك غير سبيل المؤمنين»(٤).

وفي الأحاديث أيضًا «دليل على علو اللَّه تعالى فوق الخلق، وكونه بائنا عنهم بذاته الكريمة، كما تدل له الآيات الأخرى الصريحة، والأحاديث المستفيضة الصحيحة»(٥).

فأما الحديثان الأول والثاني: فمطابقتهما للترجمة واضحة؛ لأن الصعود والعروج لا يكون إلا لمن في العلو.

وأما الحديث الثالث؛ «فالمقصود منه قوله: «**رب العرش العظيم**» وقوله: «**رب العرش الكريم**»، والعرش هو سقف المخلوقات كلها، وليس فوقه مخلوق»(٦).

أما الحديث الرابع؛ فمحلّ الشاهد منه قوله: «**فيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنني**» والرواية التي ذكرها في المغازي، فقال: «**ألا تأمنُني وأنا أمين من في السماء**» أظهر وأوضح في المقصود من الرواية المذكورة.

---

(١) يس: الآية (٣٨).

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٦٩٥/ ٤٨٠٣) ومسلم (١/ ١٣٩/ ١٥٩[٢٥١]).

(٢) المعارج: الآية (٤).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٤٣٥).

(٤) فتح البيان (١١/ ٢٢٧).

(٥) أفاده الغنيمان: شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٤٣).

قال الحافظ بعدما أورد الرواية التي في المغازي: «وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة، لكنه جرى على عادته في إدخال الحديث في الباب للفظة تكون في بعض طرقه، هي المناسبة لذلك، يشير إليها، ويريد بذلك شحذ الأذهان، والبعث على كثرة الاستحضار»(١).

وأما الحديث الأخير «فالشاهد منه: أن الشمس في ارتفاعها أبعدُ ما تكون عن الأرض التي عليها المخاطبين آنذاك؛ تكون تحت العرش، فالمخلوقات كلها تحته، واللَّه تعالى فوق العرش، فهو عال على خلقه كلهم وفوقهم»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهو سبحانه وصف نفسه بالعلو، وهو من صفات المدح له بذلك والتعظيم؛ لأنه من صفات الكمال، كما مدح نفسه بأنه العظيم، والعليم، والقدير، والعزيز، والحليم ونحو ذلك، وأنه الحي القيوم، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنى، فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه؛ فلا يجوز أن يوصف بضد الحياة والقيومية والعلم والقدرة؛ مثل الموت والنوم والجهل والعجز واللغوب، ولا بضد العزة وهو الذل، ولا بضد الحكمة وهو السفه.

فكذلك لا يوصف بضد العلو وهو السفول، ولا بضد العظيم وهو الحقير، بل هو سبحانه منزه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له، فثبوت صفات الكمال له ينفي اتصافه بأضدادها، وهي النقائص، وهو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفات الكمال»(٣).

قال ابن عبد البرّ في معرض ردّه على الجهمية: «فإن احتجوّا بقول اللَّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾(٤) وبقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾(٥) وبقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(٦) الآية. وزعموا أن اللَّه -تبارك وتعالى- في كل مكان بنفسه وذاته -تبارك وتعالى-.

قيل لهم: لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة؛ أنه ليس في الأرض دون

---

(١) الفتح (١٣/ ٥١٥).

(٢) أفاده الغنيمان: شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٧-٩٨).

(٤) الزخرف: الآية (٨٤).

(٥) الأنعام: الآية (٣).

(٦) المجادلة: الآية (٧).

السماء بذاته، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجتمع عليه؛ وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذلك قال أهل العلم بالتفسير. فظاهر التنزيل يشهد أنه على العرش، والاختلاف في ذلك بيننا فقط، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر، وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فالإجماع والاتفاق قد بين المراد بأنه معبود من أهل الأرض، فتدبر هذا فإنه قاطع إن شاء اللّٰه.

ومن الحجة أيضا في أنه ﷻ على العرش فوق السموات السبع؛ أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كَرَبهم أمر أو نزلت بهم شدة؛ رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم -تبارك وتعالى-، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم، وقد قال ﷺ للأمة التي أراد مولاها عتقها: **«إن كانت مؤمنة»** فاختبرها رسول اللّٰه ﷺ بأن قال لها: **«أين الله؟»** فأشارت إلى السماء، ثم قال لها: **«من أنا؟»** قالت: رسول اللّٰه، قال: **«أعتقها فإنها مؤمنة»**[1]، فاكتفى رسول اللّٰه ﷺ منها برفعها رأسها إلى السماء، واستغنى بذلك عما سواه..

وأما احتجاجهم: لو كان في مكان لأشبه المخلوقات؛ لأن ما أحاطت به الأمكنة واحتوته؛ مخلوق. فشيء لا يلزم ولا معنى له؛ لأنه ﷻ ليس كمثله شيء من خلقه، ولا يقاس بشيء من بريته، لا يدرك بقياس، ولا يقاس بالناس، لا إله إلا هو كان قبل كل شيء، ثم خلق الأمكنة والسماوات والأرض وما بينهما، وهو الباقي بعد كل شيء، وخالق كل شيء لا شريك له.

وقد قال المسلمون وكل ذي عقل: إنه لا يعقل كائن لا في مكان ما، وما ليس في مكان فهو عدم، وقد صح في المعقول وثبت بالواضح من الدليل أنه كان في الأزل لا في مكان، وليس بمعدوم؛ فكيف يقاس على شيء من خلقه؟! أو يجري بينه وبينهم تمثيل أو تشبيه! تعالى اللّٰه عما يقول الظالمون علوا كبيرا، الذي لا يبلغ من وصفه إلا إلى ما وصف به نفسه، أو وصفه به نبيه ورسوله، أو اجتمعت عليه

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٧-٤٤٨)، ومسلم (١/ ٣٨١-٣٨٢/ ٥٣٧)، وأبو داود (١/ ٥٧٠-٥٧٣/ ٩٣٠)، والنسائي (٣/ ١٩-٢٢/ ١٢١٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

الأمة الحنيفية عنه . .

وأما احتجاجهم بقول اللَّه ﷿ : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[١] فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية ؛ لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حملت عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم أحد يحتج بقوله»[٢] .

* عن أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**إن اللَّه اصطفى من الكلام أربعًا : سبحان اللَّه ، والحمد لله ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر . فمن قال : سبحان اللَّه ، كتب اللَّه له عشرين حسنة ، وحط عنه عشرين سيئة . ومن قال : اللَّه أكبر ، فمثل ذلك . ومن قال : لا إله إلا اللَّه ، فمثل ذلك . ومن قال : الحمد لله رب العالمين من قِبَل نفسِه ، كتبت له ثلاثون حسنة ، وحط عنه ثلاثون سيئة**»[٣] .

* عن النعمان بن بشير ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**إن مما تَذْكرون من جلال اللَّه التسبيح والتهليل والتحميد ، ينعطفن حول العرش ، لهن دَوِيّ كدويّ النحل ، تُذكِّر بصاحبها . أما يحب أحدكم أن يكون له (أو لا يزال له) من يُذكِّر به؟**»[٤] .

★ غريب الحديث:

ينعطفن : أي : يملن ويدُرن ، استئناف لبيان حال التسبيح وغيره ، وهذا مبني على تشكيل الأعمال والمعاني بأشكال .

دَوِيّ : بفتح الدال المهملة وكسر الواو وتشديد الياء التحتية : هو ما يظهر من الصوت ويسمع عند شدته وبُعده في الهواء ، شبيهًا بصوت النحل .

---

(١) المجادلة : الآية (٧). (٢) التمهيد [فتح البر (٢/ ١١-١٦)].

(٣) أخرجه : أحمد (٢/ ٣٠٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢١٠/ ١٠٦٧٦) والحاكم (١/ ٥١٢) وقال : «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي .

(٤) أخرجه : أحمد (٤/ ٢٦٨)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٢/ ٣٨٠٩)، قال البوصيري في «الزوائد» (١٢٦٧) : «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». وصححه الحاكم (١/ ٥٠٣) ووافقه الذهبي والألباني في مختصر العلو (ص: ٢٤).

★ **من فوائد الحديثين:**

اشتمل الحديثان على كلمات عظيمة، وهي: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، وبهذه الكلمات فسّر الكلم الطيب في الآية.

قال البغوي: «﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ هو قول لا إله إلا اللَّه. وقيل: هو قول الرجل: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر»[1].

قال البنا تعليقًا على الحديث الأخير: «المعنى أن التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل؛ من تعظيم اللَّه ﷻ، وأنها تُذَكِّر بصاحبها، أي: يكون منها هذا الدويّ حول العرش لأجل التذكير في المقام الأعلى بقائلها، ولهذا قال في آخر الحديث: «**ألا يحب أحدكم أن يزال له عند اللَّه شيء يذكّر به؟**»، وفي هذا حضّ على الذكر بهذه الألفاظ»[2].

* * *

(١) معالم التنزيل (٦/ ٤١٤).

(٢) الفتح الرباني (١٤/ ٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نطفة: أي: مَنِيّ، وأصلها: الماء الصافي.

يعمر: أي تطول حياته. وأصلها طول المدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «والله خلقكم -أيها الناس- من تراب يعني بذلك أنه خلق أباهم آدم من تراب؛ فجعل خلق أبيهم منه لهم خلقًا ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يقول: ثم خلقكم من نطفة الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ﴾ يعني أنه زوج منهم الأنثى من الذكر.. وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما تحمل من أنثى منكم أيها الناس من حمل ولا نطفة إلا وهو عالم بحملها إياه ووضعها وما هو؟ ذكر أو أنثى؟ لا يخفى عليه شيء من ذلك..

وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك؛ فقال بعضهم: معناه: وما يعمر من معمر فيطول عمره، ولا ينقص من عمرِ آخرَ غيرِه عن عُمرِ هذا الذي عُمّر عمرًا طويلا ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ عنده مكتوب قبل أن تحمل به أمّه وقبل أن تضعه، قد أحصى ذلك كله، وعلمه قبل أن يخلقه، لا يزاد فيما كتب له ولا ينقص.. فالهاء التي في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ على هذا التأويل؛ وإن كانت في الظاهر أنها كناية عن اسم المعمَّر الأول؛ فهي كناية اسم آخر غيره، وإنما حسن ذلك؛ لأن صاحبها (أي: صاحب الكناية) لو أُظهر لظَهر بلفظ الأول، وذلك كقولهم: عندي ثوب ونصفه، والمعنى: ونصف الآخر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما يعمر من معمّر ولا ينقص من عمره بفناء ما

فني من أيام حياته، فذلك هو نقصان عمره، والهاء على هذا التأويل للمعمَّر الأول؛ لأن معنى الكلام: ما يطول عمر أحد ولا يذهب من عمره شيء فينقص؛ إلا وهو في كتاب عند اللّه مكتوب قد أحصاه وعلمه..

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب التأويل الأول؛ وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه، وأشبههما بظاهر التنزيل»[1].

قال السعدي: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: عُمِر الذي كان معمّرا عمرا طويلا ﴿إِلَّا﴾ بعلمه تعالى، أو: ما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر، كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر. والمعنى: أن طول العمر وقصره، بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿فِي كِتَابٍ﴾ حوى ما يجري على العبد، في جميع أوقاته، وأيام حياته»[2].

قال صديق حسن خان: «ظاهر النظم القرآني أن تطويل العمر وتقصيره هما بقضاء اللّه وقدره؛ لأسباب تقتضي التطويل، وأسباب تقتضي التقصير، فمن أسباب التطويل ما ورد في صلة الرحم عن النبي ﷺ.. ومن أسباب التقصير الاستكثار من معاصي اللّه سبحانه، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين سنة، فقد يزيد اللّه له عليها إذا فعل أسباب الزيادة، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، والكل في كتاب مبين، فلا تَخالُف بين هذه الآية وبين قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3]، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾[4]»[5].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- إن إحصاء أعمار خلقه عليه يسير سهل طويلُ ذلك وقصيرُه، لا يتعذر عليه شيء من ذلك»[6].

وقال السعدي: «أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه بها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه اللّه عليها في هذه

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٢-١٢٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٠٥).
(٣) الأعراف: الآية (٣٤).
(٤) الرعد: الآية (٣٩)
(٥) فتح البيان (١١/ ٢٣٠-٢٣١).
(٦) جامع البيان (٢٢/ ١٢٣).

الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وتنقل الآدمي في تلك الأطوار.

فالذي أوجده ونقله، طَبَقا بعد طَبق، وحالا بعد حال، حتى بلغ ما قدر له؛ فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب. فالذي كان هذا يسيرا عليه؛ فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثُر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في زيادة العُمُر ونقصانه

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: **«من سره أن يُبسط له في رزقه، أو يُنسأ له في أثره؛ فليصِل رحمه»**[٢].

⋆ غريب الحديث:

يُبسط: بسْط الرزق: سعته وتكثيره والبركة فيه.

يُنسأ: النسْأُ: التأخير، يقال: نَسَأْتُ الشيءَ نَسْأً، وأَنسأتُه إِنساءً، إذا أخَّرْتَه. والنَّساءُ: الاسم، ويكون في العمر والديْن.

أثره: الأثر: الأجل، سمي بذلك لأنه تابع الحياة.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مَثْراة في المال، مَنْسأة في الأثر»**[٣].

⋆ غريب الحديث:

محبة: مفعلة من الحُبّ، كالمظنة من الظنّ.

---

(١) تيسير الكريم (٦/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦٦)، والبخاري (٤/ ٣٧٨/ ٢٠٦٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٧)، أبو داود (٢/ ٣٢١/ ١٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٨/ ١١٤٢٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي (٤/ ٣٠٩/ ١٩٧٩) وقال: «غريب من هذا الوجه»، والحاكم (٤/ ١٦١) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

مثراة: مفعلة من الثراء: الكثرة.

منسأة: هي مفعلة منه: أي: مظنة له وموضع.

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أَمْتِعني بزوجي رسول اللَّه ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. قال: فقال النبي ﷺ: **«قد سألت اللَّه لِآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة. لن يعجّل شيئًا قبل حَلّه، أو يؤخر شيئًا عن حَلّه، ولو كنتِ سألتِ اللَّه أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر؛ كان خيرًا وأفضل»**[1].

★ غريب الحديث:

أمتعني بزوجي: أي: أَطِلْ أعمارهم حتى أتمتع بهم زمانًا طويلًا.

حَلّه: بفتح الحاء في الموضعين، وهو مصدر (حَلَّ) الشيءَ، يحُلّ حلًّا، وحلولًا، ومحلًّا، والمحلّ أيضًا: الموضع الذي يُحلّ فيه، أي: يُنزَل، وَمَعْنَاهُ وُجُوبه وَحِينه.

* عن حذيفة بن أسيد ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: **«يدخل الملَك على النطفة بعدما تستقرّ في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب! أشقيّ أو سعيد؟ فيُكتبان. فيقول: أي ربّ! أذكر أو أنثى؟ فيكتبان. ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصُّحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص»**[2].

★ من فوائد الأحاديث:

هذه الأحاديث ظاهرها التعارض؛ فدلّ الحديثان الأولان على أن العمر يزاد فيه بسبب صلة الرحم، ودل الحديثان الأخيران على أن للعمر مدةً معلومة لا يزاد فيها ولا ينقص.

قال صديق حسن خان: «وهذه الأحاديث (إشارة إلى الحديثين الأخيرين) مخصَّصة بما ورد من قبول الدعاء، وأنه يعتلج هو والقضاء، وبما ورد في صلة

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٠-٢٠٥١/ ٢٦٦٣) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٤/ ١٠٠٩٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٦-٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٧/ ٢٦٤٤).

الرحم أنها تزيد في العمر، فلا معارضة بين الأدلة»[١].

قال القرطبي: «ومعنى التأخير هنا في الأجل -وإن كانت الآجال مقدّرة في علم اللَّه لا يُزاد فيها ولا يُنقص-: أنه يبقى بعده ثناء جميل، وذكر حميد، وأجر متكرّر، فكأنه لم يمت. وقيل: معناه: يؤخَّر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ، والذي في علم اللَّه ثابت لا تبديل له، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[٢] أي: أصل المكتوب في اللوح المحفوظ، هو علم اللَّه تعالى الذي لا يقبل المحو ولا التغيير»[٣].

قال شيخ الإسلام: «والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه اللَّه، وأجل مقيّد، وبهذا يتبين معنى قوله ﷺ: «**من سره أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره؛ فليصل رحمَه**»، فإن اللَّه أمر الملك أن يكتب له أجلًا، وقال: «**إن وصل رحمه زدته كذا وكذا**». والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكن اللَّه يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر»[٤].

وقال في موضع آخر: «وقد قال بعض الناس: إن المراد به البركة في العمر، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير، قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان.

فيقال لهؤلاء: تلك البركة -وهي الزيادة في العمل والنفع- هي أيضًا مقدرة مكتوبة، وتتناول جميع الأشياء.

والجواب المحقق: أن اللَّه يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب»[٥].

* * *

---

(١) فتح البيان (١١/ ٢٣١).
(٢) الرعد: الآية (٣٩).
(٣) المفهم (٦/ ٥٢٨).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

فرات: أي: حلو بالغ العذوبة.

سائغ: أي: سهل الانحدار. يقال: سَاغَ الشراب يَسُوغُ سَوْغًا. قال الشاعر:

فَساغَ ليَ الشرابُ وكنتُ قَبْلا ... أكادُ أَغُصُّ بالماءِ القُرَاحِ

أجاج: أي: شديد الملوحة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبّها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك. ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مُرّ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعاقًا مرّة، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مرّ. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني السمك. ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما قال ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1]. وقوله -جل وعلا-: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدَّمها المسنّم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره.. وقوله -جل وعلا-: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق

---

(١) الرحمن: الآية (٢٢)

العظيم وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته»(١).

وقال السعدي: «هذا إخبار عن قدرته وتوالي حكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسوِّ بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتا، سائغا شرابها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحا أجاجا، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد، ومن المصالح أيضًا والمنافع في البحر أن سخره اللَّه تعالى لحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم فيحصل بذلك من فضل اللَّه وإحسانه شيء كثير ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على النعم المتقدم ذكرها»(٢).

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٩-٥٤٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٦).

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يدخل الليل في النهار؛ وذلك ما نقص من الليل أدخله في النهار فزاده فيه، ويولج النهار في الليل؛ وذلك ما نقص من أجزاء النهار زاد في أجزاء الليل فأدخله فيها..

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يقول: وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم، ورحمة منه بكم؛ لتعلموا عدد السنين والحساب، وتعرفوا الليل من النهار. وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يقول: كل ذلك يجري لوقت معلوم..

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يقول: الذي يفعل هذه الأفعال معبودكم أيها الناس، الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو اللَّه ربكم.. وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: له الملك التام الذي لا شيء إلا وهو في ملكه وسلطانه. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والذين تعبدون أيها الناس من دون ربكم الذي هذه الصفة -التي ذكرها في هذه الآيات؛ الذي له الملك الكامل الذي لا يشبهه ملك- صفته ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ يقول: ما يملكون قشر نواة فما فوقها»[1].

قال ابن كثير: «وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاء، ﴿وَسَخَّرَ

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٤-١٢٥).

ﭐلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرًا من عزيز عليم. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعِكْرِمَة وعطاء وعطية العَوْفي والحسن وقتادة وغيرهم: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٢).

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن تدعوا أيها الناس هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من دون الله؛ لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنها جماد لا تفهم عنكم ما تقولون، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ يقول: ولو سمعوا دعاءكم إياهم، وفهموا عنكم أنها قولكم بأن جُعل لهم سمعًا يسمعون به؛ ما استجابوا لكم؛ لأنها ليست ناطقة، وليس كل سامع قولا متيسرا له الجواب عنه.

يقول -تعالى ذكره- للمشركين به الآلهة والأوثان: فكيف تعبدون من دون اللَّه مَن هذه صفته، وهو لا نفع لكم عنده ولا قدرة له على ضركم، وتَدَعون عبادة الذي بيده نفعكم وضركم، وهو الذي خلقكم وأنعم عليكم. .

وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره- للمشركين من عبدة الأوثان: ويوم القيامة تتبرّأ آلهتكم التي تعبدونها من دون اللَّه من أن تكون كانت لله شريكًا في الدنيا.

وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولا يخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين، وما يكون من أمرها وأمر عبدتها يوم القيامة من تبرّؤها منهم وكفرها بهم؛ مثل ذي خبرة بأمرها وأمرهم، وذلك الخبير هو اللَّه الذي لا يخفى عليه شيء كان أو يكون سبحانه»[1].

وقال ابن كثير: «﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون اللَّه، لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٥-١٢٦).

أي: يتبرؤون منكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾[2]»[3].

قال السعدي: «تضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئًا من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئًا»[4].

* * *

(١) الأحقاف: الآيتان (٥ و ٦).
(٢) مريم: الآيتان (٨١ و٨٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقر إلى ربكم فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا؛ يُغنكم من فقركم وتنجح لديه حوائجكم ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم وعن غير ذلك من الأشياء منكم ومن غيركم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ يعني: المحمود على نعمه؛ فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكل حال»[1].

قال أبو حيان: «هذه آية موعظة وتذكير، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان اللَّه تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم، لا يستغني أحد عنه طرفة عين، وهو الغني عن العالم على الإطلاق»[2].

قال ابن القيم: «بيّن ﷻ في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيا حميدا ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير. فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقرُ لي وَصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة؛ فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلّل،

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٦).

(٢) البحر (٧/ ٢٩٣).

فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من إمكانٍ وحدوثٍ واحتياجٍ؛ فهي أدلة على الفقر لا أسباب له، ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون؛ فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان. والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث. والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار، وفقر العالم إلى اللَّه سبحانه أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة، وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدا، والرب إلا ربًّا.

إذا عرف هذا؛ فالفقر فقران: فقر اضطراري؛ وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا، ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا. والفقر الثاني: فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما: معرفة العبد بربه. والثاني: معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته. وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين؛ فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق»[1].

* * *

(١) طريق الهجرتين (١/ ٨-٩).

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن يشأ يهلككم -أيها الناس- ربُّكم لأنه أنشأكم من غير ما حاجة به إليكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول: ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون لأمره، وينتهون عما نهاهم عنه. . وقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٩﴾﴾ وما إذهابكم والإتيان بخلق سواكم على اللّه بشديد، بل ذلك عليه يسير سهل، يقول: فاتقوا اللّه أيها الناس وأطيعوه، قبل أن يفعل بكم ذلك»[١].

وقال السعدي: «﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع للّه منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك. ويحتمل أن المراد بذلك، إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة اللّه تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقا جديدا، ولكن لذلك الوقت أجلٌ قدّره اللّه، لا يتقدم عنه ولا يتأخر»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

*** غريب الآية:**

وزر: الوزر: الذنب، سمي بذلك تشبيهًا له بالجبل في ثقله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: ولا تحمل آثمة إثم أخرى غيرها ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يقول تعالى: وإن تسأل ذات ثقْل من الذنوب مَن يحمل عنها ذنوبها وتطلب ذلك؛ لم تجد من يحمل عنها شيئا منها، ولو كان الذي سألته ذا قرابة من أب أو أخ»[1].

وقال ابن كثير: «وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُسَاعَد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: ولو كان قريبًا إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[2]»[3].

وقال محيي الدين الدرويش: «كيف يتفق هذا القول مع قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[4] فإن هذه الآية في الضالين المضلين، فهم يحملون أثقال ضلالهم، وأثقال إضلالهم لغيرهم، أما الآية التي نحن بصددها فهي مقتصرة على الذين يحملون أوزار وأثقال أنفسهم، وعن ابن عباس: يلقى الأب والأم الابن

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٧).
(٢) عبس: الآيات (٣٤-٣٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤١).
(٤) العنكبوت: الآية (١٣).

فيقولان له: يا بني احمل عنا بعض ذنوبنا، فيقول: لا أستطيع حسبي ما علي»[١].

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إنما تنذر يا محمد الذين يخافون عقاب اللَّه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، ولكن لإيمانهم بما أتيتهم به وتصديقهم لك فيما أنبأتهم عن اللَّه، فهؤلاء الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك، لا الذين طبع اللَّه على قلوبهم فهم لا يفقهون»[٢].

قال القرطبي: «وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٣]»[٤].

وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال ابن جرير: «يقول: وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها على ما فرضها اللَّه عليهم، وقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى اللَّه والإيمان به والعمل بطاعته؛ فإنما يتطهر لنفسه، وذلك أنه يثيبها به رضا اللَّه والفوز بجِنانه، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به.. وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يقول: وإلى اللَّه مصير كل عامل منكم أيها الناس، مؤمنكم وكافركم، وبركم وفاجركم، وهو مجازٍ جميعكم بما قدم من خير وشر»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يجني أحد على أحد

* عن عبيد اللَّه بن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان ﷺ بمكة، وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس ﷺ، وإني لجالس بينهما -أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي- فقال عبد اللَّه بن عمر ﷺ لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن الميت ليعذب**

(١) إعراب القرآن الكريم (٦/ ٢٨١).
(٢) جامع البيان (٢٢/ ١٢٨).
(٣) يس: الآية (١١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢١٦).
(٥) جامع البيان (٢٢/ ١٢٨).

ببكاء أهله عليه»[(١)].

* قال ابن عباس ﭭ: فلما مات عمر ﭬ؛ ذكرت ذلك لعائشة ﭭ، فقالت: رحم اللَّه عمر، واللَّه ما حدّث رسول اللَّه ﷺ أن اللَّه ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه**»، وقالت: حسبكم القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قال ابن عباس ﭭ عند ذلك: واللهُ ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[(٢)]. قال ابن أبي مليكة: واللهِ ما قال ابن عمر ﭭ شيئًا[(٣)].

★ من فوائد الحديثين:

قال الطيبي: «قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: الوزر والوِقر أخوان، وزر الشيءَ: إذا حمله. والوزارة: صفة للنفس. والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته، لا تؤخذ نفس بذنب نفس، كما يأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي، والجار بالجار.

قوله: «**واللَّه أضحك وأبكى**» تقرير لنفي ما ذهب إليه ابن عمر من أن الميت يعذب ببكاء الأهل. وذلك: أن بكاء الإنسان وضحكه وحزنه وسروره من اللَّه، يظهرها فيه، فلا أثر لها في ذلك، فعند ذلك سكت ابن عمر وأذعن.

فإن قلت: كيف لم يؤثر ذلك في حق المؤمن، وقد أثّر في حق الكافر؟ قلت: المؤمن الكامل لا يرضى بالمعصية مطلقًا، سواء صدرت منه أو من غيره، بخلاف الكافر. ومن ثم قالت الصدّيقة ﭭ: «**حسبكم القرآن**» أي: كافيكم أيها المؤمنون من القرآن هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنها في شأنكم، وما ذكر رسول اللَّه ﷺ من قوله: «**إن اللَّه يزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله**» في شأن الكفار. وفيه أن المؤمن إذا رضي به؛ فلا يُؤمَن عليه.

ولما كان الغالب على الفاروق الخوف، وكان حازمًا، والحزم -كما ورد-:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣٤)، والبخاري (٣/ ١٩٤/ ١٢٨٦)، ومسلم (٢/ ٦٤٠-٦٤١/ ٩٢٨)، والنسائي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٨٥٧).

(٢) النجم: الآية (٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤١-٤٢)، والبخاري (٣/ ١٩٥/ ١٢٨٨)، ومسلم (٢/ ٦٤٢/ ٩٢٩)، والنسائي (٤/ ٣١٧/ ١٨٥٦).

«سوء الظن»[١]؛ خاف على نفسه، فقال ما قال، وأصاب المِحزّ، والصدّيقة رضي الله عنها لمَحت إلى مقام الرجاء وحسن الظن بالمؤمنين، فطبقت المفَصّل. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[٢]»[٣].

وقال ابن بطال: «ذهبت عائشة إلى أن أحدًا لا يُعذَّب بفعل غيره، وهو أمر مجتمع عليه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾[٤].

وكل حديث أتى فيه النهي عن البكاء فمعناه النياحة عند العلماء؛ لأن اللَّه تعالى أضحك وأبكى، ولقوله ﷺ: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب**»[٥] وقال الرسول ﷺ لعمر إذ نهى النساء عن البكاء: «**دعهنّ يا عمر، فإن النفس مصابة، والعين دامعة، والعهد قريب**»[٦] ونهى عن النياحة، ولعن النائحة والمُشِقّة، ونهى عن شق الجيوب، ولطم الخدود، ودعوى الجاهلية..

قال الشافعي: أُرخّص في البكاء بلا ندبة ولا نياحة. وما ذهبت إليه عائشة أشبه بدلائل الكتاب، وما زيد في عذاب الكافر باستحقاقه لا بذنب غيره؛ لأنه إذا بُكي عليه بذكر فتكاته وغاراته فهو مستحق للعذاب بذلك، وأهله يَعُدّون ذلك من فضائله وهو يعذب من أجلها، فإنما يعذب بفعله لا ببكاء أهله، هذا معنى قول عائشة: إن اللَّه ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وتصويب الشافعي لقول عائشة، وإنكارها على ابن عمر يشبه أن يكون مذهب مالك؛ لدلالة ما في مُوطّئه عليه؛ لأنه ذكر حديث عائشة ولم يذكر خلافه عن أحد»[٧].

---

(١) أخرجه مرفوعا القضاعي في مسند الشهاب (٣/ ٢) وهو ضعيف جداً. انظر الضعيفة (٣/ ٢٩١/ ١١٥١).

(٢) البقرة: الآية (١٤٨).

(٣) شرح الطيبي (٤/ ١٤٢٥-١٤٢٦).

(٤) الأنعام: الآية (١٦٤).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٤) والبخاري (٣/ ٢٢٢/ ١٣٠٣) ومسلم (٤/ ١٨٠٧-١٨٠٨/ ٢٣١٥) وأبو داود (٣/ ٤٩٣/ ٣١٩٦).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١١٠) والنسائي (٤/ ٣١٨/ ١٨٥٨) وابن ماجه (١/ ٥٠٥-٥٠٦/ ١٠٥٧) وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨/ ٩٥/ ٣٦٠٣).

(٧) شرح ابن بطال (٣/ ٢٧٥).

قال الخطابي: «قد يحتمل أن يكون الأمر في هذا على ما ذهبت إليه عائشة؛ لأنها قد روت أن ذلك إنما كان في شأن يهودي، والخبر المفسَّر أولى من المجمل، ثم احتجت له بالآية، وقد يحتمل أن يكون ما رواه ابن عمر صحيحًا من غير أن يكون فيه خلاف الآية، وذلك أنهم كانوا يوصون أهليهم بالبكاء والنوح عليهم، وكان ذلك مشهورًا من مذاهبهم، وهو موجود في أشعارهم، كقول القائل، وهو طرفة:

إذا متّ فانعِيني بما أنا أهلُه ... وشُقّي عليّ الجيْب يا أمّ معبد

وكقول لبيد:

فقوما فقولا بالذي تعلمانه ... ولا تخمِشا وجهًا ولا تحلِقا الشعر

وقولا هو المرء الذي لا صديقَه ... أضاع ولا خان الأمينَ ولا غدر

إلى الحول ثم اسمُ السلامِ عليكما ... ومن يبكِ حولًا كاملًا فقد اعتذر

ومثل هذا كثير في أشعارهم، وإذا كان كذلك؛ فالميت إنما تلزمه العقوبة في ذلك بما تقدم من أمره إياهم بذلك وقت حياته، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**من سنّ سنّة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها**»[(١)]

وفيه وجه آخر ذهب إليه بعض أهل العلم، قال: وتأويله أنه مخصوص في بعض الأموات الذين وجب عليهم بذنوب اقترفوها، وجرى من قضاء اللَّه سبحانه فيهم أن يكون عذابه وقت البكاء عليهم، ويكون كقولهم: مطرنا بنوء كذا، أي: عند نوء كذا، كذلك قوله: «**إن الميت يعذَّب ببكاء أهله**»، أي: عند بكائهم عليه؛ لاستحقاقه ذلك بذنبه، ويكون ذلك حالًا لا سببًا؛ لأنّا لو جعلناه سببًا لكان مخالفًا للقرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»[(٢)].

وقد تقدّم الكلام على هذه المسألة في سورة (الأنعام)، الآية (١٦٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩) مسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧) واللفظ له. النسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣) ابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣) مختصرا من حديث جرير بن عبد اللَّه.

(٢) معالم السنن (١/ ٢٦٤).

* عن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يجني جانٍ إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده**»[1].

* عن أبي رِمْثة[2] رضي الله عنه قال: انطلقتُ مع أبي نحو رسول اللَّه ﷺ، فلما رأيتُهُ قال لي أبي: هل تدري من هذا؟ قلتُ: لا. فقال لي أبي: هذا رسول اللَّه ﷺ، فاقشعرَرْتُ حين قال ذاك، وكنتُ أظنّ رسول اللَّه ﷺ شيئًا لا يشبه الناس، فإذا بَشرٌ له وفرة. قال عفان في حديثه: ذو وفْرةٍ وبها رَدْعٌ من حِنّاء، عليه ثوبان أخضران، فسلّم عليه أبي، ثم جلسنا، فتحدّثنا ساعة. ثم إن رسول اللَّه ﷺ قال لأبي: «**ابنُكَ هذا؟**» قال: إي وربِّ الكعبة، قال: «**حقًا؟**» قال: أشهد به. فتبسّم رسول اللَّه ﷺ ضاحكًا من ثَبَتِ شَبَهي في أبي، ومن حَلِف أبي عليّ، ثم قال: «**أما إنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه**». قال وقرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قال: ثم نظر إلى مثل السِّلعة التي بين كتفيه، فقال: يا رسول الله! إني كأطبّ الرجال، ألا أعالجها لك؟ قال: «**لا، طبيبها الذي خلقها**»[3].

⋆ غريب الحديث:

وفْرة: بفتح الواو وسكون الفاء، هي من الشعر ما بلغ شحمة الأذن. وقيل غير ذلك.

رَدْع من حِناء: ردع بالعين المهملة أي لطخ.

ثَبَت: بفتحتين: ثبوت، أي: فضحك ﷺ من أجل ثبوت مشابهتي في أبي بحيث يغني ذلك عن الحلف ومع ذلك حَلَف.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٨-٤٩٩)، وأبو داود (٣/ ٦٢٨-٦٣٠/ ٣٣٣٤)، والترمذي (٥/ ٢٥٥-٢٥٦/ ٣٠٨٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٤٤-٤٤٥/ ٤١٠٠)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٥/ ٣٠٥٥).

(٢) بكسر الراء وسكون الميم، اختلف في اسمه. قيل: حبيب بن حيان التيمي. وقيل: رفاعة بن يثربي. أسد الغابة (١/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٦) مطولاً ومختصراً، وأبو داود (٤/ ٤١٧/ ٤٢٠٨)، والترمذي (٥/ ١١٠/ ٢٨١٢) والنسائي (٨/ ٤٢٣/ ٤٨٤٧)، وصححه ابن حبان (١٣/ ٣٣٧/ ٥٩٩٥)، والحاكم (٢/ ٤٢٥) ووافقه الذهبي.

السِّلْعة بين كتفيه: بكسر فسكون هي غدة تظهر بين الجلد واللحم، إذا غمزت باليد تحرّكت.

★ **من فوائد الحديثين**

قوله: «**لا يجني جانٍ إلا على نفسه**». قال ابن الأثير: «الجناية: الذنب، والجرم، وما يفعله الإنسان مما يوجب عليه العذاب أو القصاص في الدنيا والآخرة. المعنى: أنه لا يطالب بجناية غيره من أقاربه وأباعده؛ فإذا جنى أحدهما جناية لا يعاقب بها الآخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»[١].

قوله: «**لا يجني جانٍ على ولده، ولا مولود على والده**» قال المباركفوري: «يحتمل أن يكون المراد: النهي عن الجناية عليه؛ لاختصاصها بمزيد قبح، وأن يكون المراد: تأكيد «**لا يجني جانٍ إلا على نفسه**»؛ فإن عادتهم جرت بأنهم يأخذون أقارب الشخص بجنايته؛ والحاصل: أن هذا ظلم يؤدي إلى ظلم آخر. والأظهر أن هذا نفي، فيوافق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. وإنما خصّ الولد والوالد لأنهما أقرب الأقارب، فإذا لم يؤاخذا بفعلهما، فغيرهما أولى»[٢].

قال ابن العربي: «إن اللَّه سبحانه عهد وحكم ألا يؤخذ أحد بجناية أحد، وقال في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقال النبي ﷺ في الصحيح الثابت بنقل العدل عن العدل لأبي رمثة رفاعة بن يثربي (وذكر الحديث). وهذا لما كان الجاهلية قد أصلته في أحكامها، وأسسته في بناء بدعها، من أخذ الوالدين بالولد، والقريب بالقريب»[٣].

* * *

(١) النهاية (١/ ٣٠٩).

(٢) أفاده المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٦/ ٣١٤).

(٣) عارضة الأحوذي (٩/ ٣-٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحرور: شدة الحَرّ واسْتيقادُهُ ليلا كان أو نهارًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ﴾ عن دين اللَّه الذي ابتعث به نبيه محمدا ﷺ ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الذي قد أبصر فيه رشده، فاتبع محمدا وصدّقه، وقَبِل عن اللَّه ما ابتعثه به، ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ يقول: وما تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان، ﴿وَلَا الظِّلُّ﴾ قيل: ولا الجنة ﴿وَلَا الْحَرُورُ﴾ قيل: النار؛ كأن معناه عندهم: وما تستوي الجنة والنار، والحرور بمنزلة السموم، وهي الرياح الحارة.. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ يقول: وما يستوي الأحياء القلوب بالإيمان باللَّه ورسوله ومعرفة تنزيل اللَّه، والأموات القلوب لغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن اللَّه أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال. وكل هذه أمثال ضربها اللَّه للمؤمن والإيمان، والكافر والكفر»[1].

وقال السعدي: «فكما أنه من المتقرر عندكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا اللَّه تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٢٩).

الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه، ما هو أولى به وأحقها بالإيثار»[١].

وقال ابن كثير: «هذا مثل ضربه اللَّه للمؤمنين -وهم الأحياء- وللكافرين -وهم الأموات- كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٢] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[٣] فالمؤمن بصير سميع، في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾[٤]»[٥].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره-: كما لا يقدر أن يَسمَع من في القبور كتابَ اللَّه فيهديهم به إلى سبيل الرشاد؛ فكذلك لا يقدر أن ينتفع بمواعظ اللَّه وبيان حججه من كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة اللَّه، وفهم كتابه، وتنزيله، وواضح حججه..

وقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾ يقول -تعالى ذكره-: لنبيه محمد ﷺ: ما أنت إلا نذير تنذر هؤلاء المشركين باللَّه، الذين طبع اللَّه على قلوبهم، ولم يرسلك ربك إليهم إلا لتبلغهم رسالته، ولم يكلفك من الأمر ما لا سبيل لك إليه، فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ما جئتهم به؛ فإن ذلك بيد اللَّه لا بيدك، ولا بيد غيرك من الناس، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك»[٦].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٣٤).

(٢) الأنعام: الآية (١٢٢).

(٣) هود: الآية (٢٤).

(٤) الواقعة: الآيتان (٤٣و٤٤).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٣).

(٦) جامع البيان (٢٢/ ١٣٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإيمان بالله، وشرائع الدين التي افترضها على عباده، ﴿بَشِيرًا﴾ يقول: مبشرا بالجنة من صدقك، وقَبِل منك ما جئت به من عند الله من النصيحة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ تنذر الناس من كذّبك، وردّ عليك ما جئت به من عند الله من النصيحة، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقول: وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها مِن قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله»[1].

قال ابن كثير: «﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾[2] وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[3] الآية. والآيات في هذا كثيرة»[4].

وقال أبو حيان: «والمعنى أن الدعاء إلى الله لم ينقطع عن كل أمة. إما بمباشرة من أنبيائهم، وما ينقل إلى وقت بعثة محمد ﷺ، والآيات التي تدل على أن قريشًا ما جاءهم نذير؛ معناه: لم يباشرهم ولا آباءهم القريبين، وأما أن النذارة انقطعت؛ فلا. ولما شَرَعت آثار النذراة تندرس؛ بعث الله محمدًا ﷺ. وما ذكره أهل علم الكلام من حال أهل الفترات؛ فإن ذلك على حسب العرْض لأنه واقع، ولا توجد أمة على وجه الأرض إلا وقد علمت الدعوة إلى الله وعبادته»[5].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٠).
(٢) الرعد: الآية (٧).
(٣) النحل: الآية (٣٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٣).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٢٩٥).

قلت: هذا التوجيه الذي ذكره أبوحيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية حسن يجمع النصوص، فاللَّه تعالى خلق الخلق ولم يتركهم هملًا ؛ بل أرسل إليهم الرسل، وبعث فيهم الأنبياء، وقد تنقطع الرسالة لمدة فيكون ظاهر الأمر أنه لم يرسل في الأمة المذكورة رسول، ولكن البلاغ حاصل، يرثه الآخِرُ عن الأول، فكفار قريش وإن طال عهدهم بالرسالات ففيهم من بقايا دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما بقي، وكان فيهم الحنفاء كورقة بن نوفل وزيد بن نفيل وغيرهما، وجاء رسول اللَّه ﷺ فأوضح لهم السبيل، وشرح دين الحنيفية من جديد، فلهذا ليسوا هم أهل فترة، وإنما هم أهل غباوة وانحراف، فنسأل اللَّه السلامة والعافية.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مسليًا نبيه محمدًا ﷺ فيما يلقى من مشركي قومه من التكذيب: وإن يكذبك يا محمد مشركو قومك؛ فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم الذين ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: يقول: بحجج من اللَّه واضحة، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ يقول: وجاءتهم بالكتب من عند اللَّه.. وقوله: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ يقول: وجاءهم من اللَّه الكتاب المنير لمن تأمله وتدبره أنه الحق.. وقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: ثم أهلكنا الذين جحدوا رسالة رسلنا، وحقيقة ما دعوهم إليه من آياتنا، وأصروا على جحودهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييري بهم، وحلول عقوبتي بهم»[1].

وقال السعدي: «﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والخزي الوخيم»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٣٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

جدد: جمع جُدّة، بالضم، وهي الطريقة والعلامة. والجُدَّةُ أيضًا: الخُطَّة السوداء في ظهر حمار الوحش. وأصل ذلك من جَدَدتُ الشيءَ: إذا قطعته.

قال زهير:

كأنه أسفع الخَدَّيْنِ ذو جُدَد ... طاوٍ ويرْتع بعد الصيف عُرْيانا

غرابيب: جمع غِربيب، وهو الشديد السواد. قال امرؤ القيس:

العين طامحة واليد سابحة ... والرِّجْل لافحة والوجه غِرْبيبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ألم تر يا محمد أن اللَّه أنزل من السماء غيثا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾: يقول فسقيناه أشجارا في الأرض، فأخرجنا به من تلك الأشجار ثمرات مختلفا ألوانها، منها الأحمر، ومنها الأسود، والأصفر وغير ذلك من ألوانها، ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن الجبال طرائق، وهي الجُدَد، وهي الخِطط تكون في الجبال، بيضٌ وحمرٌ وسودٌ كالطرق، واحدتها جُدّة.. وقوله: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ يعني مختلف ألوان الجُدَد ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ وذلك من المقدم الذي هو بمعنى التأخير، وذلك أن العرب تقول: هو أسود غِرْبيب؛ إذا وصفوه بشدة السواد، وجعل السواد ههنا صفة للغرابيب. وقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ كما من الثمرات والجبال

مختلف ألوانه بالحمرة والبياض والسواد والصفرة وغير ذلك»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها؛ من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[٢]. وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان؛ كما هو المشاهد أيضا من بِيض وحمْر.. ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: الغرابيب الجبال الطوال السود.. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كذلك الحيوانات من الأناسي، ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ وهو كل ما دب على قوائم، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ كذلك هي مختلفة أيضا، فالناس منهم بربر، وحُبوش، وطُماطم[٣] في غاية السواد، وصقالبة، وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[٤] وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين»[٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنما يخاف الله؛ فيتقي عقابه بطاعته؛ العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء، وأنه يفعل ما يريد؛ لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه؛ خشية منه أن يعاقبه»[٦].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣١).
(٢) الرعد: الآية (٤)
(٣) الطُّماطم العجم.
(٤) الروم: الآية (٢٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٣-٥٤٤).
(٦) جامع البيان (٢٢/ ١٣٢).

قال ابن كثير: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل؛ كانت الخشية له أعظم وأكثر»[١].

وقال ابن القيم: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ يقتضي الحصر من الطرفين؛ أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالما إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم»[٢].

وقال ابن عاشور: «والمراد بالعلماء: العلماء باللَّه وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة اللَّه وثوابه وعقابه معرفةً على وجهها؛ فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله؛ ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية، فهو يفهم مواقعها حق الفهم، ويرعاها في مواقعها، ويعلم عواقبها من خير أو شر، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد اللَّه ومقصد شرعه؛ فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوى أو تعجّل نفعٍ دنيوي؛ كان في حال المخالفة موقنا أنه مورط فيما لا تحمد عقباه، فذلك الإيقانُ لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال. وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء، وخشيته متولدة عن خشية العلماء. قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد (والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى اللَّه أولاهم به، وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة»)[٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه عزيز في انتقامه ممن كفر به، غفور لذنوب من آمن به وأطاعه»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٤).

(٢) شفاء العليل (١٧٢).

(٣) التحرير (٢٢/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٤) جامع البيان (٢٢/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين يقرؤون كتاب اللَّه الذي أنزله على محمد ﷺ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يقول: وأدوا الصلاة المفروضة لمواقيتها بحدودها، وقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بمعنى: ويقيموا الصلاة وقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يقول: وتصدقوا بما أعطيناهم من الأموال سرا في خفاء، وعلانية جهارا، وإنما معنى ذلك أنهم يؤدون الزكاة المفروضة ويتطوعون أيضا بالصدقة منه بعد أداء الفرض الواجب عليهم فيه، وقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يرجون بفعلهم ذلك تجارة لن تبور: لن تكسُد ولن تهلك، من قولهم: بارت السوق: إذا كسدت، وبار الطعام. وقوله: ﴿تِجَٰرَةً﴾ جواب لأول الكلام. وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ يقول: ويوفيهم اللَّه على فعلهم ذلك ثواب أعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ يقول: وكي يزيديهم على الوفاء من فضله ما هو له أهل، وكان مطرف بن عبد اللَّه يقول: هذه آية القراء»[1].

قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى وصفهم بالخشية وهي عمل القلب، ذكر أنهم يتلون كتاب اللَّه، وهو عمل اللسان. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وهو عمل الجوارح، وينفقون: وهو العمل المالي. وإقامة الصلاة والإنفاق: يقصدون بذلك وجه اللَّه، لا للرياء والسمعة»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٢).
(٢) البحر (٧/ ٢٩٨).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: إن اللَّه غفور لذنوب هؤلاء القوم الذين هذه صفتهم، شكور لحسناتهم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذي أوحينا إليك من الكتاب يا محمد وهو هذا القرآن الذي أنزله اللَّه عليه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ يقول: هو الحق عليك وعلى أمتك أن تعمل به وتتبع ما فيه دون غيره من الكتب التي أوحيت إلى غيرك، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يقول: هو يصدق ما مضى بين يديه فصار أمامه من الكتب التي أنزلتُها إلى من قبلك من الرسل.. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه بعباده لذو علم وخبرة بما يعملون، بصير بما يصلحهم من التدبير»[1].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضله به على مَنْ سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات اللَّه عليهم أجمعين»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدِّق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو المفرّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.. وهكذا روي عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفَين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفَين الوارثين الكتاب.. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ من طرق يشد بعضها بعضًا»[١].

وقال الشوكاني: «قسم سبحانه هؤلاء الذين أورثهم كتابه واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وقد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية؛ لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسّم، وهو من اصطفاهم من العباد، فكيف يكون من اصطفاه اللَّه ظالمًا لنفسه؟

فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد، أي: فمن عبادنا ظالم لنفسه، وهو:

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٧).

الكافر، ويكون ضمير ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عائدًا إلى المقتصد والسابق.

وقيل: المراد بالظالم لنفسه هو: المقصّر في العمل به، وهو: المرجئ لأمر اللَّه، وليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حقّ رعايته، لقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾(١). وهذا فيه نظر؛ لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء.

وقيل: الظالم لنفسه: هو: الذي عمل الصغائر، وقد روي هذا القول عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، وأبي الدرداء، وعائشة، وهذا هو الراجح؛ لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة، يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتي. ووجه كونه ظالمًا لنفسه؛ أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظًا عظيمًا.

وقيل: الظالم لنفسه هو: صاحب الكبائر. وقد اختلف السلف في تفسير السابق والمقتصد.. وقد ذكر الثعلبي وغيره أقوالا كثيرة.

ولاشك أن المعاني اللغوية للظالم والمقتصد والسابق معروفة، وهو يصدق على الظلم للنفس بمجرد إحرامها للحظ وتفويت ما هو خير لها، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوّتها من الثواب، وإن كان قائما بما أوجب اللَّه عليه تاركًا لما نهاه اللَّه عنه، فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه اللَّه، ومن أهل الجنة، فلا إشكال في الآية، ومن هذا قول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾(٢) وقول يونس: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٣). ومعنى المقتصد هو من يتوسط في أمر الدين، ولا يميل إلى جانب الإفراط ولا إلى جانب التفريط، وهذا من أهل الجنة، وأما السابق فهو الذي سبق غيره في أمور الدين، وهو خير الثلاثة، وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد، وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه، والسابق أفضل منهما؛ فقيل: إن التقديم لا يقتضي التشريف كما في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾(٤)، ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشرّ على أهل الخير، وتقديم المفضولين

---

(١) الأعراف: الآية (١٦٩).
(٢) الأعراف: الآية (٢٣).
(٣) الأنبياء: الآية (٨٧).
(٤) الحشر: الآية (٢٠).

على الفاضلين. وقيل: وجه التقديم هنا أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل، والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقلّ قليل، فقدّم الأكثر على الأقلّ، والأوّلُ أولى؛ فإن الكثرة بمجرّدها لا تقتضي تقديم الذكر. وقد قيل في وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لا حاجة إلى التطويل به»[1].

قال ابن القيم: «وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقربون، وهؤلاء الأصناف الثلاثة، هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون، وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمنًا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه»[2].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ قال الشوكاني: «الإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى توريث الكتاب والاصطفاء، وقيل إلى السبق بالخيرات، والأول أولى، وهو مبتدأ، وخبره ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الفضل الذي لا يقادر قدره»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة أهل العلم وأنهم أولى من ورث الكتاب وأن الظالم لنفسه من هذه الأمة وأنه ناج بالشفاعة

* عن كثير بن قيس، قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجل، فقال: يا أبا الدرداء، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، ما جئتُ لحاجة، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد؛ كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن**

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٩٠-٤٩٢).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ١٨٧).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٩٢).

الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

★ من فوائد الحديث:

الغرض من هذا الحديث بيان أن أهل العلم أولى من ورث الكتاب من هذه الأمة. قال ابن كثير: «فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة»(٢).

قال ابن تيمية: «فغاية العلماء من الأئمة وغيرهم من هذه الأمة أن يكونوا ورثة أنبياء»(٣).

*** عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ أن النبي ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**(٤).

★ من فوائد الحديث:

هذا الحديث أورده ابن كثير في تفسير هذه الآية من رواية ابن عباس ﷺ مؤيِّدا به قول من قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وإنه يدخل الجنة بشفاعة النبي ﷺ، «فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب، وأن المراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه»(٥).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٤/ ٥٧-٥٨/ ٣٦٤١)، والترمذي (٥/ ٤٧/ ٢٦٨٢) وابن ماجه (١/ ٨١/ ٢٢٣)، وصححه ابن حبان (١/ ٢٨٩/ ٨٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥٠).

(٣) الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٨٧).

(٤) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٤٠/ ٢٤٣٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤١/ ٤٣١٠)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٣٨٦/ ٦٤٦٧) والحاكم (١/ ٦٩) على شرط مسلم.

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٢٠).

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: بساتين إقامة يدخلونها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب، الذين اصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة، ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ يلبسون في جنات عدن أسورةً من ذهب ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ يقول: ولباسهم في الجنة الحرير»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الحلية والحرير لباس أهل الجنة

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**تبلغ حلية أهل الجنة مبلغ الوضوء**»[2].

★ من فوائد الحديث:

قال السندي: «الحلية: تطلق على السيما؛ فالمراد ههنا التجميل من أثر الوضوء يوم القيامة. وعلى الزينة؛ والمراد ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾. والله تعالى أعلم»[3].

وقد تقدم الكلام على الحديث في سورتي الكهف (الآية ٣١) والحج (الآية ٢٣).

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧١)، ومسلم (١/ ٢١٩/ ٢٥٠)، والنسائي (١/ ١٠٠-١٠١/ ١٤٩) وابن حبان (٣/ ٣٢٠/ ١٠٤٥) واللفظ له.

(٣) حاشية السندي على النسائي (١/ ١٠٠).

* عن عبد العزيز بن صهيب أنه سمع أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من لبس الحرير في الدنيا، فلن يلبسه في الآخرة**»[١].

* عن ابن أبي ليلى قال: كان حذيفة ﷺ بالمدائن فاستسقى، فأتاه دِهقان بماء في إناء من فضة، فرماه به وقال: إني لم أرمه إلا أني نَهَيته فلم ينتَه، قال رسول اللَّه ﷺ: «**الذهب والفضة والحرير والديباج هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

دِهقان: الدهقان فارسي معرّب، وهم زعماء القرى من العجم والفرس. قال أبو عبيد: يقال: دِهْقان ودُهقان، بالكسر والضم، ويحتمل أن سمي من جمع المال أو صبه وملأ الأوعية منه، يقال: دَهَقت الماء إدهاقًا ودهَّقته: إذا أفرغته إفراغًا، ودهق لي دهقة من المال: أعطانيه، وأدهقت الإناء: ملأته، قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝﴾[٣] أي: ملأى. فقد يكون اسم الدهقان من هذا، قال الشاعر:

دهقانة تسجد الملوك لها يجبى إليها الخراج في الجرب

أو يكون من اللين. والدهقة: لين الطعام والدهقنة؛ لأنهم يليّنون طعامهم وعيشهم لسعة أحوالهم، أو يكون دهقنة الطعام ولينه مشتقًا من اسمهم؛ إذ هي عادتهم، واللَّه أعلم. وقيل: معناه: الحِذق والدهاء[٤].

* عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة**»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠١)، والبخاري (١٠/ ٣٤٩/ ٥٨٣٢)، ومسلم (٣/ ١٦٤٥/ ٢٠٧٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٦٥/ ٩٥٨٢)، وابن ماجه (٢/ ١١٨٧/ ٣٥٨٨).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/ ٣٤٩/ ٥٨٣١)، ومسلم (٣/ ١٦٣٧/ ٢٠٦٧)، وأبو داود (٤/ ١١٢/ ٣٧٢٣)، والترمذي (٤/ ٢٦٤-٢٦٥/ ١٨٧٨)، والنسائي (٨/ ٥٨٥-٥٨٦/ ٥٣١٦)، وابن ماجه (٢/ ١١٣٠/ ٣٤١٤).

(٣) النبأ: الآية (٣٤).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٥٦٨-٥٦٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤) واللفظ له، والبخاري (٢/ ٥٥٨/ ٩٤٨)، ومسلم (٣/ ١٦٣٨/ ٢٠٦٨)، وأبو داود (٤/ ٣٢٠/ ٤٠٤٠)، والنسائي (٨/ ٥٨٣/ ٥٣١٠)، وابن ماجه (٢/ ١١٨٧/ ٣٥٩١).

★ **من فوائد الأحاديث:**

قال ابن القيم: «ههنا مسألة، وهذا موضع ذكرها؛ وهي أن اللَّه ﷻ أخبر أن لباس أهل الجنة حرير، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لبس الحرير في الدنيا؛ لم يلبسه في الآخرة**» متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك. وقد اختُلف في المراد بهذا الحديث؛ فقالت طائفة من السلف والخلف: إنه لا يَلبس الحرير في الجنة ويلبس غيره من الملابس. قالوا: وأما قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فمن العام المخصوص.

وقال الجمهور: وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، التي تدل على أن الفعل مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف عنه لمانع، وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضا الحسنات الماحية، والمصائب المكفّرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن اللَّه له في الشفاعة فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه، فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «**مَن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**»[1] وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾[2] وقال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وتأمل ما دلت عليه لفظة ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا يجمّل ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال»[3].

وقد تقدم الكلام على هذه الأحاديث في سورة الحج الآية (**٢٣**) ولله الحمد والمنة.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩)، والبخاري (١٠/ ٣٧/ ٥٥٧٥)، ومسلم (٣/ ١٥٨٨/ ٢٠٠٣/ ٧٦-٧٧) واللفظ له، والنسائي (٨/ ٧٢١/ ٥٦٨٧)، وتمامه: «إلا أن يتوب».

(٢) الإنسان: الآية (١٢).

(٣) حادي الأرواح (١٣٥-١٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الحزَن الذي حَمِد اللَّه على إذهابه عنهم هؤلاء القومُ، فقال بعضهم: ذلك الحزن الذي كانوا فيه قبل دخولهم الجنة من خوف النار؛ إذ كانوا خائفين أن يدخلوها..

وقال آخرون: عنى به الموت.. وقال آخرون: عنى به حزن الخبز[1].. وقال آخرون: عنى بذلك الحزن من التعب الذي كانوا فيه في الدنيا.. وقال آخرون: بل عنى بذلك الحزن الذي ينال الظالم لنفسه في موقف القيامة..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به؛ أنهم قالوا حين دخلوا الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وخوفُ دخول النار من الحزن، والجزع من الموت من الحزن، والجزع من الحاجة إلى المطعم من الحزن، ولم يخصص اللَّه إذ أخبر عنهم أنهم حمدوه على إذهابه الحزن عنهم نوعًا دون نوع، بل أخبر عنهم أنهم عمّوا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك، وكذلك ذلك؛ لأن من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك، فحمْدُهم على إذهابه عنهم جميع معاني الحزن»[2].

وقال ابن عطية: «والحزن في هذه عامّ في جميع أنواع الأحزان، وخصّص المفسرون في هذا الموضع.. ولا معنى لتخصيص شيء من هذه الأحزان؛ لأن الحزن أجمعَ قد ذهب عنهم»[3].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا

---

(١) لعل المراد به همّ العيش في الدنيا، والعيش فيها قوامه الطعام والخبز.

(٢) جامع البيان (٢٢/ ١٣٨-١٣٩) باختصار.

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٤٤٠).

عن قيل هذه الأصناف الذين أخبر أنه اصطفاهم من عباده عند دخولهم الجنة: إن ربنا لغفور لذنوب عباده الذين تابوا من ذنوبهم، فساترها عليهم بعفوه لهم عنها، شكور لهم على طاعتهم إياه، وصالح ما قدموا في الدنيا من الأعمال»[١].

وقال السعدي: «﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٣٦).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾

★ غريب الآية:

نصب: تعب. ونصب كفرح: أعيا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل الذين أُدخلوا الجنة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: ربنا الذي أنزَلَنا هذه الدار؛ يعنون الجنة، فدار المقامة: دار الإقامة التي لا نقلة معها عنها ولا تَحوّل، والميم إذا ضمت من المقامة فهي من الإقامة، فإذا فتحت فهي من المجلس والمكان الذي يقام فيه.. وقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ يقول: لا يصيبنا فيها تعب ولا وجع ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يعني باللغوب العناء والإعياء»[1].

وقال ابن كثير: «والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم؛ أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم. فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن دخول الجنة بفضل الله ورحمته

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لن يُنجي أحدًا منكم عملُه»**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله** برحمة. سددوا،

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) الحاقة: الآية (٢٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥١).

وقاربوا، واغدوا، وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا»[١].

★ **غريب الحديث:**

يتغمّدني: قال أبو عبيد: المراد بالتغمّد: الستر، وما أظنه إلا مأخوذًا من (غمد السيف)؛ لأنك إذا أغمدت السيف، فقد ألبسته الغمد، وسترته به.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قال البيضاوي: النجاة من العذاب، والفوز بالثواب؛ بفضل اللَّه ورحمته، والعمل غير مؤثر فيهما على سبيل الإيجاب، بل غايته أنه يعِدُ العامل لأن يُتفضل عليه وتُقرَّب إليه الرحمة. ومعنى قوله: «**إلا أن يتغمّدني اللَّه برحمته**» يحفظني بها؛ كما يُحفظ السيفُ في غمده، ويجعل رحمته محيطة بي إحاطة الغلاف بما يُحفظ فيه»[٢].

وقال القاضي: «لا تعارض بينه وبين قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[٣] وشِبهه من الآيات؛ لأن الحديث يفسِّر ما أُجمل ههنا، وأن معنى ذلك: مع رحمة اللَّه وبرحمة الله؛ إذ من رحمة اللَّه توفيقه للعمل، وهدايته للطاعات، وأنه لم يستحقها بعمله؛ إذ الكل بفضل من اللَّه تعالى»[٤].

وقد تقدم ما يتعلق بالحديث في سورة الأعراف (الآية ٧٢).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٤)، والبخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠١).

(٢) الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٨٦٥).

(٣) النحل: الآية (٣٢).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال السعداء شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[1]. قال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾[2] فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾[3]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[4] ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[5].

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه، وكذب بالحق»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن أهل النار لا يموتون فيها ولا يحيون

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها؛ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكنْ ناس أصابتهم النار بذنوبهم، (أو قال: بخطاياهم) فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أُذن بالشفاعة، فجيء بهم ضَبائر ضَبائر، فبُثّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات**

(١) طه: الآية (٧٤).
(٢) الزخرف: الآية (٧٧).
(٣) الزخرف: الآيتان (٧٤و٧٥).
(٤) الإسراء: الآية (٩٧).
(٥) النبأ: الآية (٣٠).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥٢).

الحبة تكون في حميل السيل»، فقال رجل من القوم: كأن رسول اللَّه ﷺ قد كان بالبادية[١].

★ غريب الحديث:

ضَبائِر: بفتح الضاد المعجمة، جمع ضِبارة، بفتح الضاد وكسرها لغتان، أشهرهما الكسر، ويقال فيها أيضًا: إضبارة، بكسر الهمزة. قال أهل اللغة: الضبائر: هي الجماعات في تفرقة.

بُثُّوا: بالباء الموحدة المضمومة بعدها ثاء مثلثة، أي: فرّقوا.

حَمِيل السيل: بفتح الحاء وكسر الميم: ما جاء به السيل من طين أو غثاء. ومعناه: محمول السيل، والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته.

★ فوائد الحديث:

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما معنى الحديث، فالظاهر -واللَّه أعلم- من معنى هذا الحديث؛ أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود؛ لا يموتون فيها ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون معها، كما قال اللَّه تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[٢]. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝﴾[٣] وهذا جارٍ على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١)، ومسلم (١/ ١٧٢-١٧٣/ ١٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤١/ ٤٣٠٩).
(٢) فاطر: الآية (٣٦).
(٣) الأعلى: الآية (١٣).
(٤) شرح مسلم (٣/ ٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يصطرخون: من الصراخ، وهو الصياح بالاستغاثة. والصارخ: المستغيث. والصريخ: المستغيث والمغيث. قال الشاعر:

قوم إذا سمعوا الصَّرِيخَ رأيتهم ... ما بين مُلْجِم مُهرِهِ أو سافِعِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: هؤلاء الكفار يستغيثون ويضِجّون في النار يقولون: يا ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: أي نعمل بطاعتك ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قبلُ من معاصيك»[1].

قال ابن كثير: «قد علِم الرب ﷻ أنه لو ردّهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبرا عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾[2]، أي: لا يجيبكم إلى ذلك؛ لأنكم كنتم كذلك، ولو رُددتم لعدّتم إلى ما نهيتم عنه»[3].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ **قال ابن جرير**: «اختلف أهل التأويل في مبلغ ذلك؛ فقال بعضهم: ذلك أربعون سنة.. وقال آخرون: ذلك ستون سنة..

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤١).

(٢) غافر الآيتان (١١و١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥٢).

وأشبه القولين بتأويل الآية -إذ كان الخبر الذي ذكرناه عن رسول اللَّه ﷺ خبرا في إسناده بعض ما يجب التثبت في نقله- قول من قال: ذلك أربعون سنة؛ لأن في الأربعين يتناهى عقل الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عن كماله في حال الأربعين»[١].

والذي رجحه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن ذلك ستون سنة، حيث قال بعدما أورد رواية عن ابن عباس في هذا المعنى: «فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا، لما ثبت في ذلك من الحديث (يقصد قوله ﷺ: «**أعذر اللَّه إلى امرئ. .**» وسيأتي). لا كما زعمه ابن جرير، من أن الحديث لم يصح؛ لأن في إسناده مَنْ يجب التثبت في أمره. .»

ثم قال بعدما ساق طرقًا للحديث الذي أشار إليه: «فقد صحّ هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد اللَّه البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت. وقول ابن جرير: (إن في رجاله بعض من يجب التثبت في أمره)، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري، واللَّه أعلم.

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إذَا بَلَغَ الفتَى ستينَ عَامًا ... فقد ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ»[٢].

وقال ابن حجر: «وأصح الأقوال في ذلك ما ثبت في حديث الباب، وهو حديث أبي هريرة الآتي: «**أعذر اللَّه إلى امرئ أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة**»»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾:

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى النذير؛ فقال بعضهم: عنى به محمدًا ﷺ. . وقيل: عنى به الشيب؛ فتأويل الكلام إذن: أو لم نعمركم يا معشر المشركين باللَّه من قريش من السنين؛ ما يتذكر فيه من تذكر من ذوي الألباب

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤١-١٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥٣-٥٥٥).

(٣) فتح الباري (١١/ ٢٨٨).

والعقول، واتعظ منهم من اتعظ وتاب من تاب، وجاءكم من اللَّه منذر ينذركم ما أنتم فيه اليوم من عذاب اللَّه، فلم تتذكروا مواعظ اللَّه، ولم تقبلوا من نذير اللَّه الذي جاءكم ما أتاكم به من عند ربكم»[1].

قال ابن كثير معلقًا على اختيار ابن جرير: «وهو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾[2] أي: لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]، وقال -تبارك وتعالى-: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾[4].

وقوله: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذابَ النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة على أن مدة التعمير الواردة في الآية ستون سنة، وأن من بلغها فقد أعذر اللَّه إليه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أعذر اللهُ إلى امرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة**»[6].

★ غريب الحديث:

أعذر: أي: أقام العذر في تطويل التعمير.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل**»[7].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٣).
(٢) الزخرف: الآية (٧٧).
(٣) الإسراء: الآية (١٥)
(٤) الملك: الآيتان (٨و٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥٦).
(٦) أحمد (٢/ ٣٢٠)، والبخاري (١١/ ٢٨٦-٢٨٧/ ٦٤١٩)، والنسائي في الكبرى كتاب الرقائق كما في «التحفة» (٩/ ٤٧٢/ ١٢٩٥٩).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (١١/ ٢٨٧/ ٦٤٢٠)، ومسلم (٢/ ٧٢٤/ ١٠٤٦)، والترمذي (٤/ ٤٩٣/ ٢٣٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥/ ٤٢٣٣)، والنسائي في الكبرى (الرقائق ١٠/ ٣٧٨/ ١١٧٦٦) تحقيق الأرناؤوط.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكبَر ابن آدم ويكبَر معه اثنان: حب المال، وطول العُمُر**»[١].

★ **من فوائد الأحاديث:**

قال ابن بطال: «وقوله عليه السلام: «**أعذر اللَّه إلى امرئ أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة**» أي: أعذر إليه غاية الإعذار، الذي لا إعذار بعده؛ لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله تعالى، وترقب المنية، ولقاء اللَّه تعالى، فهذا إعذار بعد إعذار في عمر ابن آدم؛ لطفًا من اللَّه لعباده حين نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، وأعذر إليهم مرة بعد أخرى، ولم يعاقبهم إلا بعد الحجج اللائحة المبكتة لهم، وإن كانوا قد فطرهم اللَّه تعالى على حب الدنيا وطول الأمل، فلم يتركهم مهمَلين دون إعذار لهم وتنبيه، وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثه الرسل إليهم»[٢].

قال العيني: «وحاصل المعنى: أقام اللَّه عذره في تطويل عمره وتمكينه من الطاعة مدة مديدة، واحتج في ذلك بقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾»[٣].

وقال ابن الجوزي: «فمن بلغ الستين فقد انتهى، وأثّر فيه ضعف القوة، وجاءته نُذُر الموت، ودخل في سن المشايخ، وفي ذلك الزمان يزيد انحطاط القوة، ويقوى ظهور الضعف إلى آخر العمر»[٤].

وقال الحافظ: «قال بعض الحكماء: الأسنان أربعة: سن الطفولية، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة وهي آخر الأسنان، وغالب ما يكون ما بين الستين والسبعين، فحينئذ يظهر ضعف القوة بالنقص والانحطاط، فينبغي له الإقبال على الآخرة بالكلية؛ لاستحالة أن يرجع إلى الحالة الأولى من النشاط والقوة. وقد استنبط منه بعض الشافعية أن من استكمل ستين فلم يحج مع القدرة فإنه يكون

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٤)، والبخاري (١١/ ٢٨٧/ ٦٤٢١)، ومسلم (٢/ ٧٢٤/ ١٠٤٧)، والترمذي (٤/ ٤٩٣/ ٢٣٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥/ ٤٢٣٤)، والنسائي في الكبرى (الرقائق ١٠/ ٣٧٨/ ١١٧٦٥) تحقيق الأرناؤوط.

(٢) شرح ابن بطال (١٠/ ١٥٢-١٥٣).

(٣) عمدة القاري (١٥/ ٥٠٣).

(٤) كشف المشكل (٣/ ٥٣٢).

مقصّرًا، ويأثم إن مات قبل أن يحجّ، بخلاف ما دون ذلك»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«أعمار أمتي ما بين ستين إلى سبعين، وأقلّهم من يجوز ذلك»**[2].

⋆ من فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «لما كان هذا هو العمر (أي: ستين سنة) الذي يُعذِر إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل؛ كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة كما ورد بذلك الحديث..»، ثم ساق حديث أبي هريرة[3].

وقال المناوي: «وهذا من رحمة اللّه بهذه الأمة، ورفقه بهم؛ أخّرهم في الأصلاب حتى أخرجهم إلى الأرحام بعد نفاد الدنيا، ثم قصّر أعمارهم؛ لئلا يلتبسوا بالدنيا إلا قليلًا، فإن القرون السالفة كانت أعمارهم وأبدانهم وأرزاقهم أضعاف ذلك: كان أحدهم يعمّر ألف سنة، وطوله ثمانون ذراعًا، وأكثر وأقل فكانوا يتناولون الدنيا بمثل تلك الأجساد، وفي تلك الأعمار، فبطِروا، واستكبروا، وأعرضوا عن اللّه، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝﴾[4]، فلم يزل الخلق ينقصون خلقًا ورزقًا وأجلًا إلى أن صارت هذه الأمة آخر الأمم، يأخذون أرزاقًا قليلة، بأبدان ضعيفة، في مدة قصيرة؛ كيلا يبطَروا؛ فذلك رحمة بهم»[5].

* * *

(١) فتح الباري (١١/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٥١٧/ ٣٥٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥/ ٤٢٣٦)، قال الترمذي: «حسن غريب وقد روي عن أبي هريرة من غير هذا الوجه»، وصححه الحاكم على شرط مسلم (٢/ ٤٢٧) ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٥٥).

(٤) الفجر: الآية (١٣).

(٥) فيض القدير (٢/ ١١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه عالم ما تخفون أيها الناس في أنفسكم وتضمرونه، وما لم تضمروه ولم تنووه مما ستنوونه، وما هو غائب عن أبصاركم في السماوات والأرض، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم تضمرون في أنفسكم من الشك في وحدانية اللَّه أو في نبوة محمد غير الذي تبدونه بألسنتكم؛ إنه عليم بذات الصدور»[١].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، واطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر، والزكاء وغيره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٧).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خلائف: جمع خليفة. وهو الذي يخلف غيره.

مقتًا: المقت: أشد البغض.

خسارًا: هلاكًا وضلالًا. والخسران ضد الربح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: اللَّه الذي جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض من بعد عاد وثمود، ومن مضى من قبلكم من الأمم فجعلكم تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم»[(١)].

قال ابن كثير: «﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلُف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)]»[(٣)].

قال أبو حيان: «وفي هذا تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من مكذبي الرسل، وما حل بهم من الهلاك، ولا اعتبروا بمن كفر، ولم يتعظوا بمن تقدم»[(٤)].

وقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فمن كفر باللَّه منكم أيها الناس فعلى نفسه ضُرّ كُفره، لا يضر بذلك غير نفسه؛ لأنه المعاقَب عليه دون غيره. وقوله:

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٣).
(٢) النمل: الآية (٦٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥٧).
(٤) البحر (٧/ ٣٠٢).

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ يقول تعالى: ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا بعدا من رحمة اللَّه، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ يقول: ولا يزيد الكافرين كفرهم باللَّه إلا هلاكًا»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي قومك: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها القوم ﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: أروني أي شيء خلقوا من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يقول: أم لشركائكم شرك مع اللَّه في السماوات إن لم يكونوا خلقوا من الأرض شيئا، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ يقول: أم آتينا هؤلاء المشركين كتابا أنزلناه عليهم من السماء بأن يشركوا باللَّه الأوثان والأصنام، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾، فهم على برهان مما أمرتهم فيه من الإشراك بي.. وقوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ وذلك قول بعضهم لبعض ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ خداعًا من بعضهم لبعض وغرورا، وإنما تُزْلِفهم آلهتهم من النار، وتقصيهم من اللَّه ورحمته»[1].

وقال السعدي: «يقول تعالى مُعجِّزًا لآلهة المشركين، ومبينا نقصها، وبطلان شركهم من جميع الوجوه.

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني عن شركائكم ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، ف ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحرا أم خلقوا جبالا أو خلقوا حيوانا، أو خلقوا جمادا؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء، هو اللَّه تعالى، ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ أي لشركائكم ﴿شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي مشاركة في خلقها وتدبيرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة في ذلك.

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٣-١٤٤).

فإذا لم يخلقوا شيئا، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضا منتف، فلهذا قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَبًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فَهُمْ﴾ في شركهم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك، فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول اللّه محمد، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإنا نجزم بكذبهم، لأن اللّه قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[1] فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين للّه تعالى، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[2].

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي، والنقلي قد دلا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمانيّ مَنَّاها الشيطان، وزين لهم سوء أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل»[3].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) البينة: الآية (٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٧).

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما بين تعالى فساد أمر الأصنام، ووقّف الحجة على بطلانها؛ عقّبه بذكر عظمته وقدرته ليتبين الشيء بضده، وتتأكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾، والظاهر أن معناه: أن تنتقلا عن أماكنهما وتسقط السماوات عن علوها»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن اللّه يمسك السماوات والأرض لئلا تزولا من أماكنهما ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ يقول: ولو زالتا ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ يقول: ما أمسكهما أحد سواه.. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إن اللّه كان حليما عمن أشرك وكفر به من خلقه في تركه تعجيل عذابه له، غفورا لذنوب من تاب منهم، وأناب إلى الإيمان به، والعمل بما يرضيه»[2].

وقال ابن كثير: «أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾[4]. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعْجَل، ويستر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾»[5].

---

(١) البحر (٧/ ٣٠٣).
(٢) جامع البيان (٢٢/ ١٤٤-١٤٥).
(٣) الحج: الآية (٦٥).
(٤) الروم: الآية (٢٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٦٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الإمساك لله تعالى كما يليق به سبحانه

* عن عبد اللَّه أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! إن اللَّه يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك رسول اللَّه ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] قال يحيى بن سعيد: وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله: فضحك رسول اللَّه ﷺ تعجبًا وتصديقًا له[2].

⋆ من فوائد الحديث:

بوب ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد على هذا الحديث بقوله: «باب ذكر إمساك اللَّه -تبارك وتعالى اسمه، وجل ثناؤه-؛ السماوات والأرض وما عليها على أصابعه» ثم قال: «أما خبر ابن مسعود؛ فمعناه أن اللَّه -جل وعلا- يمسك ما ذُكر في الخبر على أصابعه على ما في الخبر، سواء قبل تبديل اللَّه الأرض غير الأرض؛ لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء وهو مفهوم في اللغة التي خوطبنا بها؛ لأن الإمساك على الشيء بالأصابع غير القبض على الشيء»[3].

وبوب أبو بكر الآجري على الحديث بقوله: «باب الإيمان بأن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يمسك السماوات على أصبع والأرضين على أصبع»[4].

قال ابن القيم: «ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع، ورودًا متنوعًا متصرفًا فيه مقرونًا على ما يدل على أنها يد حقيقية، من الإمساك والطي والقبض والبسط»[5].

* * *

---

(١) الزمر: الآية (٦٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢٩) والبخاري (١٣/ ٤٨٤/ ٧٤١٤) ومسلم (٤/ ٢١٤٧/ ٢٧٨٦)، والترمذي (٥/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٣٢٣٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦/ ١١٤٥٠).

(٣) كتاب التوحيد (ص٧٨-٧٩).

(٤) الشريعة (ص٣١٨).

(٥) مختصر الصواعق (ص٣٨٤)

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

★ غريب الآية:

يحيق: حاق به الشيء يحيقُ: نَزَلَ وحَلَّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأقسم هؤلاء المشركون بالله جهد أيمانهم، يقول: أشد الأيمان فبالغوا فيها؛ لئن جاءهم من الله منذر ينذرهم بأس الله ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يقول: ليكونن أسلك لطريق الحق، وأشد قبولا لما يأتيهم به النذير من عند الله، من إحدى الأمم التي خلت من قبلهم»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره؛ كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[3]»[4].

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾:

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٥).

(٢) الأنعام: الآيتان (١٥٦و١٥٧).

(٣) الصافات: الآيات (١٦٧-١٧٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٥٩).

قال ابن جرير: «يعني بالنذير محمدا ﷺ يقول: فلما جاءهم محمد ينذرهم عقاب اللَّه على كفرهم.. وقوله: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ يقول: ما زادهم مجيء النذير من الإيمان باللَّه واتباع الحق وسلوك هدى الطريق إلا نفورا وهربًا.. وقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: نَفَروا استكبارا في الأرض، وخدعة سيئة؛ وذلك أنهم صدوا الضعفاء عن اتباعه مع كفرهم به. والمكرُ ههنا: هو الشرك.. وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ يقول: ولا ينزل المكر السيء إلا بأهله، يعني بالذين يمكرونه، وإنما عنى أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم..

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا سنة اللَّه بهم في عاجل الدنيا على كفرهم به أليم العقاب، يقول: فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أُحِلّ بهم من نقمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم.. وقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ يقول: فلن تجد يا محمد لسنة اللَّه تغييرًا، وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ يقول: ولن تجد لسنة اللَّه في خلقه تبديلًا: يقول: لن يغير ذلك ولا يبدله لأنه لا مردّ لقضائه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٥-١٤٦).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم يسر يا محمد هؤلاء المشركون بالله في الأرض التي أهلكنا أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا؛ فإنهم تجار يسلكون طريق الشام ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم التي كانوا يمرون بها؛ ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم؟! فيتعظوا بهم وينزجروا عما هم عليه من عبادة الآلهة بالشرك بالله، ويعلموا أن الذي فعل بأولئك ما فعل ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وبطشًا؛ لن يَتعذر عليه أن يفعل بهم مثل الذي فعل بأولئك من تعجيل النقمة والعذاب لهم..

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولن يعجزنا هؤلاء المشركون بالله من عبدة الآلهة المكذبون محمدا، فيسبقونا هربا في الأرض إذا نحن أردنا هلاكهم؛ لأن الله لم يكن ليعجزه شيء يريده في السماوات ولا في الأرض، ولن يقدر هؤلاء المشركون أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن الله كان عليما بخلقه، وما هو كائن، وَمن هو المستحق منهم تعجيل العقوبة، ومَن هو عن ضلالته منهم راجع، إلى الهدى آيب، قديرا على الانتقام ممن شاء منهم، وتوفيقِ من أراد منهم للإيمان»[1].

وقال ابن كثير: «قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٦-١٤٧).

في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل؟ كيف دمر اللَّه عليهم وللكافرين أمثالها، فَخلِيَتْ منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النَّعَم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئًا، ولا دفع عنهم من عذاب اللَّه من شيء، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السموات والأرض؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ يقول: ولو يعاقب اللَّه الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب والمعاصي، واجترحوا من الآثام؛ ما ترك على ظهرها من دابة تدب عليها ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده، محدود لا يقصرون دونه، ولا يجاوزونه إذا بلغوه. . وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإذا جاء أجل عقابهم؛ فإن اللَّه كان بعباده بصيرًا: مَن الذي يستحق أن يعاقب منهم، ومَن الذي يستوجب الكرامة، ومَن الذي كان منهم في الدنيا له مطيعا، ومَن كان فيها به مشركا، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه علم شيء من أمرهم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٤٧-١٤٨).



سورة يس

أغراض السورة

من أغراضها : «التحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة، وبالقسم بالقرآن تنويها به، وأدمج وصفه بالحكيم؛ إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام. والمقصود من ذلك تحقيق رسالة محمد ﷺ، وتفضيل الدين الذي جاء به في كتاب منزل من الله؛ لإبلاغ الأمة الغاية السامية، وهي استقامة أمورها في الدنيا، والفوز في الحياة الأبدية، فلذلك وصف الدين بالصراط المستقيم. . وأن القرآن داع لإنقاذ العرب الذين لم يسبق مجيء رسول إليهم؛ لأن عدم سبق الإرسال إليهم تهيئة لنفوسهم لقبول الدين؛ إذ ليس فيها شاغل سابق يعزّ عليهم فراقه، أو يكتفون بما فيه من هدى.

ووصف إعراض أكثرهم عن تلقي الإسلام، وتمثيل حالهم الشنيعة، وحرمانهم من الانتفاع بهدي الإسلام، وأن الذين اتبعوا دين الإسلام هم أهل الخشية، وهو الدين الموصوف بالصراط المستقيم.

وضرب المثل لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية، الذين شابه تكذيبهم الرسل تكذيب قريش، وكيف كان جزاء المعرضين من أهلها في الدنيا، وجزاء المتبعين في درجات الآخرة. ثم ضرب المثل بالأعم، وهم القرون الذين كَذبوا فأُهلكوا، والرثاء لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون إلى تكذيب الرسل. وتَخلّص إلى الاستدلال على تقريب البعث وإثباته بالاستقلال تارة، وبالاستطراد أخرى، مدمجًا في آياته الامتنان بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات. ورمز إلى دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية إيقاظًا لهم. ثم تذكيرهم بأعظم حادثة حدثت على المكذبين

للرسل، والمتمسكين بالأصنام، من الذين أرسل إليهم نوح نذيرا فهلك من كذّب ونجا من آمن، ثم سيقت دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان؛ للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان، وترقب الجزاء، والإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول واستعجال وعيد العذاب، وحذروا من حلوله بغتة حين يفوت التدارك، وذكروا بما عهد اللَّه إليهم مما أودعه في الفطرة من الفطنة والاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان، واتباع دعاة الخير، ثم ردّ العجز على الصدر؛ فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترى صادرًا من شاعر بتخييلات الشعراء.

وسلى اللَّه رسوله ﷺ ألا يحزنه قولهم، وأن له باللَّه أسوة؛ إذ خلقهم فعطلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية، ولكنهم راجعون إليه.

فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه، من إثبات الرسالة والوحي، ومعجزة القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء، وإثبات القدر، وعلم اللَّه، والحشر والتوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرع الشريعة، وإثبات الجزاء على الخير والشر، مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب. فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى قلب القرآن[1]؛ لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله، وإلى وَتينها ينصبّ مجراها.

قال الغزالي: إن ذلك لأن الإيمان صحته باعتراف بالحشر، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، كما سميت الفاتحة أم القرآن إذ كانت جامعة لأصول التدبر في أفانينه، كما تكون أم الرأس ملاك التدبر في أمور الجسد»[2].

* * *

(١) ورد فيه حديث رواه الترمذي (٥/ ١٤٩-١٥٠/ ٢٨٨٧) وهو موضوع؛ انظر السلسلة الضعيفة (١/ ٣١٢/ ١٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٤٣-٣٤٤).

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يسٓ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا.

قال ابن القيم: «الصحيح أن ﴿يسٓ ۝١﴾ بمنزلة ﴿حمٓ ۝١﴾ و﴿الٓمٓ ۝١﴾ ليست اسمًا من أسماء النبي ﷺ»[1].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم، ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به منزّل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾[1]»[2].

* * *

(١) الشورى: الآيتان (٥٢و٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٦٣).

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني بهم العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذِكرُهم وحدهم لا ينفي مَنْ عداهم كما زعمه بعض النصارى، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]»[2].

قال ابن عطية: «وهذه الآية؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾[3]، وهذه النذارة المنفية هي نذارة المباشرة والأمر والنهي، وإلا فدعوة الله تعالى من الأرض لم تنقطع قط»[4].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٦٣).

(٣) سبأ: الآية (٤٤).

(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٤٤٦).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لقد حق العقاب على أكثرهم لأن اللَّه قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون باللَّه، ولا يصدقون رسوله»[(١)].

قال الشنقيطي: «الظاهر أن القول في قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾[(٢)]. وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾[(٣)] الآية. وفي قوله تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٤)]. وقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١﴾[(٥)] والكلمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾[(٦)] وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٧)] أن المراد بالقول والكلمة أو الكلمات على قراءة: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بصيغة الجمع، هو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[(٨)] كما دلت على ذلك آيات من كتاب اللَّه تعالى؛ كقوله تعالى في آخر سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾[(٩)] وقوله تعالى في السجدة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾[(١٠)] وقوله تعالى في أخريات ص: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٥٠).
(٢) فصلت: الآية (٢٥).
(٣) القصص: الآية (٦٣).
(٤) يس: الآية (٧٠).
(٥) الصافات: الآية (٣١).
(٦) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٧) الزمر: الآية (٧١).
(٨) هود: الآية (١١٩).
(٩) هود: الآيتان (١١٨و١١٩).
(١٠) السجدة: الآية (١٣).

وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ يدلّ على أن أكثر الناس من أهل جهنم، كما دلّت على ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[3] ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾[4] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾[5]»[6].

* * *

---

(١) ص: الآيتان (٨٤و٨٥).

(٢) هود: الآية (١٧).

(٣) يوسف: الآية (١٠٣).

(٤) الصافات: الآية (٧١).

(٥) الشعراء: الآية (٨).

(٦) أضواء البيان (٦/ ٢٨٦-٢٨٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾

★ غريب الآية:

أغلالا: جمع غُلٍّ بضم الغين، وهو القيد الذي تُشدّ به اليد.

مقمحون: أي رافعو رؤوسهم. وأصل الإقماح: رفع الرأس وغض البصر. يقال: أقمحه الغُلُّ: إذا ترك رأسه مرفوعًا من ضيقه. ومنه: قَمَحَ البعير: إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء. قال بِشرٌ يَصفُ سفينةً ركِبها:

ونحنُ على جوانبها قُعودُ نغضُّ الطرْفَ كالإبل القِماح

سدًا: السد بضم السين وفتحها: الحاجز بين الشيئين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾ قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل اللّه.

وقال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع. ولما كان الغُل مانعا للمغلول من التصرف والتقلب؛ كان الغُل الذي على القلب مانعا من الإيمان. فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب؛ فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟ قيل: لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق؛ ناسب ذكر محلّه، والمراد به القلب؛ كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[١] ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك وهذا في عنقك، ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾[٢] شبّه الإمساك عن

(١) الإسراء: الآية (١٣). (٢) الإسراء: الآية (٢٩).

الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق، ومن هذا قال الفراء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ حبسناهم عن الإنفاق.

قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: (هذا في عنق فلان) أي: لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق. قال أبو علي: هذا مثلَ قولهم: (طوّقتك كذا وقلّدتك كذا) ومنه قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق.

قلت: ومن هذا قولهم: (قلّدت فلانا حكم كذا وكذا) كأنك جعلته طوقا في عنقه، وقد سمى اللّه التكاليف الشاقة أغلالا في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1] فشبهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها.

قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة؛ كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم. وقال ابن قتيبة: هي تحريم اللّه سبحانه عليهم كثيرا مما أطلقه لأمة محمد ﷺ، وجعلها أغلالًا؛ لأن التحريم يمنع كما يقبض الغُل اليد.

وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها، قالوا: لأن الغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد، ولذلك سُمي جَامعةً[2]، وعلى هذا فالمعنى فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم. هذا قول الفراء والزجاج.

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى الأغلال؛ وهذا هو الظاهر، وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي: واصلة وملزوزة[3] إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال الفراء والزجاج: المقمَح هو الغاضّ بصره بعد رفع رأسه.. فإن قيل فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟ قيل: أحسن وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق، واليدُ مجموعة إليها؛ مَنع اليد

(١) الأعراف: الآية (١٥٧).

(٢) أي: من أسماء الغُل الجامعة (القاموس المحيط).

(٣) أي: مشدودة، يقال: لَزّه لزّاً ولززاً ألصقه، وألزه كذلك.

عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضا قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن؛ مَنع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه، لا يستطيع له حركة، ثم أكد هذا المنع والحبس بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال ابن عباس: منعهم من الهدى لما سبق في علمه، والسد الذي جعل من بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سد عليهم طريق الهدى، فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثّلها بأحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم، وضمت أيديهم إليها، وجُعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئا. وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له، ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة؛ وجدت هذا المثل مطابقا له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان، كما حيل بين هذا وبين التصرف. واللَّه المستعان»[1].

قال الشنقيطي: «المراد بالآية الكريمة: الذين سبقت لهم الشقاوة في علم اللَّه المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ صرفهم اللَّه عن الإيمان صرفًا عظيمًا مانعًا من وصوله إليهم؛ لأن من جُعِل في عنقه غُلّ، وصار الغُل إلى ذقنه، حتى صار رأسه مرفوعًا لا يقدر أن يطأطئه، وجُعل أمامه سدّ وخلفه سدّ، وجُعل على بصره الغشاوةُ لا حيلة له في التصرف، ولا في جلب نفع لنفسه، ولا في دفع ضرّ عنهم، فالذين أشقاهم اللَّه بهذه المثابة لا يصل إليهم خير.

وهذا المعنى الذي دّلت عليه هذه الآية من كونه -جل وعلا- يصرف الأشقياء، الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه عن الحق، ويحول بينهم وبينه؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى

(١) شفاء العليل (١/ ٢٤٧-٢٥٠).

(٢) الكهف: الآية (٥٧).

(٣) البقرة: الآية (٧).

(٤) الجاثية: الآية (٢٣).

ﱡٱلسَّمَآءِﱠ[1] وقوله تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾[4] وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾[6] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدمنا أن هذا الطبع والختم على القلوب، وكذلك الأغلال في الأعناق، والسدّ من بين أيديهم ومن خلفهم؛ أنّ جميع تلك الموانع المانعة من الإيمان، ووصول الخير إلى القلوب؛ أنّ اللَّه إنما جعلها عليهم بسبب مسارعتهم لتكذيب الرسل، والتمادي على الكفر، فعاقبهم اللَّه على ذلك بطمس البصائر، والختم على القلوب والطبع عليها، والغشاوة على الأبصار، لأن من شؤم السيئات أن اللَّه -جل وعلا- يعاقب صاحبها عليها بتماديه على الشرّ، والحيلولة بينه وبين الخير، وجزاه اللَّه بذلك على كفره جزاء وفاقًا. والآيات الدالة على ذلك كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[7] فالباء سببية، وفي الآية: تصريح منه تعالى أن سبب ذلك الطبع على قلوبهم هو كفرهم، وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[8] ومعلوم أن الفاء من حروف التعليل: أي فطبع على قلوبهم بسبب كفرهم ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾[10] وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[11] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه.

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٥).
(٢) الأعراف: الآية (١٨٦).
(٣) المائدة: الآية (٤١).
(٤) النحل: الآية (١٠٨).
(٥) هود: الآية (٢٠).
(٦) الكهف: الآية (١٠١).
(٧) النساء: الآية (١٥٥).
(٨) المنافقون: الآية (٣).
(٩) الصف: الآية (٥).
(١٠) الأنعام: الآية (١١٠).
(١١) البقرة: الآية (١٠).

وقد دلّت هذه الآية على أن شؤم السيئات يجرّ صاحبه إلى التمادي في السيئات، ويفهم من مفهوم مخالفة ذلك؛ أن فعل الخير يؤدي إلى التمادي في فعل الخير، وهو كذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن قول من قال من أهل العلم: إن معنى قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ أن المراد بذلك الأغلال التي يعذبون بها في الآخرة كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[٤] خلاف التحقيق، بل المراد بجعل الأغلال في أعناقهم وما ذكر معه في الآية هو صرفهم عن الإيمان والهدى في دار الدنيا»[٥].

* * *

(١) محمد: الآية (١٧).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٩).

(٣) التغابن: الآية (١١).

(٤) غافر: الآيتان (٧١و٧٢).

(٥) أضواء البيان (٦/ ٢٨٨-٢٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به. وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[1]»[2].

وقال السعدي: «وكيف يؤمن من طُبع على قلبه، ورأى الحق باطلا، والباطل حقا؟!»[3].

* * *

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٦٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾ يقول: وخاف الله حين يغيب عن أبصار الناظرين، لا المنافق الذي يستخف بدين الله إذا خلا ويظهر الإيمان في الملأ، ولا المشرك الذي قد طبع الله على قلبه.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ يقول: فبشر يا محمد هذا الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب بمغفرة من الله لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ يقول: وثواب منه له في الآخرة كريم، وذلك أن يعطيه على عمله ذلك الجنة»[1].

قال ابن كثير: «أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾ أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: كبير واسع، حسن جميل، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[2]»[3].

وقال السعدي: «﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: من قصده اتباع الحق وما ذكر به، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٥٣).
(٢) الملك: الآية (١٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٦٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب مَنْ يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾[(1)]»[(2)].

قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

قال الزمخشري: «﴿وَنَكْتُبُ مَا﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها، وما هلكوا عنه من أثر حسن، كعلم علّموه، أو كتاب صنّفوه، أو حبيس حبَسوه، أو بناء بنوه: من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك.

أو سيىء كوظيفة وظّفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدث فيها تخسيرهم، وشيء أُحدث فيه صدٌّ عن ذكر الله: من ألحان وملاهٍ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾[(3)] أي: قدّم من أعماله، وأخّر من آثاره»[(4)].

قال ابن كثير: «وفي قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضًا؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كقوله ﷺ: **«من سنّ في الإسلام سنة حسنة؛ كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن**

---

(١) الحديد: الآية (١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٦٥).

(٣) القيامة: الآية (١٣).

(٤) الكشاف (٣/ ٣١٦-٣١٧).

في الإسلام سنة سيئة؛ كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[١]. .

القول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. . وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى؛ فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب؛ فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شرّ بطريق الأولى. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب. . وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾[٢] أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[٤]»[٥].

قال ابن القيم: «فجمع بين الكتابين: الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم. والكتاب المقارن لأعمالهم؛ فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها على ذلك قال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ ما سَنّوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: آثارهم ما أثروا من خير أو شر؛ كقوله ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

فإن قلت: قد استفيد هذا من قوله: ﴿قَدَّمُوا۟﴾ فما أفاد قوله ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ على قوله؟ قلت: أفاد فائدة جليلة؛ وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم؛ فيكون المتولّد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩) ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧) والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣) وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣) من حديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ.

(٢) الإسراء: الآية (٧١).

(٣) الزمر: الآية (٦٩).

(٤) الكهف: الآية (٤٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٦٥-٥٦٨).

فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولِّدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلا أراد التمثيل والبيان؛ على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها؛ تقريبا وتمثيلا، لا حصرا وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سَلِمة، أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة، فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري (ثم ذكر قصة بني سَلِمة) ثم قال: وفي هذا القول نظر؛ فإن سورة يس مكية، وقصة بني سلمة بالمدينة، إلا أن يقال: هذه الآية وحدها مدنية.

وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها، وذُكروا بها عندها إما من النبي ﷺ وإما من جبريل، فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك: نزلت مرتين.

والمقصود أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم، قال عمر بن الخطاب: (لو كان الله سبحانه تاركا لابن آدم شيئا؛ لترك ما عفت عليه الرياح من أثر)، وقال مسروق: (ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة).

والمقصود أن قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها، وحفظها لها، والإحاطة بعددها، وإثباتها فيه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الخُطى إلى المساجد من الآثار التي يكتبها الله تعالى

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يا بني سَلِمة ألا تحتسبون آثاركم؟!**».

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قال: خطاهم[٢].

(١) شفاء العليل (١/ ١١٦-١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٦)، والبخاري (٢/ ١٧٧/ ٦٥٥).

* عن أنس رضي الله عنه أن بني سَلِمة أرادوا أن يتحوّلوا عن منازلهم فينزلوا قريبًا من النبي ﷺ، قال: فكره رسول اللَّه ﷺ أن يُعْروا المدينة فقال: «**ألا تحتسبون آثاركم؟!**». قال مجاهد: خُطاهم: آثارُهم، أن يُمْشَى في الأرض بأرجلهم[(1)].

★ غريب الحديثين:

بني سَلِمة: بكسر اللام: قبيلة من الأنصار وليس في العرب قبيلة بكسر اللام غيرهم.

أن يُعْروا المدينة: أن يتركوها خالية.

ألا تحتسبون: المعنى: ألا تعدّون خطاكم عند مشيكم إلى المسجد، فإن لكل خطوة ثوابًا، والاحتساب وإن كان أصله العدّ لكنه يستعمل غالبًا في معنى طلب تحصيل الثواب بنية خالصة.

* عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رجل لا أعلم رجلًا أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه صلاة، قال: فقيل له: أو قلت له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء. قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يُكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**قد جمع اللَّه لك ذلك كله**»[(2)].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن العربي: «يدخل في الآية أثر القدم في الأرض عند نقله إلى المسجد، وغيره من الأفعال الصالحة بمطلق لفظه، وبهذا صار صاحب الدار البعيدة أكثر أجرًا من صاحب الدار القريبة، إذ صح في الحديث أنه «**لا يخطو خطوة إلا كتب اللَّه له بها حسنة، ومحا عنه بها سيئة، ورفعه بها درجة**»[(3)]»[(4)].

---

(1) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦٣)، والبخاري (٢/ ١٧٧/ ٦٥٦)، وابن ماجه (١/ ٢٥٨/ ٧٨٤).

(2) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٣)، ومسلم (١/ ٤٦٠-٤٦١/ ٦٦٣)، وأبو داود (١/ ٣٧٧/ ٥٥٧)، وابن ماجه (١/ ٢٥٧/ ٧٨٣).

(3) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٢) والبخاري (١/ ٧٤٢/ ٤٧٧) ومسلم (١/ ٤٥٩/ ٦٤٩) وأبو داود (١/ ٣٧٨/ ٥٥٩) وابن ماجه (١/ ١٠٣/ ٢٨١) من حديث أبي هريرة.

(4) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٠٧).

وقال ابن بطال: «قوله: «**ألا تحتسبون آثاركم؟**» إنما قال لهم ذلك لأنهم كانوا على بُعد من مسجده ﷺ، فأرادوا أن يتحولوا بقرب المسجد، فكره النبي ﷺ أن يعري المدينة.

قال المهلب: فحضّهم على البقاء واحتساب الآثار، واستشعارهم النية والإخلاص لله تعالى في مشيهم، ودخل في معنى ذلك كل ما يصنع لله تعالى من قليل أو كثير، أن يراد به وجهه تعالى ويخلص له فيه، وهو الذي يزكو ثوابه وأجره.
وقال ابن عباس: في الأنصار نزلت، حين أرادوا أن ينتقلوا: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أعمالهم ﴿وَآثَارَهُمْ﴾: فيما مشوا أبعدهم مكانًا.

قال الطبري: وفيه من الفقه صحة قول القائل: تَفضُل المقاربة بين الخطا في المشي إلى الصلاة على الإسراع إليها، وذلك أن ابن عباس ذكر أن قول الله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نزلت إعلامًا من اللّه تعالى نبيه أنه يكتب خطا المشّائين إلى الصلاة، ويوجب لهم ثوابًا؛ حضًّا منه تعالى للذين أرادوا النُّقْلة إلى قرب مسجده على الثبات في مواضعهم، وإن نَأَت، وترغيبًا لهم في احتساب خطاهم، ومشيهم إلى الصلاة، وقد روي عن الرسول ﷺ أن من بعد من المسجد أفضل[1]»[2].

قال الحافظ: «وفي الحديث أن أعمال البر إذا كانت خالصة تكتب آثارها حسنات. وفيه استحباب السكنى بقرب المسجد إلا لمن حصلت به منفعة أخرى، أو أراد تكثير الأجر بكثرة المشي ما لم يحمل على نفسه، ووجهه أنهم طلبوا السكنى بقرب المسجد للفضل الذي علموه منه، فما أنكر عليهم النبي ﷺ ذلك، بل رجح درء المفسدة بإخلائهم جوانب المدينة على المصلحة المذكورة، وأعلمهم بأن لهم في التردد إلى المسجد من الفضل ما يقوم مقام السكنى بقرب المسجد أو يزيد عليه.

واختلف فيمن كانت داره قريبة من المسجد فقارب الخطا بحيث تساوي خطا مَن دارُه بعيدة، هل يساويه في الفضل أو لا؟ وإلى المساواة جنح الطبري، وروى

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٧٤/ ٦٥١) ومسلم (١/ ٤٦٠/ ٦٦٢) من حديث أبي موسى مرفوعا، ولفظه: «أعظم الناس أجراً في الصلاة؛ أبعدهم فأبعدهم ممشىً..».

(٢) شرح ابن بطال (٢/ ٢٨١-٢٨٢).

ابن أبي شيبة من طريق أنس قال: مشيت مع زيد بن ثابت إلى المسجد فقارب بين الخطا، وقال: (أردت أن تَكثر خطانا إلى المسجد) وهذا لا يلزم منه المساواة في الفضل، وإن دل على أن في كثرة الخطا فضيلة؛ لأن ثواب الخطا الشاقة ليس كثواب الخطا السهلة، وهو ظاهر حديث أبي موسى[1]. . حيث جعل أبعدهم ممشىً أعظمَهم أجرًا، واستنبط منه بعضهم استحباب قصد المسجد البعيد ولو كان بجنبه مسجد قريب، وإنما يتم ذلك إذا لم يلزم من ذهابه إلى البعيد هجر القريب، وإلا فإحياؤه بذكر اللَّه أولى، وكذا إذا كان في البعيد مانع من الكمال كأن يكون إمامه مبتدعا»[2].

* * *

(١) تقدم مع تخريجه في كلام ابن بطال.

(٢) فتح الباري (٢/ ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

عززنا: قَوَّيْنا. يقال: عَزَّزْتُهُ وعَزَزْتُهُ: قَوَّيْتُه وشددت أَزْرَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومثِّل يا محمد لمشركي قومك مثلا أصحاب القرية، ذُكر أنها أنطاكية اختلف أهل العلم في هؤلاء الرسل، وفيمن كان أرسلهم إلى أصحاب القرية؛ فقال بعضهم: كانوا رسل عيسى ابن مريم، وعيسى الذي أرسلهم إليهم. .

وقال آخرون: بل كانوا رسلًا أرسلهم اللَّه إليهم. . وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: حين أرسلنا إليهم اثنين يدعوانهم إلى اللَّه فكذبوهما فشددناهما بثالث، وقويناهما به. . وقوله: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ يقول: فقال المرسلون الثلاثة لأصحاب القرية: إنَّا إليكم أيها القوم مرسلون، بأن تُخْلِصوا العبادة للَّه وحده لا شريك له، وتتبرءوا مما تعبدون من الآلهة والأصنام»[1].

وقال ابن عطية: «ذكر النقاش في قصص هذه الآية شيئا يطول، والصحة فيه غير متيقنة فاختصرته، واللازم من الآية أن اللَّه تعالى بعث إليها رسولين، فدعيا أهل القرية إلى عبادة اللَّه تعالى وحده، وإلى الهدى والإيمان فكذبوهما، فشدد اللَّه تعالى أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية، وآمن منهم الرجل الذي جاء يسعى، وقتلوه في آخر أمره، وكفروا فأصابتهم صيحة من السماء فخَمَدوا»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٥٥-١٥٦). (٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال أصحاب القرية للثلاثة الذين أرسلوا إليهم، حين أخبروهم أنهم أرسلوا إليهم بما أرسلوا به: ما أنتم أيها القوم إلا أُناس مثلنا، ولو كنتم رسلا كما تقولون، لكنتم ملائكة ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ يقول: قالوا: وما أنزل الرحمن إليكم من رسالة ولا كتاب، ولا أمركم فينا بشيء ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ في قيلكم: إنكم إلينا مرسلون. ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ يقول: قال الرسل: ربنا يعلم إنَّا إليكم لمرسلون فيما دعوناكم إليه، وإنَّا لصادقون. ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ يقول: وما علينا إلا أن نبلغكم رسالة اللَّه التي أرسلنا بها إليكم، بلاغًا يبين لكم أنَّا أبلغناكموها، فإن قبلتموها؛ فحظَّ أنفسكم تصيبون، وإن لم تقبلوها فقد أدينا ما علينا، واللَّه وليّ الحكم فيه»[١].

قال ابن كثير: «﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلِم لا أوحيَ إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة. وهذه شُبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر اللَّه تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾[٢]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[٣]. وقوله حكاية عنهم في قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٤] ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾﴾[٥]. ولهذا قال

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) التغابن: الآية (٦).

(٣) إبراهيم: الآية (١٠).

(٤) المؤمنون: الآية (٣٤).

(٥) الإسراء: الآية (٩٤).

هؤلاء: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝﴾ أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: اللَّه يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١]»[٢].

وقال أبو حيان: «وهؤلاء أمة أنكرت النبوات بقولها: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾، وراجعتهم الرسل بأن ردوا العلم إلى اللَّه وقنعوا بعلمه، وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط، وما عليهم من هداهم وضلالهم، وفي هذا وعيد لهم. ووصف البلاغ بالمبين، وهو الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال»[٣].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٦٩).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾

★ غريب الآية:

تطيرنا: التطير: التشاؤم، وأصله من زجر الطير، إن أخذ يمينًا تفاءلوا، وإن أخذ شمالا تشاءموا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال أصحاب القرية للرسل ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ يعنون: إنَّا تشاءمنا بكم، فإن أصابنا بلاء فمن أجلكم»(١).

قال ابن عطية: «والأظهر أن تطير هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وهذا على نحو تطير قريش بمحمد ﷺ، وعلى نحو ما خوطب به موسى»(٢).

وقال الزمخشري: «وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منهم نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقَبِلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء؛ قالوا: ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى اللَّه عن القبط: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾. وعن مشركي مكة: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾(٣)»(٤).

قال ابن القيم: «ولم يحكِ اللَّه التطير إلا عن أعداء الرسل، كما قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾، وكذلك حكى اللَّه سبحانه عن قوم فرعون فقال:

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٥٧).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٤٩).
(٣) النساء: الآية (٧٨).
(٤) الكشاف (٣/ ٣١٨).

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾(١)، حتى إذا أصابهم الخَصب والسعة والعافية؛ قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجديرون الحقيقيون به، ونحن أهله، وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوُه؛ قالوا: هذه بسبب موسى وأصحابه، أُصبنا بشؤمهم، ونُفض علينا غبارُهم، كما يقوله المتطيِّر لمن تطيَّر به؛ فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، كما قال تعالى عن أعداء رسوله ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾(٢).

فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطيّر عن أعدائه، وأجاب سبحانه عن تطيّرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند اللّه، لا بسبب موسى، وأجاب عن تطيّر أعداء رسول اللّه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾(٣) وأجاب عن الرسل بقوله: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾»(٤).

قوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قالت الرسل لأصحاب القرية ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ يقولون: أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم، ذلك كله في أعناقكم، وما ذلك من شؤمنا، إن أصابكم سوء فبما كتب عليكم، وسبق لكم من اللّه.. وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ يقول: قالوا لهم: ما بكم التطير بنا، ولكنكم قوم أهل معاص لله وآثام، قد غلبت عليكم الذنوب والآثام»(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفي الطيرة

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَر**»(٦).

---

(١) الأعراف: الآية (١٣١).
(٢) النساء: الآية (٧٨).
(٣) النساء: الآية (٧٨).
(٤) مفتاح دار السعادة (٣/ ٢٧٣-٢٧٤).
(٥) جامع البيان (٢٢/ ١٥٧).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (١٠/ ٢٦٥/ ٥٧٥٧)، ومسلم (٤/ ١٧٤٤/ ٢٢٢٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٦/ ٧٥٩٢).

★ **غريب الحديث:**

الطيرة: بكسر المهملة وفتح التحتانية وقد تسكن، وهي اسم مصدر كالخيرة؛ ولا ثالث لهما وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور.

★ **من فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «أصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيّج الطير ليطير فيعتمدها، فجاء الشرع بالنهي عن ذلك، وكانوا يسمونه السانح بمهملة ثم نون ثم حاء مهملة، والبارح بموحدة وآخره مهملة، فالسانح ما ولّاك ميامنه بأن يمرّ عن يسارك إلى يمينك، والبارح بالعكس. وكانوا يتيمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح؛ لأنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه، وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضي ما اعتقدوه، وإنما هو تكلف بتعاطي ما لا أصل له، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنىً فيه، وطلبُ العلم من غير مظانه جهل من فاعله، وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه؛ قال شاعر منهم:

ولقد غدوتُ وكنتُ لا ... أغدو على واقٍ وحاتم[1]
فإذا الأشائم كالأيا ... مِنِ والأيامنُ كالأشائم

وقال آخر:

الزجرُ والطيرُ والكهانُ كلُّهم ... مُضلِّلون ودون الغيبِ أقْفال

وقال آخر:

ومَا عاجِلاتُ الطير تُدني مِن الفتى ... نجاحًا ولا عن رَيثِهنّ قُصُور

وقال آخر:

لعمرك ما تدري الطوارقُ بالحصى ... ولا زاجراتُ الطير ما اللّه صانع

(١) يعني بالواق الصرد وبالحاتم الغراب سموه حاتما لأنه كان عندهم يحتم بالفراق.

. . وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك، ويصحّ معهم غالبا لتزيين الشيطان ذلك، وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين»[١].

قال القرطبي: «وحاصل الطيرة أن يسمع الإنسان قولًا أو يرى أمرًا يخاف منه أن لا يحصل له غرضه الذي قصد تحصيله»[٢].

قوله ﷺ: «**لا طيرة**. . »؛ قال ابن القيم: «وهذا يحتمل أن يكون نفيًا، وأن يكون نهيًا، أي: لا تطيَّروا، ولكن قوله في الحديث: «**ولا عدوى ولا صفر ولا هامة**» يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه»[٣].

وقال أيضًا: «فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبيّن لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن اللَّه سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه، لتطمئن قلوبهم، ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمّر الدارين الجنة والنار. فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه، والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته، فقطع ﷺ عَلَقَ الشرك من قلوبهم لئلاّ يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبّسوا بعمل من أعمال أهله البتة»[٤].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**» ثلاثا. (وما منا إلا، ولكن اللَّه يُذهبه بالتوكل)[٥].

★ من فوائد الحديث:

قال في تيسير العزيز الحميد: «فقوله «**الطيرة شرك**» صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير اللَّه.

---

(١) الفتح (١٠/ ٢٦١-٢٦٢).
(٢) المفهم (٥/ ٦٢٦).
(٣) مفتاح دار السعادة (٣/ ٢٨٠).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٨١-٢٨٢).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٨) وأبو داود (٤/ ٢٣٠/ ٣٩١٠) والترمذي (٤/ ١٣٧-١٣٨/ ١٦١٤) وصححه، وابن ماجه (٢/ ١١٧٠/ ٣٥٣٨)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ٤٩١/ ٦١٢٢) والحاكم (١/ ١٨) ووافقه الذهبي.

وقال ابن حمدان في (الرعاية): تكره الطيرة، وكذا قال غير واحد من أصحاب أحمد. قال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها. ولعل مرادهم بالكراهة التحريم، قلت: بل الصواب القطع بتحريمها؛ لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروها الكراهة الاصطلاحية؟! فإن كان القائل بكراهتها أراد ذلك فلا ريب في بطلانه»[١].

قال ابن القيم: «إن التطير شرك، ولا يصده ما سمع عن مقصده وحاجته، بل يتوكل على اللَّه ويثق به، ويدفع شر التطير عنه بالتوكل، وفي الصحيحين[٢] عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**الطيرة شرك**» (وما منا إلا، ولكن اللَّه يذهبه بالتوكل) وهذه الزيادة، وهي قوله: (وما منا إلا -يعني من يعتريه- ولكن اللَّه يذهبها بالتوكل)؛ مدرَجة في الحديث من قول ابن مسعود، وجاء ذلك مبينا[٣].

ومن له يقظة يرى ويسمع من ذلك عجائب، وهي من إلقاء الملَك تارة على لسان الناطق، وتارة من إلقاء الشيطان، فالإلقاء الملكي تبشير وتحذير وإنذار، والإلقاء الشيطاني تحزين وتخويف وشرك، وصدّ عن المطالب، وصاحب الهمة والعزيمة لا يتقيد بذلك، ولا يصرف إليه همته، وإذا سمع ما يسُرّه استبشر وقوي رجاؤه، وحسن ظنه، وحمد اللَّه وسأله إتمامه، واستعان به على حصوله. وإذا سمع ما يسوؤه استعاذ باللَّه، ووثق به، وتوكل عليه، ولجأ إليه، والتجأ إلى التوحيد»[٤].

قال الحافظ: «وقوله: (وما منا إلا) من كلام ابن مسعود، أُدرج في الخبر، وقد بيّنه سليمان بن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري عنه، وإنما جعل ذلك شركا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعا أو يدفع ضرا، فكأنهم أشركوه مع اللَّه تعالى. وقوله: (ولكن اللَّه يذهبه بالتوكل) إشارة إلى أن من وقع له فسلّم لله ولم يعبأ بالطيرة؛ أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك»[٥].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**»، قالوا:

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٤٦).

(٢) ليس في الصحيحين انظر حديث الباب.

(٣) قال الشيخ الألباني: «يعني أن هذا القدر من الحديث مدرج.. فالحديث صحيح بكامله». الصحيحة (١/ ٧٩٢).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٢).

(٥) الفتح (١٠/ ٢٦٢).

وما الفأل يا رسول الله؟ قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[١].

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة**»[٢].

★ من فوائد الحديثين:

قال ابن الأثير: «الفأل مهموز فيما يسُرّ ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسُرّ، يقال: تفألت بكذا، وتفاءلت على التخفيف والقلب، وقد أولع الناس بترك همزه تخفيفا.

وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أمّلوا فائدة اللَّه تعالى ورجَوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي؛ فهم على خير، ولو غلطوا في جهة الرجاء؛ فإن الرجاء لهم خير. وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من اللَّه كان ذلك من الشر. وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن باللَّه وتوقع البلاء.

ومعنى التفاؤل مثل أن يكون رجل مريض فيتفاءل بما يسمع من كلام، فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد؛ فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه، ويجد ضالته»[٣].

قال الحافظ: «قال النووي: الفأل يستعمل فيما يسوء وفيما يسرّ، وأكثره في السرور، والطيرة لا تكون إلا في الشّؤم، وقد تستعمل مجازًا في السرور. وكأن ذلك بحسب الواقع، وأما الشرع فخص الطيرة بما يسوء، والفأل بما يسر، ومن شرطه أن لا يقصد إليه، فيصير من الطيرة. قال ابن بطال: جعل اللَّه في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة، والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق، والماء الصافي، وإن كان لا يملكه ولا يشربه. وأخرج الترمذي وصححه من حديث أنس أن النبي ﷺ «**كان إذا خرج لحاجته؛ يعجبه أن يسمع: يا نجيح! يا راشد!**»[٤]

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٨)، والبخاري (١٠/ ٢٦٣/ ٥٧٥٦)، ومسلم (٣/ ١٧٤٦/ ٢٢٢٤)، وابن ماجه (٢/ ١١٧٠/ ٣٥٣٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٨)، البخاري (١٠/ ٢٦٣/ ٥٧٥٦)، مسلم (٤/ ١٤٤٦-١٤٤٧/ ٢٢٢٤)، ابن ماجه (٢/ ١١٧٠/ ٣٥٣٧).

(٣) النهاية (٣/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٤) أخرجه: الترمذي (٤/ ١٣٨/ ١٦١٦) وقال: «حسن صحيح» وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٧٨).

وأخرج أبو داود بسند حسن عن بريدة أن النبي ﷺ «**كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملًا يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رئي كراهة ذلك في وجهه**»[١].

وذكر البيهقي في الشعب عن الحليمي ما ملخصه: «كان التطير في الجاهلية في العرب إزعاج الطير عند إرادة الخروج للحاجة. فذكر نحو ما تقدم، ثم قال: وهكذا كانوا يتطيرون بصوت الغراب، وبمرور الظباء، فسمّوا الكل تطيرًا؛ لأن أصله الأول. قال: وكان التشاؤم في العجم؛ إذا رأى الصبي ذاهبا إلى المعلم تشاءم، أو راجعا تيمّن، وكذا إذا رأى الجمل مُوقِرا حِملًا تشاءم، فإن رآه واضعا حمله تيمن، ونحو ذلك. فجاء الشرع برفع ذلك كله. . وذلك إذا اعتقد أن الذي يشاهده من حال الطير موجبا ما ظنه ولم يضف التدبير إلى اللّه تعالى، فأما إن علم أن اللّه هو المدبر، ولكنه أشفق من الشر، لأن التجارب قضت بأن صوتا من أصواتها معلوما، أو حالا من أحوالها معلومة، يردفها مكروه؛ فإن وطن نفسه على ذلك أساء، وإن سأل اللّه الخير واستعاذ به من الشر، ومضى متوكلا لم يضره ما وجد في نفسه من ذلك، وإلا فيؤاخذ به، وربما وقع به ذلك المكروه بعينه الذي اعتقده عقوبة له، كما كان يقع كثيرا لأهل الجاهلية واللّه أعلم.

قال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفال؛ لأن التشاؤم سوء ظن باللّه تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن باللّه تعالى على كل حال.

وقال الطيبي: معنى الترخص في الفأل والمنع من الطيرة؛ هو أن الشخص لو رأى شيئا فظنه حسنًا محرّضا على طلب حاجته فليفعل ذلك. وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله. فلو قبل وانتهى عن المضي؛ فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم. واللّه أعلم»[٢].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والفرق بينهما (أي: الفأل والتطير) أن الفأل الحسن

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٧-٣٤٨) وأبو داود (٤/ ٢٣٦/ ٣٩٢٠) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٥٤/ ٨٨٢٢) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ١٤٢/ ٥٨٢٧).

(٢) الفتح (١٠/ ٢٦٤).

لا يُخلّ بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير اللَّه، بل فيه من المصلحة النشاط والسرور، وتقوية النفوس على المطالب النافعة. وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة، ثم يرى في تلك الحال ما يسره أو يسمع كلاما يسره مثل: يا راشد، أو سالم، أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه، فهذا كلُّه خير وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء. وأما الطيرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا؛ فيرى أو يسمع ما يكره أثّر في قلبه أحد الأمرين، أحدهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازما على فعله أو بالعكس، فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازما عليه، فهذا كما ترى قد علّق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق، وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثّر على إيمانه، وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين، وتعلقه بالأسباب، وبأمور ليست أسبابا، وانقطاع قلبه من تعلقه باللَّه، وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزنا وهمّا وغمّا، فهذا وإن كان دون الأول؛ لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله. وربما أصابه مكروه، فظن أنه من ذلك الأمر، فقوي تطيّرُه، وربما تدرج به إلى الأمر الأول.

فهذا تفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل.

وينبغي لمن وجد شيئا من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها، ويستعين اللَّه على ذلك، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «وليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما يلائمها

(١) القول السديد (١٤٥-١٤٧).

ويوافقها مما ينفعها . . والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم السلام، والفلاح، والنجاح، والتهنئة، والبشرى، والفوز، والظفر، والغُنم، والربح، والطَّيّب، ونيل الأمنية، والفرح، والغوث، والعزّ، والغنى، وأمثالها، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفس، وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب. وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضدَّ هذه الحال، فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفا وطيرة، وانكماشا وانقباضا عما قصدت له وعزمت عليه، فأَورَث لها ذلك ضررا في الدنيا، ونقصا في الإيمان، ومقارفة للشرك»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنما الشؤم في ثلاثة: في الفرس، والمرأة، والدار**»[٢].

★ من فوائد الحديث:

قال ابن القيم رحمه الله: «قد اختلف الناس في هذا الحديث، وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تنكر أن يكون من كلام النبي ﷺ، وتقول إنما حكاه رسول الله ﷺ عن أهل الجاهلية وأقوالهم. . .

والمقصود أن عائشة رضي الله عنها ردّت هذا الحديث وأنكرته وخطأت قائله، ولكن قول عائشة هذا مرجوح، ولها رضي الله عنها اجتهاد في رد بعض الأحاديث الصحيحة، خالفها فيه غيرها من الصحابة، وهي رضي الله عنها لما ظنت أن هذا الحديث يقتضي إثبات الطيرة التي هي من الشرك؛ لم يَسَعها غير تكذيبه وردّه، ولكن الذين رووه؛ ممن لا يمكن رد روايتهم، ولم ينفرد بهذا أبو هريرة وحده، ولو انفرد به فهو حافظ الأمة على الإطلاق، وكل ما رواه عن النبي ﷺ فهو صحيح، بل قد رواه عن النبي ﷺ عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وسهل بن سعد الساعدي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأحاديثهم في الصحيح. فالحق أن الواجب بيان معنى الحديث

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٣) والبخاري (٦/ ٧٥/ ٢٨٥٨) ومسلم (٤/ ١٧٤٦-١٧٤٧/ ٢٢٢٥) وأبو داود (٤/ ٢٣٧/ ٣٩٢٢) والترمذي (٥/ ١١٦/ ٢٨٢٤) والنسائي (٦/ ٥٢٩/ ٣٥٧١).

ومباينته للطيرة الشركية، فنقول وباللَّه التوفيق:

هذا الحديث قد روي على وجهين: أحدهما بالجزم، والثاني بالشرط:

(فالأول): «**الشؤم في الدار والمرأة والفرس**».

(والثاني): «**إن كان ففي المرأة والفرس والمسكن**»[1]، يعني الشؤم..

قالت طائفة أخرى: لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة، بل علّقه على الشرط، فقال: «**إن يكن الشؤم في شيء**» ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من مفرديها، فقد يصدق التلازم بين المستحيلين. قالوا: ولعل الوهم وقع من ذلك، وهو أن الراوي غلط وقال: «**الشؤم في ثلاثة**» وإنما الحديث: «**إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة**». قالوا: وقد اختلف على ابن عمر، والروايتان صحيحتان عنه. قالوا: وبهذا يزول الإشكال ويتبين وجه الصواب.

وقالت طائفة أخرى: إضافة رسول اللَّه ﷺ الشؤم إلى هذه الثلاثة مجاز واتساع، أي: قد يحصل مقارِنا لها وعندها، لا أنها هي أنفسها مما يوجب الشؤم. قالوا: وقد يكون الدار قد قضى اللَّه ﷻ عليها أن يميت فيها خلقا من عباده، كما يقدّر ذلك في البلد الذي ينزل الطاعون به، وفي المكان الذي يكثر الوباء به، فيضاف ذلك إلى المكان مجازًا، واللَّه خلقه عنده وقدره فيه، كما يخلق الموت عند قتل القاتل، والشِّبع والرّي عند أكل الآكل وشرب الشارب، فالدار التي يهلك بها أكثر ساكنيها توصف بالشؤم؛ لأن اللَّه ﷻ قد خصها بكثرة من قبض فيها، فمن كتب اللَّه عليه الموت في تلك الدار حسّن إليه سكناها، وحركه إليها حتى يقبض روحه في المكان الذي كتب له، كما ساق الرجل من بلد إلى بلد للأثر والبقعة التي قضى أن يكون مدفنه فيها. قالوا: وكذلك ما يوصف من طول أعمار بعض أهل البلدان، ليس ذلك من أجل صحة هواء، ولا طيب تربة، ولا طبع يزداد به الأجل، وينقص بفواته، ولكن اللَّه سبحانه قد خلق ذلك المكان، وقضى أن يسكنه أطول خلقه أعمارا، فيسوقهم إليه، ويجمعهم فيه، ويحببه إليهم. قالوا: وإذا كان هذا على ما وصفنا في الدور والبقاع؛ جاز مثله في النساء والخيل، فتكون المرأة قد قدر

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٥)، البخاري (٦/ ٧٥/ ٢٨٥٩)، مسلم (٤/ ١٧٤٨/ ٢٢٢٦).

اللَّه عليها أن تتزوج عددًا من الرجال ويموتون معها، فلا بد من إنفاذ قضائه وقدره، حتى إن الرجل ليقدُم عليها من بعد علمه بكثرة من مات عنها؛ لوجه من الطمع يقوده إليها حتى يتم قضاؤه وقدره، فتوصف المرأة بالشؤم لذلك، وكذلك الفرس؛ وإن لم يكن لشيء من ذلك فعل ولا تأثير..

وقالت طائفة أخرى: شؤم الدار مجاورة جار السوء، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها في سبيل اللَّه، وشؤم المرأة أن لا تلد وتكون سيئة الخلق.

وقالت طائفة أخرى منهم الخطابي: هذا مستثنى من الطيرة، أي: الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دارٌ يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس أو خادم، فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه، ولا يقيم على الكراهة والتأذي به؛ فإنه شؤم..

وقالت طائفة أخرى: الشؤم في هذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها وتطير بها، فيكون شؤمها عليه، ومن توكل على اللَّه ولم يتشاءم ولم يتطير؛ لم تكن مشؤومة عليه. قالوا: ويدل عليه حديث أنس: «**الطيرة على من تطير**»[1] وقد يجعل اللَّه سبحانه تطير العبد وتشاؤمه سببًا لحلول المكروه به، كما يجعل الثقة والتوكل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتطير به، وسرّ هذا أن الطيرة إنما تتضمن الشرك باللَّه تعالى، والخوف من غيره، وعدم التوكل عليه والثقة به؛ كان صاحبها غرضا لسهام الشرّ والبلاء، فيتسرع نفوذها فيه؛ لأنه لم يتدرع من التوحيد والتوكل بِجُنة واقية، وكل من خاف شيئا غير اللَّه سُلّط عليه، كما أن من أحب مع اللَّه غيره عُذب به، ومن رجا مع اللَّه غيره خُذل من جهته، وهذه أمور تَجربتُها تكفي عن أدلتها، والنفس لا بد أن تتطير، ولكن المؤمن القوي الإيمان؛ يدفع موجب تطيره بالتوكل على الله؛ فإن من توكل على اللَّه وحده كفاه من غيره، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ

(١) أخرجه: ابن حبان (١٣/ ٤٩٢/ ٦١٢٣) والطحاوي في شرح المعاني (٤/ ٣١٤). قال الحافظ في الفتح (٦/ ٧٨): «وفي صحته نظر؛ لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيد اللَّه بن أبي بكر عن أنس. وعتبة مختلف فيه».

هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾(١)، ولهذا قال ابن مسعود: (وما منا إلا -يعني من يقارب التطير- ولكن اللَّه يذهبه بالتوكل).. قالوا: فالشؤم الذي في الدار والمرأة والفرس؛ قد يكون مخصوصا بمن تشاءم بها وتطير، وأما من توكل على اللَّه وخافه وحده، ولم يتطير ولم يتشاءم؛ فإن الفرس والمرأة والدار لا يكون شؤما في حقه.

وقالت طائفة أخرى: معنى الحديث إخباره ﷺ عن الأسباب المثيرة للطيرة الكامنة في الغرائز، يعني أن المثير للطيرة في غرائز الناس هي هذه الثلاثة، فأخبرنا بهذا لنأخذ الحذر منها، فقال: «**الشؤم في الدار والمرأة والفرس**» أي: أن الحوادث التي تكثر مع هذه الأشياء، والمصائب التي تتوالى عندها؛ تدعو الناس إلى التشاؤم بها، فقال: الشؤم فيها، أي أن اللَّه قد يقدره فيها على قوم دون قوم، فخاطبهم ﷺ بذلك لِما استقر عندهم منه ﷺ من إبطال الطيرة، وإنكار العدوى، ولذلك لم يستفهموا في ذلك عن معنى ما أراده ﷺ..

فمن اعتقد أن رسول اللَّه ﷺ نسب الطيرة والشؤم إلى شيء من الأشياء على سبيل أنه مؤثر بذلك دون الله؛ فقد أعظم الفرية على اللَّه وعلى رسوله، وضل ضلالا بعيدًا، والنبي ﷺ ابتدأهم بنفي الطيرة والعدوى ثم قال: «**الشؤم في ثلاث**» قطعًا لتوهّم الطيرة المنفية في الثلاثة التي أخبر أن الشؤم يكون فيها..

وبالجملة فإخباره ﷺ بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة؛ ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها، وإنما غايته أن اللَّه سبحانه قد يخلق منها أعيانا مشؤومة على مَن قاربها وسكنها، وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شرّ، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركا يَرَيان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدا مشؤوما نَذْلا يَريان الشرّ على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، واللَّه سبحانه خالق الخير والشر، والسُّعود والنُّحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سُعودا مباركة، ويقضي بسعادة من قارنها، وحصول اليمن له والبركة. ويخلق بعض ذلك نحوسا يتنحس بها من قارنها، وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب، وربطها بمسبّباتها المتضادة والمختلفة،

---

(١) النحل: الآيات (٩٨-١٠٠).

فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة، ولذّذ بها من قارنها من الناس، وخلق ضدها، وجعلها سببا لإيذاء من قارنها من الناس، والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون، والطيرة الشركية لون آخر»[1].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٣٣-٣٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وجاء من أقصا مدينة هؤلاء القوم الذين أرسلت إليهم هذه الرسل رجل يسعى إليهم؛ وذلك أن أهل المدينة هذه عزموا، واجتمعت آراؤهم على قتل هؤلاء الرسل الثلاثة فيما ذكر، فبلغ ذلك هذا الرجل، وكان منزله أقصى المدينة، وكان مؤمنًا، وكان اسمه فيما ذكر حبيب بن مرّي. . وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال الرجل الذي جاء من أقصى المدينة لقومه: يا قوم اتبعوا المرسلين الذين أرسلهم اللّه إليكم، واقبلوا منهم ما أتوكم به.

وذُكر أنه لما أتى الرسل سألهم: هل يطلبون على ما جاءوا به أجرًا؟ فقالت الرسل: لا، فقال لقومه حينئذٍ: اتبعوا من لا يسألكم على نصيحتهم لكم أجرًا. . وقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يقول: وهم على استقامة من طريق الحق، فاهتَدوا أيها القوم بهداهم»[1].

قال ابن القيم: «فنبه على موجب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولا لمن لا ينبغي أن يخالَف ولا يُعصى، وأنه على هداية، ونبه على انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر، فلا يريد منكم دنيا ولا رياسة، فموجب الاتباع كونه مهتديا، والمانع منه منتفٍ، وهو طلب العلو في الأرض والفساد، وطلب الأجر»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٥٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٤-٤٩٥).

قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل هذا الرجل المؤمن، ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وأيُّ شيء لي لا أعبد الرب الذي خلقني، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يقول: وإليه تصيرون أنتم أيها القوم وتردون جميعًا، وهذا حين أبدى لقومه إيمانه بالله وتوحيده»[1].

قال ابن القيم: «أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفا لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها؛ فإن خلْقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونِعَمه كلها بَعدُ تابعة لإيجاده وخلقه، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم، ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك؛ فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع، ثم أقبل عليهم مخوّفا لهم تخويف الناصح؛ فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾»[2].

وقال أيضا: «فتأمل هذا الخطاب! كيف تجد تحته أشرف معنى وأجلّه، وهو أن كونه سبحانه فاطرا لعباده يقتضي عبادتهم له، وأن من كان مفطورا مخلوقا فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه، ولا سيما إذا كان مرده إليه، فمبدأه منه، ومصيره إليه، وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته، ثم احتج عليهم بما تُقرّ به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره، وأنها أقبح شيء في العقل وأنكره، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾ أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل الصحيح، ومقتضى الفطرة»[3].

قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾:

قال ابن جرير: «يقول: أأعبد من دون الله آلهة، يعني معبودًا سواه ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ يقول: إذ مسني الرحمن بضر وشدة﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ يقول: لا تغني عني شيئًا بكونها إليَّ شفعاء، ولا تقدر على رفع ذلك الضّر عني

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٦٠). (٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٥-٤٩٦).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ يقول: ولا يخلصوني من ذلك الضر إذا مسني.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ يقول: إني إن اتخذت من دون اللَّه آلهة هذه صفتها؛ ﴿إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لمن تأمله، جوره عن سبيل الحق»[1].

قال ابن القيم: «أخبر (صاحب يس) عن الآلهة التي تعبد من دونه أنها باطلة، وأن عبادتها باطلة؛ فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾؛ فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وإنما إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضرّ لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذوني بها من ذلك الضر، ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر، فبأي وجه يستحق العبادة: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ إن عبدت من دون اللَّه مما هذا شأنه»[2].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية من عدم فائدة المعبودات من دون اللَّه جاء موضحًا في آيات من كتاب اللَّه تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾[4] وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾[7] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[8].

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥﴾ قال ابن جرير: «اختلف في معنى ذلك؛ فقال بعضهم: قال هذا القول هذا المؤمن لقومه يُعْلمهم إيمانه باللَّه.. وقال

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٦٠).
(٢) الصواعق (٢/ ٤٩٦-٤٩٧).
(٣) الزمر: الآية (٣٨).
(٤) الإسراء: الآية (٥٦).
(٥) سبأ: الآية (٢٢).
(٦) يونس: الآية (١٨).
(٧) يونس: الآية (١٠٦).
(٨) أضواء البيان (٦/ ٢٩٤).

آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، وأني قد آمنت بكم واتبعتكم؛ فذكر أنه لما قال هذا القول، ونصح لقومه النصيحة التي ذكرها اللَّه في كتابه وثبوا به فقتلوه»[١].

قال ابن كثير: «وهذا القول الذي حكاه هؤلاء أظهر في المعنى، واللَّه أعلم»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٦٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٧١).

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال اللَّه إذ قتلوه كذلك، فلقيه: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ فلما دخلها وعاين ما أكرمه اللَّه به لإيمانه وصبره فيه﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ يقول: يا ليتهم يعلمون أن السبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وجعلني من الذين أكرمهم اللَّه بإدخاله إياه جنته؛ كان إيماني باللَّه وصبري فيه، حتى قتلت، فيؤمنوا باللَّه ويستوجب الجنة»[(١)].

قال ابن كثير: «ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم؛ لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، ف رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه، فلقد كان حريصا على هداية قومه»[(٢)].

قال الزمخشري: «وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤّف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمّر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام. ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزًا، ولم تعقبه إلا سعادة، لأنّ في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور. والأوّل أوجه»[(٣)].

* * *

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٦١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٧٢).
(٣) الكشاف (٣/ ٣١٩-٣٢٠).

قوله تعالى : ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

خامدون : ميتون لا حراك بهم . والخمود : السكون . يقال : أَخْمَدْتُ النارَ وخَمَّدْتُها : أَطْفَأْتها .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : وما أنزلنا على قوم هذا المؤمن الذي قتله قومه لدعائه إياهم إلى اللّٰه ونصيحته لهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يعني : من بعد مهلكه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ .

واختلف أهل التأويل في معنى الجند الذي أخبر اللّٰه أنه لم ينزل إلى قوم هذا المؤمن بعد قتلهموه ؛ فقال بعضهم : عنى بذلك أنه لم ينزل اللّٰه بعد ذلك إليهم رسالة ، ولا بعث إليهم نبيًّا . . وقال آخرون : بل عنى بذلك أن اللّٰه -تعالى ذكره- لم يبعث لهم جنودًا يقاتلهم بها ، ولكنه أهلكهم بصيحة واحدة . .

وهذا القول الثاني أولى القولين بتأويل الآية ، وذلك أن الرسالة لا يقال لها جند إلا أن يكون أراد مجاهد بذلك الرُّسُل ، فيكون وجهًا ، وإن كان أيضًا من المفهوم بظاهر الآية بعيدًا ، وذلك أن الرسل من بني آدم لا ينزلون من السماء ، والخبر في ظاهر هذه الآية عن أنه لم ينزل من السماء بعد مهلك هذا المؤمن على قومه جندًا ، وذلك بالملائكة أشبه منه ببني آدم .

وقوله : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ يقول : ما كانت هَلَكتهم إلا صيحة واحدة أنزلها اللّٰه من السماء عليهم . . وقوله : ﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ يقول : فإذا هم هالكون»[١] .

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١-٢).

وقال السعدي: «قال اللّه في عقوبة قومه ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جندا من السماء لإتلافهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار اللّه تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب اللّه يكفيهم ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: كانت عقوبتهم أي: صوتا واحدا، تكلم به بعض ملائكة اللّه، ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح وتجبرهم عليهم»[1].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤١).

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا حسرةً من العباد على أنفسها وتندّما وتلهفا في استهزائهم برسل اللّه ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ من اللّه ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ وذكر أن ذلك في بعض القراءات: ياحسرة العباد عَلى أنفسِها»(١).

قال ابن كثير: «يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب؛ كيف كذبوا رسل اللّه، وخالفوا أمر الله؛ فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أرسل به من الحق»(٢).

قال أبو المظفر السمعاني: «فإن قيل: كيف يستقيم نداء الحسرة؛ والحسرة لا تعقِل شيئا؟ وأيضًا: كيف يتحسّر اللّه تعالى على العباد الذين أهلكهم؛ ولا يجوز عليه هذه الصفة؟

والجواب عنه: أن معنى قول القائل: ياحسرة! مثل قوله: ياعجبًا! وكذلك قوله: ياحسرتاه! مثل قوله: ياعجباه!. والعرب تقول هذا على طريق المبالغة، والنداء عندهم بمعنى التنبيه، فيستقيم فيمن يعقل وفيمن لا يعقل. وقولهم: ياعجباه! أبلغ من قولهم: أنا أتعجب من كذا، فكأنه قال: أيها العجب هذا وقتك، وأيها الحسرة هذا زمانك، وحقيقة المعنى أن هذا الزمان زمان الحسرة والتعجب.

وأما قوله: إن الحسرة على اللّه لا تجوز؛ قلنا: نعم، ومعنى الآية: ياحسرة على العباد من أنفسهم، وكأنهم يتحسّرون على أنفسهم غاية الحسرة، والحسرة هي التلهّف على أمر فائت بأبلغ وجوهه، حتى يبقى الرجل حسيرًا منقطعًا من شدته،

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٧٤).

وقرئ في الشاذ: ياحسرة العباد.

وجواب آخر: أنه تعالى قال: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾، لأنهم صاروا بمنزلة يتحسّر عليهم، ويقال: معناه: ياحسرة الرسل والملائكة على العباد. والجواب الأول أحسن الأجوبة»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ نص صريح في تكذيب الأمم لجميع الرسل؛ لِما تقرر في الأصول من أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها (مِن)؛ فهي نصّ صريح في عموم النفي كما هو معروف في محله.

وهذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة؛ جاء موضحًا في آيات أخر، وجاء في بعض الآيات إخراج أمة واحدة عن حكم هذا العموم بمخصِّص متصل وهو الاستثناء، فمن الآيات الموضحة لهذا العموم: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[4]..

وأما الأمة التي أخرجت من هذا العموم فهي أمة يونس، والآية التي بينت ذلك هي قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾[6]»[7].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٤-٣٧٥).
(٢) سبأ: الآية (٣٤).
(٣) الزخرف: الآية (٢٣).
(٤) الأعراف: الآيتان (٩٤و٩٥).
(٥) يونس: الآية (٩٨).
(٦) الصافات: الآيتان (١٤٧و١٤٨).
(٧) أضواء البيان (٦/ ٢٩٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ألم ير هؤلاء المشركون بالله من قومك يا محمد كم أهلكنا قبلهم بتكذيبهم رسلنا، وكفرهم بآياتنا من القرون الخالية ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يقول: ألم يَرَوا أنهم إليهم لا يرجعون»[1].

قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ **قال أبو المظفر**: «إن ههنا بمعنى (ما)، ولمّا بمعنى (إلّا) فمعنى الآية: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، وفي مصحف أبيّ بن كعب على هذا الوجه»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن كل هذه القرون التي أهلكناها والذين لم نهلكهم وغيرهم عندنا يوم القيامة؛ جميعهم محضرون»[3].

قال ابن كثير: «ومعنى هذه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾[4]»[5].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٥).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ٣).

(٤) هود: الآية (١١١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «نبههم اللَّه تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم توحيده وكمال قدرته، وهي الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحب منها»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ودلالة لهؤلاء المشركين على قُدرة اللَّه على ما يشاء، وعلى إحيائه من مات من خلقه وإعادته بعد فنائه، كهيئته قبل مماته إحياؤه الأرض الميتة، التي لا نبت فيها ولا زرع بالغيث الذي ينزله من السماء حتى يخرج زرعها، ثم إخراجه منها الحب الذي هو قوت لهم وغذاء، فمنه يأكلون.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا في هذه الأرض التي أحييناها بعد موتها بساتين من نخيل وأعناب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ يقول: وأنبعنا فيها من عيون الماء»[2].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٨).
(٢) جامع البيان (٢٣/ ٤).

قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أنشأنا هذه الجنات في هذه الأرض ليأكل عبادي من ثمره، وما عملت أيديهم يقول: ليأكلوا من ثمر الجنات التي أنشأنا لهم، وما عملت أيديهم مما غرسوا هم وزرعوا.. وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول: أفلا يشكر هؤلاء القوم الذين رزقناهم هذا الرزق من هذه الأرض الميتة التي أحييناها لهم مَنْ رزقهم ذلك وأنعم عليهم به؟»[١].

وقال ابن كثير: «لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم. قاله ابن عباس وقتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟»[٢].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٧١-٥٧٢).

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: تنزيها وتبرئة للذي خلق الألوان المختلفة كلها من نبات الأرض، ومن أنفسهم، يقول: وخلق من أولادهم ذكورًا وإناثًا، ومما لا يعلمون أيضًا من الأشياء التي لم يطلعهم عليها، خلق كذلك أزواجًا مما يضيف إليه هؤلاء المشركون، ويصفونه به من الشركاء وغير ذلك»[1].

قال أبو حيان: «وفي إعلامه بكثرة مخلوقاته؛ دليل على اتساع ملكه، وعظم قدرته»[2].

وقال السعدي: «فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سَمِيٌّ، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريده»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥).

(٢) البحر (٧/ ٣٢١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤١-٦٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نسلخ: أصل السلخ: الكشط والنزع. يقال: سَلَخَ جلدَ الشاةِ: إذا نزعه. ثم استعمل في الإخراج. أي: نخرج النهار من الليل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ودليل لهم أيضًا على قدرة اللَّه على فعل كل ما شاء ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ يقول: ننزع عنه النهار. ومعنى منه في هذا الموضع: عنه، كأنه قيل: نسلخ عنه النهار، فنأتي بالظلمة ونذهب بالنهار. ومنه قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[1] أي: خرج منها وتركها، فكذلك انسلاخ الليل من النهار. وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ يقول: فإذا هم قد صاروا في ظلمة بمجيء الليل»[2].

قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾:

قال ابن كثير: «في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها؛ وليس بِكُرَة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد وتستأذن في

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٥).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٥).

الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث. وقيل: المراد بقوله ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ هو انتهاء سيرها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجُها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرّها هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة يُبطَل سيرها، وتسكن حركتها، وتُكوّر، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني، قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه. وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما. وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: (والشمس تجري لا مستقرّ لها) أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلا ونهارا، لا تفتر ولا تقف، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾[(١)] أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يخالف ولا يمانع. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس؛ كما قال عز وجل: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[(٢)] وهكذا ختم آية حم السجدة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن مستقر الشمس تحت العرش

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: «**مستقرّها تحت العرش**»[(٤)].

* وعنه رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «**أتدري أين تذهب؟**» قلت: اللّه ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال**

---

(١) إبراهيم: الآية (٣٣).

(٢) الأنعام: الآية (٩٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٧٦-٥٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٦٩٥/ ٤٨٠٣) ومسلم (١/ ١٣٩/ ١٥٩[٢٥١]).

لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨﴾»[1].

★ **من فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «وفي هذا الحديث (أي الحديث الأول) رد على من زعم أن المراد بمستقرها غاية ما تنتهي إليه في الارتفاع، وذلك أطول يوم في السنة. وقيل: إلى منتهى أمرها عند انتهاء الدنيا»[2].

وقال: «والغرض منه (أي الحديث الثاني): بيان سير الشمس في كل يوم وليلة، وظاهره مغاير لقول أهل الهيئة؛ أن الشمس مرصّعة في الفلك؛ فإنه يقتضي أن الذي يسير هو الفلك، وظاهر الحديث أنها هي التي تسير وتجري، ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[3] أي: يدورون»[4].

قال الخطابي: «في هذا إخبار عن سجود الشمس تحت العرش، فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها، والخبر عن سجود الشمس والقمر لله ﷻ قد جاء في الكتاب. قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾[5] الآية. وليس في هذا إلا التصديق والتسليم، وليس في سجودها لربها تحت العرش ما يعوقها عن الدأب في سيرها والتصرف لما سخرت له. سبحان الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وتبارك اللَّه رب العالمين، وأحسن الخالقين»[6].

وقال أيضًا: «وأما قوله: «**مستقرها تحت العرش**» فلا ينكر أن يكون لها استقرارٌ تحت العرش، من حيث لا ندركه ولا نشاهده، وإنما هو خبر عن غيب، فلا نكذب به ولا نكيّفه؛ لأن علمنا لا يحيط به، ويحتمل أن يكون المعنى أن علم ما سألتَ عنه من

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٢و١٧٧)، والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣١٩٩)، ومسلم (١/ ١٣٨/ ١٥٩)، وأبو داود (٤/ ٢٩٤/ ٤٠٠٢)، والترمذي (٥/ ٣٣٩/ ٣٢٢٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٤٣٠).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٩٥).

(٣) الأنبياء: الآية (٣٣)، يس: الآية (٤٠).

(٤) فتح الباري (٦/ ٣٦٨).

(٥) الحج: الآية (١٨).

(٦) أعلام الحديث (٣/ ١٨٩٤).

مستقرها تحت العرش في كتاب كُتب فيه مبادئ أمور العالم ونهاياتها، والوقت الذي ينتهي إليه مدتها، فينقطع دوران الشمس وتستقر عند ذلك، فيبطل فعلها، وهو اللوح المحفوظ الذي يُبيَّن فيه أحوال الخلق والخليقة، وآجالهم ومآل أمورهم، والله أعلم بذلك»[١].

قال الحافظ -بعد إيراده كلام الخطابي-: «وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها، ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبّر عنه بالجري. والله أعلم»[٢].

وقال ابن هبيرة: «فيه من الفقه: أن الشمس تستأذن في كل يوم تطلع فيه لطلوعها بعد سجودها، وأنها ستطلع من مغربها، إلا أن في هذا الحديث من الإشارة إلى أن الشمس لا تعلم متى ذلك، وأنها يجوز أن يكون ردها لتطلع من مغربها هو كل يوم»[٣].

وقال ابن الجوزي: «ربما أشكل الأمر في هذا الحديث على من لم يتبحّر في العلم؛ فقال: نحن نراها تغيب في الأرض، وقد أخبر القرآن أنها تغيب في عين حمئة، فإذا دارت تحت الأرض وصعدت، فأين هي من العرش؟

فالجواب: إن الأرضين السبع في ضرب المثال كقطب رحى، والعرش لعِظَم ذاته كالرحى، فأين سجدت الشمس سجدت تحت العرش، وذلك مستقرها»[٤].

* * *

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٨٩٣).
(٢) فتح الباري (٨/ ٦٩٦).
(٣) الإفصاح (٢/ ١٦٣-١٦٤).
(٤) كشف المشكل (١/ ٣٥٩).

قوله تعالى : ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

العرجون: هو العذق الذي فيه الشماريخ، أي: عناقيد الرُّطب. أصله من الانعراج: وهو الانعطاف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «تأويل الكلام: وآية لهم تقديرُنا القمر منازل للنقصان بعد تناهيه وتمامه واستوائه، حتى عاد كالعرجون القديم؛ والعرجون: من العذق من الموضع النابت في النخلة إلى موضع الشماريخ؛ وإنما شبهه -جل ثناؤه- بالعرجون القديم، والقديم هو اليابس؛ لأن ذلك من العِذْق، لا يكاد يوجد إلا متقوّسًا منحنيًا إذا قَدُم ويبِس، ولا يكاد أن يُصاب مستويًا معتدلا كأغصان سائر الأشجار وفروعها، فكذلك القمرُ إذا كان في آخر الشهر قبل استسراره، صار في انحنائه وتقوّسه نظير ذلك العرجون. .

وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ لا الشمس يصلح لها إدراك القمر، فيذهب ضوؤها بضوئه، فتكون الأوقات كلها نهارًا لا ليل فيها ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولا الليل بفائت النهار حتى تذهب ظلمته بضيائه، فتكون الأوقات كلها ليلا . .

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يقول: وكل ما ذكرنا من الشمس والقمر، والليل والنهار في فلك يجرون»[1].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٧-٨).

وقال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾[2] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾[3] فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكب نهاري. وأما القمر، فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء، وإن كان مقتبسًا من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم»[4].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٨٩).

(٢) يونس: الآية (٥).

(٣) الإسراء: الآية (١٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ودليل لهم أيضًا، وعلامة على قُدرتنا على كلّ ما نشاء، حملُنا ذرّيتهم، يعني من نجا من ولد آدم في سفينة نوح، وإياها عنى -جل ثناؤه- بالفُلك المشحون؛ والفلك: هي السفينة، والمشحون: المملوء الموقِر..

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: وخلقنا لهؤلاء المشركين المكذّبيك يا محمد، تفضّلا منا عليهم، من مثل ذلك الفلك الذي كنا حملنا مِن ذرية آدم مَنْ حملنا فيه الذي يركبونه من المراكب وهي السفن.. وقال آخرون: بل عنى بذلك الإبل..

وأشبه القولين بتأويل ذلك قول من قال: عُني بذلك السفن، وذلك لدلالة قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ على أن ذلك كذلك، وذلك أن الغرق معلوم أن لا يكون إلا في الماء، ولا غرق في البرّ.

وقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإن نشأ نغرق هؤلاء المشركين إذا ركبوا الفُلك في البحر ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ يقول: فلا مُغيث لهم إذا نحن غرّقناهم يُغيثهم، فينجيهم من الغرق... وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ يقول: ولا هو ينقِذهم فينجيهم منه. وقوله: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول: ولِنمتعهم إلى أجل هم بالغوه، فكأنه قال: ولا هم يُنْقذُونَ إلا أن نرحمهم فنمتعهم إلى أجل»[1].

وقال السعدي: «ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد اللّه تعالى، وذلك أن من

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٩-١١).

عرف جلالة كتاب اللّه وبيانه التام من كل وجه، للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن.

فلما خاطبهم اللّه تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، نبَّه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ أي: المملوء ركبانًا وأمتعة. فحملهم اللّه تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم اللّه بها، من الغرق، ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ مما هم فيه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ حيث لم نغرقهم، لطفا بهم، وتمتيعا لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٢-٦٤٣).

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : وإذا قيل لهؤلاء المشركين باللَّه، المكذّبين رسوله محمدًا ﷺ : احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم اللَّه وَمثُلاته بمن حلّ ذلك به من الأمم قبلكم أن يحلّ مثله بكم، بشرككم وتكذيبكم رسوله ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ يقول : وما بعد هلاككم مما أنتم لاقوه إن هلكتم على كفركم الذي أنتم عليه﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول : ليرحمكم ربكم إن أنتم حذِرتم ذلك، واتقيتموه بالتوبة من شرككم والإيمان به، ولزوم طاعته فيما أوجب عليكم من فرائضه . . .

وقوله : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره- : وما تجيء هؤلاء المشركين من قريش آية، يعني حجة من حُجَج اللَّه، وعلامة من علاماته على حقيقة توحيده، وتصديق رَسُوله، إلا كانوا عنها معرضين، لا يتفكرون فيها، ولا يتدبرونها، فيعلموا بها ما احتجّ اللَّه عليهم بها . فإن قال قائل : وأين جواب قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؟ قيل : جوابه وجواب قوله : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ قوله : ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ؛ لأن الإعراض منهم كان عن كل آية لله، فاكتفي بالجواب عن قوله : ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ وعن قوله : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ بالخبر عن إعراضهم عنها لذلك، لأن معنى الكلام : وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا، وإذا أتتهم آية أعرضوا»[١].

قال الشنقيطي : «وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية جاء في آيات أخر من كتاب الله ؛ كقوله تعالى في أول سورة الأنعام : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١١-١٢).

إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾[١] وقوله تعالى في آخر يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾[٤]، وأصل الإعراض مشتقّ من العُرض بالضم، وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشيء يولّيه بجانب عنقه صادًّا عنه»[٥].

* * *

(١) الأنعام: الآيتان (٤و٥).

(٢) يوسف: الآية (١٠٥).

(٣) القمر: الآيتان (١و٢).

(٤) الصافات: الآيتان (١٣و١٤).

(٥) الأضواء (٦/ ٢٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا قيل لهؤلاء المشركين بالله: أنفقوا من رزق اللَّه الذي رزقكم، فأدوا منه ما فرض اللَّه عليكم فيه لأهل حاجتكم ومسكنتكم؛ قال الذين أنكروا وحدانية اللَّه، وعبدوا مَن دونه للذين آمنوا باللَّه ورسوله: أنطعم أموالنا وطعامنا مَنْ لو يشاء اللَّه أطعمه.

وفي قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وجهان: أحدهما أن يكون من قيل الكفار للمؤمنين، فيكون تأويل الكلام حينئذ: ما أنتم أيها القومُ في قيلكم لنا: أنفقوا مما رزقكم اللَّه على مساكينكم، إلا في ذهاب عن الحق، وجور عن الرشد مُبين لمن تأمله وتدبره، أنه في ضلال، وهذا أولى وجهيه بتأويله. والوجه الآخر: أن يكون ذلك من قيل اللَّه للمشركين، فيكون تأويله حينئذ: ما أنتم أيها الكافرون في قيلكم للمؤمنين: أنطعم من لو يشاء اللَّه أطعمه ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ عن أنّ قيلكم ذلك لهم ضلال»[١].

وقال ابن كثير: «أي: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم اللَّه على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي: وهؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء اللَّه لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة اللَّه فيهم، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك.

قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون من قول اللَّه للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذا نظر. واللَّه أعلم»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٢-١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٧٥).

وقال السعدي: «وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة، ليست حجة لعاص أبدا، فإنه وإن كان ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكَّن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختيارًا منهم، لا جبرًا لهم ولا قهرا»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويقول هؤلاء المشركون المكذبون وعيد اللَّه، والبعثَ بعد الممات، يستعجلون ربهم بالعذاب ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الوعد بقيام الساعة﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أيها القوم، وهذا قولهم لأهل الإيمان باللَّه ورسوله. ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما ينتظر هؤلاء المشركون الذين يستعجلون بوعيد اللَّه إياهم، إلا صيحة واحدة تأخذهم، وذلك نفخة الفَزَع عند قيام الساعة»[1].

قال أبو حيان: «﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون. ولما كانت هذه الصيحة لا بد من وقوعها جُعلوا كأنهم منتظِروها، وهذه هي النفخة الأولى تأخذهم فيهلكون، وهم يتخاصمون، أي في معاملاتهم وأسواقهم، وفي أماكنهم من غير إمهال لتوصية، ولا رجوع إلى أهل»[2].

قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلا يستطيع هؤلاء المشركون عند النفخ في الصُّور أن يوصوا في أموالهم أحدًا ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: ولا يستطيع من كان منهم خارجًا عن أهله أن يرجع إليهم، لأنهم لا يُمْهَلون بذلك. ولكن يُعَجَّلون بالهلاك»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٣).

(٢) البحر (٦/ ٣٢٥).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ١٤-١٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الساعة تقوم فجاة والناس يختصمون في أمر دنياهم

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا. ولتقومنّ الساعة وقد نَشَر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلَبن لِقْحَته فلا يطعَمُه. ولتقومنّ الساعة وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه. ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم أُكْلته إلى فيه فلا يطعَمُها**»[١].

★ **غريب الحديث:**

اللِّقْحة: بكسر اللام وسكون القاف: الناقة ذات اللبن، والفتح لغة، والجمع لِقَح ولِقاح.

يُليط حوضَهُ: بفتح أوله وضمه أيضا؛ يقال: ألاط حوضه إذا مدَره؛ أي: جمع حجارة فصيّرها كالحوض ثم سدّ ما بينها من الفُرَج بالمدر ونحوه لينحبس الماء، هذا أصله. وقد يكون للحوض خروق فيسدها بالمدر قبل أن يملأه.

أُكلته: أي: لُقمته، وهي بالضم، وأما بالفتح فهي المرة الواحدة.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث أن الساعة تقوم فجأة، «والناس يختصمون في ذات بينهم في البيع والشراء ونحوها من أمور الدنيا، ويتكلمون في الأسواق والمجالس وفي متصرفاتهم، فتأتيهم الساعة أغفل ما كانوا عنها»[٢].

قال القرطبي: «حاصل هذا الحديث أن الساعة تقوم بغتة كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[٣]»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٩)، والبخاري (١١/ ٤٢٨/ ٦٥٠٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠/ ٢٩٥٤).
(٢) فتح البيان (١١/ ٣٠٣).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٧).
(٤) المفهم (٧/ ٣٠٦).

قال الحافظ: «وهذا كله إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة، وأسرعها رفع اللقمة إلى الفم»[١].

* * *

(١) فتح الباري (١٣/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الصُّور: قال قتادة: الصُّور: جمع صورة، أي: نفخ في الصوَر الأرواحُ. وصُورَةٌ وصُوَر مثل سُورَة البناء وسُور. وقال النحاس: والصحيح أن الصُّور بإسكان الواو: القَرْنُ. جاء بذلك التوقيف عن رسول اللَّه ﷺ، وذلك معروف في كلام العرب.

الأجداث: جمع جَدَث بفتحتين، وهو القبر.

ينسلون: أي: يخرجون مسرعين. يقال: نَسَلَ الذئب وعَسَلَ: إذا أسرع في المشي. ومنه قيل للولد: نسل، لأنه يخرج من بطن أمه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يعني بهذه النفخة نفخة البعث. وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ يعني من أجداثهم وهي قبورهم، واحدها: جَدَث.. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يقول: إلى ربهم يخرجون سراعًا، والنَّسلان الإسراع في المشي»[1].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن أهل القبور يقومون أحياء عند النفخة الثانية جاء موضحا في آيات كثيرة من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٥).

يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[٢] وهذه الصيحة هي النفخة الثانية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾[٣] أي: الخروج من القبور، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[٤] والزجرة هي النفخة الثانية، والساهرة وجه الأرض والفلاة الواسعة، وكقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[٦] وهذه الدعوة بالنفخة الثانية، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾[٧] إلى غير ذلك من الآيات»[٨].

وقوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال هؤلاء المشركون لما نفخ في الصور نفخة البعث لموقف القيامة، فردّت أرواحهم إلى أجسامهم، وذلك بعد نومة ناموها ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وقد قيل: إن ذلك نومة بين النفختين.. وقد اختلف أهل التأويل في الذي يقول حينئذ: هذا ما وعد الرحمن؛ فقال بعضهم: يقول ذلك أهل الإيمان بالله..

وقال آخرون: بل كلا القولين، أعني: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾: من قول الكفار..

والقول الأول أشبه بظاهر التنزيل، وهو أن يكون من كلام المؤمنين؛ لأن الكفار في قيلهم ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مَرْقَدهم جُهَّالا، ولذلك من جهلهم استثبتوا، ومحال أن يكونوا استثبتوا ذلك إلا من غيرهم، ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك»[٩].

قال ابن كثير تعليقا على اختيار ابن جرير: «وهو أصح وذلك؛ كقوله تعالى في

(١) الزمر: الآية (٦٨).
(٢) يس: الآية (٥٣).
(٣) ق: الآية (٤٢).
(٤) النازعات: الآيتان (١٣و١٤).
(٥) الصافات: الآية (١٩).
(٦) الروم: الآية (٢٥).
(٧) الإسراء: الآية (٥٢).
(٨) أضواء البيان (٦/ ٢٩٧).
(٩) جامع البيان (٢٣/ ١٦-١٧).

الصافات: ﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦﴾[٢]»[٣].

وقال السعدي: «ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[٤] وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٥] ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن، في هذا»[٦].

قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن كانت إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية في الصور، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يقول: فإذا هم مجتمعون لدينا قد أُحْضِروا، فأشهدوا مَوْقفَ العرض والحساب، لم يتخلف عنه منهم أحد»[٧].

* * *

(١) الصافات: الآيتان (٢٠و٢١).
(٢) الروم: الآيتان (٥٥و٥٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٨٢).
(٤) الفرقان: الآية (٢٦).
(٥) طه: الآية (١٠٨).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٣).
(٧) جامع البيان (٢٣/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ كذلك ربنا لا يظلم نفسا شيئا، فلا يوفيها جزاء عملها الصالح، ولا يحمل عليها وِزْر غيرها، ولكنه يوفّي كلّ نفس أجر ما عملت من صالح، ولا يعاقبها إلا بما اجترمت واكتسبت من شيء ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: ولا تكافأون إلا مكافأة أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا»[1].

قال ابن القيم: «فنفى أن يُظلم بأن يزاد عليه في سيئاته، أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينفِ أن ينتفع بعمل غيره لا على وجه الجزاء؛ فإن انتفاعه بما يهدى إليه ليس جزاء على عمله، وإنما هو صدقة تصدق اللّه بها عليه، وتفضل بها عليه من غير سعي منه، بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء»[2].

قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى الشغل الذي وصف اللّه -جل ثناؤه- أصحاب الجنة أنهم فيه يوم القيامة، فقال بعضهم: ذلك افتضاض العذارَى.. وقال آخرون: بل عنى بذلك أنهم في نعمة.. وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم في شغل عما فيه أهل النار..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال اللّه -جل ثناؤه- ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم أهلها ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ بنِعَم تأتيهم في شغل، وذلك الشغل الذي هم فيه نعمة، وافتضاض أبكار، ولهوٌ ولذة، وشغل عما يلقى أهلُ النار»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٧).

(٢) الروح (١٢٩).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ١٧-١٨).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن أهل الجنة: أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا في روضات الجنات: أنهم ﴿فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي: في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم.

قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد: فِي شغل عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد: ﴿فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي: في نعيم معجبون، أي: به. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي فرحون.

قال عبد اللَّه بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المُسَيّب، وعِكْرِمَة، والحسن، وقتادة، والأعمش، وسليمان التيمي، والأوزاعي في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار»[1].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٧٦).

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأرائك: السرر. واحدها: أريكة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى بقوله: ﴿هُمْ﴾ أصحاب الجنة وأزواجهم من أهل الجنة في الجنة.. وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ واختلفت القرأة في قراءة ذلك، فقرأ بعضهم في ظُلَل بمعنى: جمع ظُلّة، كما تجمع الحلّة حُلَلًا، وقرأ آخرون: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ وإذا قرئ ذلك كذلك كان له وجهان: أحدهما: أن يكون مرادًا به جمع الظُّلل الذي هو بمعنى الكِنّ، فيكون معنى الكلمة: هم وأزواجهم في كِنّ لا يضحون لشمس كما يضحى لها أهل الدنيا، لأنه لا شمس فيها. والآخر أن يكون مرادًا به جمع ظُلّة، فيكون وجه جمعها كذلك نظير جمعهم الخُلّة في الكثرة: الخِلال، والقُلّة قِلال.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ الأرائك هي الحجال فيها السرر والفرش، واحدتها أريكة.. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ يقول: لهؤلاء الذين ذكرهم -تبارك وتعالى- من أهل الجنة في الجنة فاكهة ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يقول: ولهم فيها ما يتمنَّون. وذُكر عن العرب أنها تقول: ادّعِ عليّ ما شئت أي: تمنّ عليّ ما شئت..

﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر لقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ فيكون معنى ذلك: ولهم فيها ما يدّعون وذلك هو سلام من اللَّه عليهم، بمعنى تسليم من اللَّه، ويكون سلام ترجمة عمّا يدّعون، ويكون القول خارجًا من قوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾. وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ يعني: رحيم بهم إذ لم يعاقبهم بما سلف لهم من جرم في الدنيا»[1].

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠-٢٣) بتصرف.

قال السعدي: «ولهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ حاصل لهم ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ؛ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قَوْلًا﴾، وإذا سلّم عليهم الرب الرحيم؛ حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا، فلولا أن اللّه تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور؛ لحصل ذلك.

فنرجو ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

★ **غريب الآية:**

امتازوا: أي: تميزوا. يقال: مَازَ الشيءَ عن غيره: عَزَلَه وفَرَزَهُ. وامتاز القوم: تَمَيَّزَ بعضهم من بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام إذن: وتميزوا من المؤمنين اليوم أيها الكافرون باللَّه، فإنكم واردون غيرَ موردهم، داخلون غير مدخلهم»[(١)].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى: يتميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤)﴾[(٣)] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[(٤)] أي: يصيرون صدْعين فرقتين ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾[(٥)]»[(٦)].

قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)﴾:

قال ابن جرير: «يقول: ألم أوصكم وآمركم في الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٣).
(٢) يونس: الآية (٢٨).
(٣) الروم: الآية (١٤).
(٤) الروم: الآية (٤٣).
(٥) الصافات: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٨٤).

فتطيعوه في معصية اللَّه، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يقول: وأقول لكم: إن الشيطان لكم عدو مبين، قد أبان لكم عداوته بامتناعه من السجود لأبيكم آدم، حسدًا منه له على ما كان اللَّه أعطاه من الكرامة، وغُروره إياه، حتى أخرجه وزوجته من الجنة.

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ يقول: وألم أعهد إليكم أن اعبدوني دون كلّ ما سواي من الآلهة والأنداد، وإياي فأطيعوا، فإن إخلاص عبادتي، وإفراد طاعتي، ومعصية الشيطان، هو الدين الصحيح، والطريق المستقيم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

★ غريب الآية:

جِبلا: أي: خلقًا كثيرًا، واحدها جِبِلَّةٌ. من جَبَلَ اللَّه الخلق ؛أي: خلقهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ ولقد صد الشيطان منكم خلقًا كثيرا عن طاعتي، وإفرادي بالألوهة حتى عبدوه، واتخذوا من دوني آلهة يعبدونها . . وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفلم تكونوا تعقلون أيها المشركون، إذ أطعتم الشيطان في عبادة غير اللَّه، أنه لا ينبغي لكم أن تطيعوا عدوكم وعدو اللَّه، وتعبدوا غير الله»[١].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الشيطان أضل خلقًا كثيرًا من بني آدم جاء مذكورا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾[٢] أي: قد استكثرتم أيها الشياطين من إضلال الإنس، وقد قال إبليس: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣] وقد بيّن تعالى أن هذا الظن الذي ظنه بهم من أنه يضلهم جميعا إلا القليل صدّقه عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾[٤]»[٥].

وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٣).
(٢) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٣) الإسراء: الآية (٦٢).
(٤) سبأ: الآية (٢٠).
(٥) الأضواء (٦/ ٢٩٨).

قال ابن جرير: «يقول: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على كفركم باللَّه، وتكذيبكم رسله، فكنتم بها تكذبون. وقيل: إن جهنم أول باب من أبواب النار. وقوله: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤﴾ يقول: احترقُوا بها اليوم ورِدُوها؛ يعني باليوم: يوم القيامة﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾: يقول: بما كنتم تَجْحدونها في الدنيا، وتكذبون بها»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ اليوم نطبع على أفواه المشركين، وذلك يوم القيامة ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ بما عملوا في الدنيا من معاصي اللَّه ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ قيل: إن الذي ينطق من أرجلهم: أفخاذهم من الرجل اليُسرى﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الآثام»[1].

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن شهادة بعض جوارح الكفار عليهم يوم القيامة، جاء موضّحًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]وقوله تعالى في فصّلت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3] الآية»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تكلم الأعضاء وشهادتها على صاحبها يوم القيامة

* عن أنس ﷺ: كنا عند رسول اللَّه ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون ممّ أضحك؟**» قال: قلنا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب! ألم تُجِرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق**

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٤).
(٢) النور: الآية (٢٤).
(٣) فصلت: الآيتان (٢٠و٢١).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٢٩٩).

بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدًا لَكُنّ وسحقًا، فعنكنّ كنتُ أناضل»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟**» قالوا: لا، قال: «**فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟**» قالوا: لا، قال: «**فوالذي نفسي بيده؛ لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيَلقى العبدَ فيقول: أي فل! ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذَرْك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل! ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب! فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك؛ فيقول: يا رب! آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذًا. قال ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه؛ مَن ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذر من نفسه. وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط اللّه عليه»**[٢].

⋆ غريب الحديث:

أَيْ فُلْ: معناه: يا فلان. وهو ترخيم على خلاف القياس. وقيل: هي لغة بمعنى: فلان.

أُسَوِّدْكَ: أي: أجعلك سيّدًا على غيرك.

تربع: بالموحدة: أي: تأخذ المرباع -أي: الرُّبع- فيما يحصل لقومك من

---

(١) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٢٨٠-٢٢٨١/ ٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٨/ ١١٦٥٣).

(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٢٧٩/ ٢٩٦٨) مطولا، وأخرجه مختصراً دون محل الشاهد: أحمد (٢/ ٣٦٨) وأبو داود (٥/ ٩٨-٩٩/ ٤٧٣٠)، والترمذي (٤/ ٥٩٤/ ٢٥٥٤).

الغنائم والكسب. وكانت عادتهم: أن أمراءهم يأخذون من الغنائم الربع، ويسمونه المرباع. قال قطرب: المرباع: الربع. والمعشار: العشر، ولم يُسمع في غيرهما. ورواية الجمهور: تربع بالباء، وعند ابن ماهان: ترتع، بتاء باثنتين من فوقها، ومعناه: تتنعّم.

لِيُعْذِرَ من نفسه: بضم الياء وكسر الذال المعجمة: من أَعْذَرَ، أي: بالغ في حجة نفسه، يعني أن المنافق قال ما قال من ادّعاء فعل الخيرات المتقدمة.

* عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[1] قال: «**إنكم تُدعون مفدّمًا على أفواهكم بالفِدام، فأول شيء يُبِين على أحدكم فخذُه وكفُّه**»[2].

★ غريب الحديث:

الفِدام: ما يُشَدّ على فم الإبْرِيق والكُوز مِن خِرْقةٍ لتَصْفِيَة الشَّراب الذي فيه: أي أنهم يُمْنَعون الكلامَ بأفواهِهم، حتى تتكَّلم جوارحهم فشبه ذلك بالفِدام.

★ فوائد الأحاديث:

قوله في الحديث الأخير: «**فأول شيء يبين على أحدكم فَخِذه وكفه**» قال القرطبي: «يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة والخزي على ما نطق به الكتاب في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾[3]؛ لأنه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش، ويخلو قلبه عندها من ذكر اللّه تعالى، فلا يفعل ما يفعل خائفًا مشفقًا، فيجزيه اللّه بمجاهرته والإشاعة بفحشه على رؤوس الأشهاد.

والوجه الآخر: أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه ولا يعرف بما ينطق به، بل يجحد فيختِم اللّه على فيه عند ذلك، وتنطق منه الجوارح التي لم تكن ناطقة في الدنيا،

---

(١) فصلت: الآية (٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٤٦-٤٤٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥١/ ١١٤٦٩)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٤٠) ووافقه الذهبي.

(٣) الجاثية: الآية (٢٩).

فتشهد عليه سيئاته. وهذا أظهر الوجهين يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم، أي: لفروجهم -في قول زيد بن أسلم-: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾[1] فتمرّدوا في الجحود، فاستحقوا من اللَّه الفضح والإخزاء، نعوذ باللَّه منهما»[2].

* عن يُسَيرة -وكانت من المهاجرات- قالت: قال لنا رسول اللَّه ﷺ: **«عليكن بالتسبيح، والتهليل، والتقديس، واعقدن بالأنامل؛ فإنهن مسؤولات مستنطقات، ولا تغفلن فتنسيَنّ الرحمة»**[3].

⋆ من فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«فإنهن مسؤولات»** عن عمل صاحبها **«مستنطقات»** للشهادة عليه، فأما المؤمن فتنطق عليه بخيره، وتسكت عن شره سترًا من اللَّه، والكافر بالعكس؛ فإن خيره لغير اللَّه، فهو هباء»[4].

وقال الطيبي: «أخبر رسول اللَّه ﷺ أن تحصيل تلك الكلمات بأناملهن؛ ليحط عنها بذلك ما اجترحته من الأوزار، فإنهن مسؤولات مستنطقات، فيشهدن على أنفسهن بما اكتسبنها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[5]. قال المظهر: فيه تحريض على استعمال جميع الأعضاء في الخيرات»[6].

* * *

---

(١) فصلت: الآية (٢١).

(٢) التذكرة (ص: ٢٨٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٧٠-٣٧١)، وأبو داود (٢/ ١٧٠/ ١٥٠١)، والترمذي (٥/ ٥٣٣/ ٣٥٨٣)، وصححه ابن حبان (٣/ ١٢٢/ ٨٤٢)، وسكت عنه الحاكم (١/ ٥٤٧)، وصححه الذهبي في التلخيص.

(٤) فيض القدير (٤/ ٣٥٥).

(٥) فصلت: الآية (٢٢).

(٦) الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٨٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

٭ **غريب الآية:**

طمسنا: الطمس: مَحْوُ أثر الشيء.

مسخناهم: المسخ: تبديل الخلقة إلى أخرى مشوهة منكَرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: ولو نشاء لأعميناهم عن الهدى، وأضللناهم عن قصد المَحَجَّة. (وهو قول ابن عباس).

وقال آخرون: معنى ذلك: لو نشاء لتركناهم عميًا. (وهو قول الحسن وقتادة). وهذا القول الذي ذكرناه عن الحسن وقتادة أشبه بتأويل الكلام؛ لأن اللَّه إنما تهدد به قومًا كفارا، فلا وجه لأن يقال: وهم كفار، لو نشاء لأضللناهم وقد أضلهم، ولكنه قال: لو نشاء لعاقبناهم على كفرهم، فطمسنا على أعينهم فصيرناهم عميا لا يبصرون طريقا، ولا يهتدون له؛ والطَّمْس على العين: هو أن لا يكون بين جفني العين غَرٌّ، وذلك هو الشق الذي بين الجفنين كما تطمس الريح الأثر، يقال: أعمى مطموس وطميس.

وقوله: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ يقول: فابتدروا الطريق.. وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يقول: فأي وجه يبصرون أن يسلكوه من الطرق، وقد طمسنا على أعينهم... وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولو نشاء لأقعدنا هؤلاء المشركين من أرجلهم في منازلهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا

يَرْجِعُونَ﴾ يقول: فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم، ولا أن يرجعوا وراءهم»[١].

وقال السعدي: «والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما ثَمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند اللّه عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٥-٢٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

★ غريب الآية:

نُعَمِّرْه: أي نطيل مدة عُمُرِهِ.

نُنَكِّسه: أصل التنكيس: القلب. وهو أن يجعل أعلى الشيء أسفله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن نعمّره فنمدّ له في العمر ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ نردّه إلى مثل حاله في الصبا من الهرم والكبر، وذلك هو النكس في الخلق، فيصير لا يعلم شيئا بعد العلم الذي كان يعلمه»[(١)].

قال أبو حيان: «ذكر تعالى دليلًا على باهر قدرته في تنكيس المعمر، وأن ذلك لا يفعله إلا هو تعالى. وتنكيسه: قلبه وجعله على عكس ما خلقه أولًا، وهو أنه خلقه على ضعف في جسد، وخلو من عقل وعلم، ثم جعله يتزايد وينتقل من حال إلى حال، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته، ويعقل ويعلم ما له وما عليه. فإذا انتهى نكسه في الخلق، فيتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبا؛ في ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوه من الفهم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله، وفي هذا كله دليل على أن من فَعل هذه الأفاعيل قادر على أن يطمس وأن يفعل بهم ما أراد»[(٢)].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٦).

(٢) البحر (٧/ ٣٢٩).

ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾[2] على أحد التفسيرين، وقوله تعالى في الحج: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾[3] وقوله تعالى في النحل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾[4] وقوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾[5]»[6].

قوله: ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ قال ابن جرير: «أفلا يعقل هؤلاء المشركون قُدْرة اللَّه على ما يشاء بمعاينتهم ما يعاينون من تصريفه خلقه فيما شاء وأحب من صغر إلى كبر، ومن تنكيس بعد كبر في هرم»[7].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علمه الشعر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبلّته؛ ولهذا وَرَدَ أنه -عليه الصلاة والسلام-؛ كان لا يحفظ بيتًا على وزنٍ منتظم، بل إن أنشده زحّفه أو لم يتمّه»[8].

قال أبو حيان: «الضمير في ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ للرسول ﷺ، كانوا يقولون فيه شاعر. وروي أن القائل عقبة بن أبي معيط، فنفى اللَّه ذلك عنه، وقولهم فيه شاعر. أما من كان في طبعه الشعر، فقوله مكابرة وإيهام للجاهل بالشعر؛ وأما من ليس في طبعه، فقوله جهل محض. وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى، يدل على معنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخييل وتزويق الكلام، وغير ذلك مما يتورع المتديّن عن إنشاده، فضلًا عن إنشائه: وكان ﷺ لا يقول الشعر، وإذا أنشد بيتًا أحرز المعنى دون وزنه، كما أنشد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وقيل: من أشعر الناس، فقال الذي يقول:

ألم ترياني كلما جئت طارقا ... وجدت بها وإن لم تطيب طيبًا

(١) الروم: الآية (٥٤).
(٢) التين: الآيتان (٤و٥).
(٣) الحج: الآية (٥).
(٤) النحل: الآية (٧٠).
(٥) غافر: الآية (٦٧).
(٦) الأضواء (٦/ ٢٩٩).
(٧) جامع البيان (٢٣/ ٢٧).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٨٨).

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة

وأنشد يومًا:

كفى بالإسلام والشيب ناهيًا

فقال أبو بكر وعمر: نشهد أنك رسول اللَّه، إنما قال الشاعر: كفى الشيب والإسلام.

وربما أنشد البيت متزنًا في النادر. وروي عنه أنشد بيت ابن رواحة:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ولا يدل إجراء البيت على لسانه متزنًا أنه يعلم الشعر، وقد وقع في كلامه ﷺ ما يدخله الوزن كقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وكذلك قوله:

هل أنتِ إلا أصبع دَميت وفي سبيل اللَّه ما لقيت

وهو كلام من جنس كلامه الذي كان يتكلم به على طبيعته، من غير صنعة فيه ولا قصد لوزن ولا تكلف. كما يوجد في القرآن شيء موزون ولا يعدّ شعرًا، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] وفي كثير من النثر الذي تنشئه الفصحاء، ولا يسمى ذلك شعرًا، ولا يخطر ببال المنشي ولا السامع أنه شعر. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾: أي ولا يمكن له ولا يصح ولا يناسب؛ لأنه ﷺ في طريق جد محض، والشعر أكثره في طريق هزل، وتحسين لما ليس حسنًا، وتقبيح لما ليس قبيحًا ومغالاة مفرطة. جعله تعالى لا يقرض الشعر، كما جعله أميًا لا يخط، لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض»[3].

قال القرطبي: «ولا اعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول، لأن ما وافق وزنُه وزنَ الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر، **ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون**

(١) آل عمران: الآية (٩٢). (٢) الكهف: الآية (٢٩).
(٣) البحر (٧/ ٣٣٠).

الوزن شاعرًا»[١].

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾:

قال ابن كثير: «أي: ما هذا الذي علمناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره. ولهذا قال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[٢] وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ﴾[٣] وإنما ينتفع بنذارته من هو حَيّ القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب حي البصر. وقال الضحاك: يعني: عاقلا ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تمثل النبي ﷺ بالشعر

* قال رجل للبراء بن عازب رضي الله عنه: أفررتم عن رسول اللَّه ﷺ يوم حنين؟ قال: لكن رسول اللَّه ﷺ لم يفرّ، إن هوازن كانوا قومًا رماة، وإنا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا، فأقبل المسلمون على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فأما رسول اللَّه ﷺ فلم يفرّ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[٥].

* عن المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة قال: قيل لها: هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعر ابن رواحة، ويتمثل ويقول:

«ويأتيك بالأخبار من لم تزود»[٦].

* عن جندب بن سفيان أن رسول اللَّه ﷺ كان في بعض المشاهد قد دَميت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٥٥).

(٢) الأنعام: الآية (١٩). (٣) هود: الآية (١٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٩٢).

(٥) أخرجه: البخاري (٦/ ٨٦/ ٢٨٦٤)، ومسلم (٣/ ١٤٠٠/ ١٧٧٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩١/ ٨٦٣٨).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ١٣٨)، والترمذي (٥/ ١٢٨/ ٢٨٤٨)، واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨/ ١٠٨٣٥).

إصبعه فقال:

«هـل أنـتِ إلا أصـبـع دَمـيـت وفـي سـبـيـل الـلّـه مـا لـقـيـت»[١].

* عن البراء بن عازب ﷺ قال: «لما كان يوم الأحزاب، وخَنْدقَ رسول اللَّه ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنّي الترابُ جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب؛ يقول:

الـلـهـمّ لـولا أنـت مـا اهـتـديـنـا ولا تـصـدقّـنـا ولا صـلـيـنـا

فـأنـزِلـنْ سَـكِـيـنـةً عـلـيـنـا وَثـبِّـت الأقْـدام إنْ لاَقَـيـنـا

إنّ الأُلـى قَـد بـغَـوا عـلـيـنـا وإنْ أرادوا فِـتـنـةً أبـيـنـا

قال: ثم يمد صوته بآخرها»[٢].

⋆ من فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «لا يقال: فكيف يصح أن ينسب هذا الشعر للنبي ﷺ مع قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ لأنّا نجيب عن ذلك بأوجه: -فذكر وجهين ثم قال- والثالث: على تسليم أن هذا شعر فلا يلزم منه أن يكون النبي ﷺ عالمًا بالشعر، ولا شاعرًا؛ فإن التمثل بالبيت النّدر، وإصابة القافيتين من الرجز وغيره؛ لا يوجب أن يكون قائلها عالمًا بالشعر، ولا يسمى شاعرًا باتفاق العقلاء. وأما الذي نفى اللَّه عن نبيه ﷺ فهو العلم بالشعر، وأصنافه، وأعاريضه، وقوافيه، والاتصاف بقوله، ولم يكن موصوفًا بشيء من ذلك بالاتفاق، ألا ترى: أن قريشًا تراوضت -فيما يقولون- للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم، فقال بعضهم: نقول: إنه شاعر: فقال أهل الفطنة منهم: واللَّه لتكذبنكم العرب، فإنهم يعرفون أصناف الشعر. فواللَّه ما يشبه شيئًا منها، وما قوله بشعر. وقال أُنيس أخو أبي ذر: لقد وضعتُ قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم أنه شعر. وكان أُنَيس من أشعر العرب.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١٢)، والبخاري (٦/ ٢٣/ ٢٨٠٢)، ومسلم (٣/ ١٤٢١/ ١٧٩٦)، والترمذي (٥/ ٤١١-٤١٢/ ٣٣٤٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٣-١٤٤/ ١٠٣٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٥)، والبخاري (٧/ ٥٠٨/ ٤١٠٦)، ومسلم (٣/ ١٤٣٠/ ١٨٠٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٩/ ٨٨٥٧).

وهذا الوجه هو المعتمد في الانفصال، والله تعالى أعلم»[١].

وقد تقدم الكلام على الشعر عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ في سورة الشعراء.

* * *

(١) المفهم (٣/ ٦١٩-٦٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾

★ غريب الآية:

رَكوبهم: بفتح الراء: أي مركوبهم، كما قالوا حلوب بمعنى محلوب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أو لم ير هؤلاء المشركون باللَّه الآلهة والأوثان ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ يقول: مما خلقنا من الخلق ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ وهي المواشي التي خلقها اللَّه لبني آدم، فسخَّرها لهم من الإبل والبقر والغنم ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ يقول: فهم لها مصرِّفون كيف شاءوا بالقهر منهم لها والضبط.. وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ يقول: وذلّلنا لهم هذه الأنعام، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ يقول: فمنها ما يركبون كالإبل يسافرون عليها، يقال: هذه دابّة رَكوب، والرُّكوب بالضم هو الفعل، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ لحومها. قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولهم في هذه الأنعام منافع، وذلك منافع في أصوافها وأوبارها وأشعارها باتخاذهم من ذلك أثاثًا ومتاعًا، ومن جلودها أكنانا، ومشارب يشربون ألبانها.. وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول: أفلا يشكرون نعمتي هذه، وإحساني إليهم بطاعتي، وإفراد الألوهية والعبادة، وترك طاعة الشيطان، وعبادة الأصنام. قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ يقول: واتخذ هؤلاء المشركون من دون اللَّه آلهة يعبدونها ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: طمعا أن تنصرهم تلك الآلهة من عقاب اللَّه وعذابه»[1].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٨-٢٩).

وقال السعدي: «يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثا ومتاعا إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ اللّه تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعا خاليا من العبرة والفكرة»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٥).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لا تستطيع هذه الآلهة نصرهم من اللَّه إن أراد بهم سوءا، ولا تدفع عنهم ضرا. وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يقول: وهؤلاء المشركون لآلهتهم جند محضرون. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ وأين حضورهم إياهم؛ فقال بعضهم: عنى بذلك: وهم لهم جند محضرون عند الحساب (وهو قول مجاهد). وقال آخرون: بل عنى بذلك وهم لهم جند محضرون في الدنيا يغضبون لهم (وهو قول قتادة).

وهذا الذي قاله قتادة أولى القولين عندنا بالصواب في تأويل ذلك؛ لأن المشركين عند الحساب تتبرأ منهم الأصنام وما كانوا يعبدونه؛ فكيف يكونون لها جندا حينئذ؛ ولكنهم في الدنيا لهم جند يغضبون لهم ويقاتلون دونهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فلا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين باللَّه من قومك لك: إنك شاعر وما جئتنا به شعر ولا تكذيبهم بآيات اللَّه وجحودهم نبوتك. وقوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إنا نعلم أن الذي يدعوهم إلى قيل ذلك الحسد، وهم يعلمون أن الذي جئتهم به ليس بشعر، ولا يشبه الشعر، وأنك لست بكذاب، فنعلم ما يسرون من معرفتهم بحقيقة ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحودهم ذلك بألسنتهم علانية»[1].

وقال السعدي: «هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي اتخذوها مع اللّه تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا أنفسهم

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٩-٣٠).

ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة والقدرة فإذا استطاع، يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فَنَفْيُ الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٥).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

★ غريب الآية:

رميم: الرميم: البالية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «تأويل الكلام: أولم ير هذا الإنسان الذي يقول: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أنا خلقناه من نطفة فسويناه خلقا سويا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ يقول: فإذا هو ذو خصومة لربه، يخاصمه فيما قال له ربه إني فاعل، وذلك إخبار لله إياه أنه محيي خلقه بعد مماتهم، فيقول: من يحيي هذه العظام وهي رميم؛ إنكارا منه لقدرة اللَّه على إحيائها. وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: يبين لمن سمع خصومته وقيله ذلك أنه مخاصم ربه الذي خلقه، وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ يقول: ومثّل لنا شَبَهًا بقوله: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؛ إذ كان لا يقدر على إحياء ذلك أحد، يقول: فجَعَلنا كمن لا يقدر على إحياء ذلك من الخلق ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ يقول: ونسي خلقنا إياه كيف خلقناه، وأنه لم يكن إلا نطفة، فجعلناها خلقا سويا ناطقا، يقول: فلم يفكر في خَلقِناه، فيعلم أن من خلقه من نطفة حتى صار بشرا سويا ناطقا متصرفا لا يعجز أن يعيد الأموات أحياء، والعظام الرميم بشرا كهيئتهم التي كانوا بها قبل الفناء. يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهذا المشرك القائل لك: من يحيي العظام وهي رميم ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يقول: يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئا، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: وهو بجميع خلقه ذو علم؛ كيف يميت وكيف يحيي، ويكف يبدئ وكيف يعيد، لا يخفى عليه شيء من

أمر خلقه»[١].

قال ابن القيم: «فذكّره مبدأ خلقه ليدلّه له على النشأة الثانية، ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل. فَتَحْت قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ألطف جواب، وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئًا: فلان جحدني الإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك؛ ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فهذا جواب واستدلال قاطع، ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه لجميع الخلق، فإنّ تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السموات والأرض، وإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولى ولا عن خلق السموات والأرض؟!»[٢].

وقال أيضًا: «فلو رام أعلمُ البشر وأفصحُهم وأقدرُهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها في ألفاظ تُشابِه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار، ووضوح الدلالة، وصحة البرهان؛ لألفى نفسه ظاهر العجز، منقطع الطمع، يستحي الناس من ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جوابًا، فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ما وفّى بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها؛ وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة؛ لو لم ينس خلق نفسه، وبدأ كونه، وذِكر خلقه؛ لكانت فكرته فيه كافية في جوابه، مسكتة له عن هذا السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ وصرح به جوابًا له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ إذ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٠).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٤١-١٤٢).

كل عاقل يعلم علمًا ضروريًا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه، وعلمه بتفاصيل خلقه؛ أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾؛ فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله وجزئياته، ومواده وصورته وعلله الأربع. وكذلك هو عليم بالخلق الثاني وتفاصيله ومواده، وكيفية إنشائه، فإن كان تام العلم كامل القدرة؛ كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأجساد بعد أن تصير رميما

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظْم حائل ففتّه بيده، فقال: يا محمد! أيبعث الله هذا بعدما أَرِم؟ قال: «**نعم؛ يبعث الله هذا، يميتك ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم**» قال: فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ إلى آخر السورة[٢].

★ غريب الحديث:

حائل: أي مُتَغير، قد غيَّره البِلَى، وكلُّ متغيّر حائلٌ.

أرِم: بليَ.

★ من فوائد الحديث:

أفاد هذا الحديث أن الآية نزلت في العاص بن وائل، وهذه مسألة قد اختلف أهل التأويل فيها.

قال ابن جرير: «اختلف في الإنسان الذي عني بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ فقال بعضهم: عنى به أُبيّ بن خلف.. وقال آخرون: بل عنى به العاص بن

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٣-٤٧٤).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٢٣/ ٣٠)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٠٢)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٢٩) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وائل السهمي»[1].

قال ابن كثير: «وعلى كل تقدير؛ سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبيّ بن خلف، أو العاص، أو فيهما؛ فهي عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجنس، يعمّ كل منكر للبعث»[2].

* عن بُسر بن جِحَاش القرشي أن النبي ﷺ بزق يومًا في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال: **«قال الله: ابنَ آدم! أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سوّيتك وعدّلتك؛ مَشيتَ بين بُردَين، وللأرض منكَ وَئيدٌ، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغَت التراقي؛ قلتَ: أتصدّق، وأنّى أوان الصدقة!»**[3].

⋆ من فوائد الحديث:

المقصود من قوله ﷺ فيما يرويه عن الله ﷻ في هذا الحديث: **«مِن مِثل هذه»** أي: النطفة. فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟![4]

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«كان رجل يُسرِف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذرّوني في الريح، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبَنّي عذابًا ما عذبه أحدًا. فلما مات فُعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه. ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب! خشيتك، فغفر له»**[5].

⋆ من فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «فيه عظم قدرة الله أن جمع جسد المذكور، بعد أن تفرق ذلك التفريق الشديد»[6].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٠). (٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣/ ٢٧٠٧)، وصحح إسناده البوصيري، والحاكم (٤/ ٣٢٣) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) أفاده ابن كثير: التفسير (٦/ ٥٨٠).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩)، والبخاري (٦/ ٦٣٨/ ٣٤٨١)، ومسلم (٤/ ٢١١٠/ ٢٧٥٦)، والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢١/ ٤٢٥٥).

(٦) فتح الباري (١١/ ٣٨٢).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ يقول: الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر نارا تُحْرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجز عن إحياء العظام التي قد رَمَّت، وإعادتها بشَرا سويا، وخلقا جديدا، كما بدأها أول مرة.. قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ يقول: فإذا أنتم من الشجر توقدون النار؛ وقال: ﴿مِّنْهُ﴾ والهاء من ذكر الشجر، ولم يقل: منها، والشجر جمع شجرة، لأنه خرج مخرج الثمر والحصَى، ولو قيل: منها كان صوابا أيضًا، لأن العرب تذكِّر مثل هذا وتؤنِّثه.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ يقول -تعالى ذكره- منبها هذا الكافر الذي قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ على خطأ قولِه، وعظيم جهله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ﴾ مثلكم؛ فإنّ خلق مثلكم من العظام الرميم ليس بأعظم من خلق السَّمَواتِ والأرض. يقول: فمن لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم؛ فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما قد رمَّت وبلِيَت؟ وقوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يقول: بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم، وهو الخلاق لما يشاء، الفعَّال لما يريد، العليم بكل ما خلق ويخلق، لا يخفى عليه خافية»[1].

قال ابن القيم: «أرشد عباده إلى دليل واضح جلي، متضمن للجواب عن شُبه المنكرين بألطف الوجوه، وأبينها وأقربها إلى العقل، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٢).

﴿ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾، فإذن؛ هذا دليل على تمام قدرته وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار من الشجرة الخضراء، وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموت بارد يابس، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة؛ فإذا حل الموت بالجسم لم يكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما. وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوا، بل إذا أوجد اللَّه فيه الحياة وطبْعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة، تخرج منه النار الحارة اليابسة.

ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السموات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، ومن لم تعجِز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس؛ كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟ ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه، مستلزِمَين لما أخبر به فقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فكوْنه خلاّقًا عليمًا يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق»[1].

وقال أيضا: «أكد الأمر بحجة قاهرة، وبرهان ظاهر، يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعتُه حارةً رطبةً، لتقبل صورة الحياة؛ فتولى سبحانه جواب هذا السؤال بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معًا فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾.

فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه؛ هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل؛ فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر،

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٤٢).

فمن قدر على حمل قنطار؛ فهو على حمل أوقية أشد اقتدارًا؛ فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقتهما؛ أقدر على أن يحيي عظامًا صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى؛ كما قال في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[1] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[2]»[3].

* * *

(١) غافر: الآية (٥٧).

(٢) الأحقاف: الآية (٣٣).

(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٧٤-٤٧٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ابن كثير: «أي يأمر بالشيء أمرًا واحدًا لا يحتاج إلى تكرار:

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ؛ قولةً فيكون»[1].

قال ابن القيم: «ثم أخذ سبحانه ذلك وبينه بيانًا آخر، يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبهة كل ملحد وجاحد، وهو أنه ليس في فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكُلفة والتعب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من آلة ومشارِك ومُعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكوَّن ﴿كُن﴾ فإذا هو كائن كما شاءه وأراده. فأخبر عن نفاذ مشيئته وإرادته، وسرعة تكوينه، وانقياد المكوَّن له، وعدم استعصائه عليه»[2].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٩٦).

(٢) الصواعق (٢/ ٤٧٦-٤٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: «فتنزيه الذي بيده مُلك كل شيء وخزائنه. وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: وإليه تردّون وتصيرون بعد مماتكم»[١].

قال ابن القيم: «ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وهو قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فتبارك الذي تكلم بهذا الكلام الذي جمع في نفسه بوجازته، وبيانه، وفصاحته، وصحة برهانه؛ كل ما تلزم الحاجة إليه من تقرير الدليل، وجواب الشبهة، ودحض حجة الملحد، وإسكات المعاند، بألفاظ لا أعذب منها عند السمع، ولا أحلى منها ومن معانيها للقلب، ولا أنفع من ثمرتها للعبد»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من دعاء النبي ﷺ: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»

* عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قمت مع رسول اللَّه ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال: في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة[٣].

* عن حذيفة رضي الله عنه: أنه رأى رسول اللَّه ﷺ يصلي من الليل فكان يقول: «**اللَّه أكبر -ثلاثًا- ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة**»، ثم استفتح فقرأ البقرة،

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٢). (٢) الصواعق (٢/ ٤٧٧).

(٣) أخرجه: أبو داود (١/ ٥٤٤/ ٨٧٣)، والنسائي (٢/ ٥٣٦/ ١٠٤٨)، قال النووي في «الأذكار» (١/ ١٦١-١٦٢/ ١٣٠): «هذا حديث صحيح».

ثم ركع، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم**» ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحوًا من ركوعه، يقول: «**لربيَ الحمد**»، ثم سجد، فكان سجوده نحوًا من قيامه، فكان يقول في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**»، ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوًا من سجوده، وكان يقول: «**رب اغفر لي، رب اغفر لي**» فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام[1].

★ **من فوائد الحديثين:**

قال ابن كثير: «الملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت. ومن الناس من زعم أن (الملك) هو عالم الأجساد، و(الملكوت) هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم»[2].

قوله: «**سبحان ذي الجبروت**»: «فعلوت من الجبر، والملكوت فعلوت من الملك، والتاء للمبالغة، وهو الملك العظيم، الذي يدل عليه المخلوقات العظام؛ كالسماوات والأرض»[3].

قال ابن علان: «الملكوت: الملك والعزة.. والكبرياء بالمد: الترفع والتنزه عن كل نقص.. والعظمة: تجاوز القدر عن الإحاطة. وناسبت هذه الصفات الأربع الركوع والسجود؛ لأن القصد فيهما التعظيم، والثلاثة -قيل العظمة- أعظم مظاهرها»[4].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١/ ٥٤٤/ ٨٧٤)، والنسائي (٢/ ٥٤٥/ ١٠٦٨) وصحح إسناده الألباني في صحيح أبي داود (١/ ١٦٦/ ٧٧٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٩٦).
(٣) بذل المجهود (٥/ ١٤٤).
(٤) الفتوحات الربانية (٢/ ٢٤٩).



سورة الصافات

أغراض السورة

من أغراضها «إثبات وحدانية اللّه تعالى، وسوق دلائل كثيرة على ذلك دلّت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قِبل لغيره بصنعها، وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكانها، ولا قِبل لمن على الأرض أن يتطرق في ذلك، وإثبات أن البعث يعقبه الحشر والجزاء. ووصف حال المشركين يوم الجزاء، ووقوع بعضهم في بعض. ووصف حسن أحوال المؤمنين ونعيمهم، ومذاكرتهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية، ومحاولتهم صرفهم عن الإسلام.

ثم انتقل إلى تنظير دعوة محمد ﷺ قومه بدعوة الرسل من قبله، وكيف نصر اللّه رسله، ورفع شأنهم وبارك عليهم، وأُدمج في خلال ذلك شيء من مناقبهم وفضائلهم وقوتهم في دين اللّه، وما نجاهم اللّه من الكروب التي حفّت بهم، وخاصة منقبة الذبيح، والإشارة إلى أنه إسماعيل، ووصف ما حلّ بالأمم الذين كذبوهم. ثم الإنحاء على المشركين فساد معتقداتهم في اللّه، ونسبتهم إليه الشركاء، وقولهم: الملائكة بنات اللّه، وتكذيب الملائكة إياهم على رؤوس الأشهاد، وقولهم في النبي ﷺ والقرآن، وكيف كانوا يودّون أن يكون لهم كتاب. ثم وعد اللّه رسوله بالنصر كدأب المرسلين ودأب المؤمنين السابقين، وأن عذاب اللّه نازل بالمشركين، وتُخلص العاقبة الحسنى للمؤمنين.

وكانت فاتحتها مناسبة لأغراضها؛ بأن القسَم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية؛ لأن الأصنام لم يدّعوا لها ملائكة، والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق، ولأن الملائكة من جملة المخلوقات الدالّ خلقها على عظم الخالق، ويُؤذن

القسَم بأنها أشرف المخلوقات العلوية.

ثم إن الصفات التي لوحظت في القسم بها مناسِبة للأغراض المذكورة بعدها، فالصافات يناسب عظمة ربها، والزاجرات يناسِب قذفَ الشياطين عن السماوات، ويناسِب تسيير الكواكب وحفظَها من أن يدرك بعضُها بعضا، ويناسب زجرَها الناس في المحشر، والتاليات ذكرا يناسب أحوال الرسول والرسل عليهم الصلاة والسلام وما أرسلوا به إلى أقوامهم.

هذا وفي الافتتاح بالقسم تشويق إلى معرفة المقسَم عليه؛ ليُقبل عليه السامع بشراشره(١)، فقد استكملت فاتحة السورة أحسن وجوه البيان وأكملها»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي بسورة الصافات في الصلاة

* عن عبد اللَّه بن عمر قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يأمر بالتخفيف، ويَؤُمُّنا بالصافات»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «قوله: «**بالتخفيف**» أي: على المؤمنين في الصلاة. «**بالصافات**»: أي: لأن من معه كانوا راغبين في الخيرات، فكانت قراءته ﷺ تخفيفًا في حقهم، فيُعتبر التخفيف في كل قوم على حسب حالهم»(٤).

* * *

---

(١) الشراشر: النفس، وجميع الجسد.

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٨١-٨٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦)، والنسائي (٢/ ٤٣٠-٤٣١/ ٨٢٥) وصححه ابن خزيمة (٣/ ٤٩/ ١٦٠٦) وابن حبان (٥/ ١٢٥/ ١٨١٧).

(٤) حاشية المسند (٨/ ٤١٥).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

الصافات: قال أبو عبيدة: كل شيء بين السماء والأرض لم يَضم قطريه فهو صافّ. والمراد الملائكة. وأصل الصف: جعل الشيء على خط مستو كالصف في الصلاة.

الزاجرات: الملائكة؛ لكونها تنزجر عن المعاصي بأمر اللَّه ونواهيه. أو لأنها تزجر السحب؛ أي: تسوقه. وأصل الزجر: النهي.

التاليات: الملائكة. والتالي: القارئ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أقسم -تعالى ذكره- بالصافات والزاجرات والتاليات ذكرًا، فأما الصافات: فإنها الملائكة الصافات لربها في السماء، وهي جمع صافّة، فالصافات: جمع جمع، وبذلك جاء تأويل أهل التأويل..

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾ فقال بعضهم: هي الملائكة تزجر السحاب تسوقه.. وقال آخرون: بل عنى بذلك آي القرآن التي زجر اللَّه بها عمّا زجر بها عنه في القرآن..

والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا ما قاله مجاهد ومن قال: هم الملائكة؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- ابتدأ القسم بنوع من الملائكة، وهم الصافّون بإجماع من أهل التأويل، فلَأن يكون الذي بعده قسَمًا بسائر أصنافهم أشبه..

وقوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ يقول: فالقارئات كتابًا. واختلف أهل التأويل في المعني بذلك؛ فقال بعضهم: هم الملائكة. وقال آخرون: هو ما يتلى في القرآن من

أخبار الأمم قبلنا»[١].

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ألا تَصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها؟ تُتمّون الصفوف الأوَل، وتراصّون في الصف**». وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥﴾[٢] والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء، والزاجرات: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر اللَّه، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ التي تتلو لكلام اللَّه.

وقيل: الصافات: الطير، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[٤]. و(الزاجرات): الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي اللَّه. و(التاليات): الجامعات لكتاب اللَّه تعالى.

وقيل: صافات القتال في سبيله. فالزاجرات: الخيل للحمل على أعدائه. فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم.

وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة. الزاجرات أنفسها عن معاصي اللَّه. فالتاليات آياته.

واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى: الملائكة؛ فإن الإقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة، وبواسطتها كان»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على تسوية الصفوف اقتداء بالملائكة

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**فُضّلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفُنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء**»[٦].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٣-٣٤).
(٢) الصافات: الآية (١٦٥).
(٣) الملك: الآية (١٩).
(٤) النور: الآية (٤١).
(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٥٤).
(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٣)، ومسلم (١/ ٣٧١/ ٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٥/ ٨٠٢٢).

* عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: **«مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شُمُس؟ اسكنوا في الصلاة»** قال: ثم خرج علينا فرآنا حِلَقًا. فقال: **«مالي أراكم عِزِين؟»** قال: ثم خرج علينا فقال: **«ألا تصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟»** فقلنا: يا رسول الله! وكيف تصفّ الملائكة عند ربها؟ قال: **«يُتمّون الصفوف الأُوَل، ويتراصّون في الصفّ»**[(١)].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن رجب: «اعلم أن الصفوف في الصلاة مما خص اللَّه به هذه الأمة وشرّفها به، فإنهم أشبهوا بذلك صفوف الملائكة في السماء كما أخبر اللَّه عنهم أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾[(٢)] وأقسم بالصافات صفًّا وهم الملائكة»[(٣)].

وقال ابن الملقن: «السر في تسويتها موافقة الملائكة كما تقدم، والمطلوب منها محبة اللَّه لعباده»[(٤)].

وقال النووي: «فيه الأمر بالسكون في الصلاة والخشوع فيها والإقبال عليها، وأن الملائكة يصلون، وأن صفوفهم على هذه الصفة»[(٥)].

وقال: «وفيه الأمر بإتمام الصفوف الأوَل، والتراصّ في الصفوف، ومعنى إتمام الصفوف الأُوَل: أن يتم الأوّل ولا يشرع في الثاني حتى يتم الأوّل، ولا في الثالث حتى يتم الثاني، ولا في الرابع حتى يتم الثالث، وهكذا إلى آخرها»[(٦)].

وقال ابن بطال: «تسوية الصفوف من سنّة الصلاة عند العلماء، وإنه ينبغي للإمام تعاهدُ ذلك من الناس، وينبغي للناس تعاهدُ ذلك من أنفسهم، وقد كان لعمر وعثمان رجال يوكلونهم بتسوية الصفوف، فإذا استوت كبّرا، إلا أنه إن لم يقيموا صفوفهم لم تبطل بذلك صلاتهم»[(٧)].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠١)، ومسلم (١/ ٣٢٢/ ٤٣٠)، وأبو داود (١/ ٤٣١/ ٦٦١)، والنسائي (٢/ ٤٢٧/ ٨١٥)، وابن ماجه (١/ ٣١٧/ ٩٩٢).

(٢) الصافات: الآية (١٦٥).

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٦٨).

(٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٢/ ٥١٤).

(٥) شرح صحيح مسلم (٤/ ١٢٩).

(٦) شرح صحيح مسلم (٤/ ١٢٨).

(٧) شرح صحيح البخاري (٢/ ٣٤٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا هو المقسَم عليه: أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرّف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات، تبدو من المشرق وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله ﷻ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠﴾[1] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾[2] يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر»[3].

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه على توحيد ربوبيته وإلهيته، وقرر توحيد ربوبيته فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾، من أعظم الأدلة على أنه إله واحد، ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركا له في ربوبيته كما شاركه في إلهيته، تعالى اللَّه عن ذلك علوا كبيرا، وهذه قاعدة القرآن، يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرّر كونه معبودا وحده بكونه خالقا رازقا وحده. وخصّ المشارق ههنا بالذكر؛ إما لدلالتها على المغارب؛ إذ الأمر أن المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر. وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار. وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظا من كل شيطان؛ فذِكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق. واللَّه تعالى أعلم»[4].

* * *

(١) المعارج: الآية (٤٠).
(٢) الرحمن: الآية (١٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦).
(٤) التبيان في أقسام القرآن (٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

مارد: المارد: العاتي من الجن والإنس، المتجرد من الخير. ومنه شجرٌ أمرد: لا ورق فيه. ورملة مرداء: لا نبات فيها. ومنه سمي الأمرد: لتجرد وجهه عن الشعر.

دحورًا: الدحور: الدفع بعنف. ودحرته دحرًا ودحورًا: طردته وأبعدته.

واصب: دائم وثابت.

قال أبو الأسود:

لا أَشْتَري الحمْدَ القليلَ بقاؤه   يومًا بذمِّ الدهر أجمعَ واصِبًا

الخطفة: الاستلاب بسرعة. يقال: خطفه واختطفه.

شهاب: الشهاب: شعلة النار الساطعة.

ثاقب: أي: مضيء. يثقب بنوره ما يقع عليه. يقال: أثقِب نارَكَ: أي أوْقِدها. وحَسَبٌ ثاقب شريف.

قال أبو الأسود:

أذاعَ به في الناس حتى كأنه   بِعَلْيَاء نارٌ أوقِدتْ بثُقُوبِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ

ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾[١] وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[٢] فقوله -جل وعلا- ههنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره وحفظناها حفظا ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقَدَره؛ كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله -تبارك وتعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[٣] ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا ۖ﴾ أي: رجما يُدحرون به، ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ويرجمون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال جَلّت عظمته: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[٤].

وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اخْتَطف من الشياطين الخطفةَ، وهي الكلمة يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن كما تقدم في الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: مستنير»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الشياطين تخطَف الكلمة فتقُرّها في أذن الكاهن

* عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «**الملائكة تتحدث في العَنان -والعنان الغمام- بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة فتقُرّها في أذن الكاهن**

---

(١) الملك: الآية (٥).
(٢) الحجر: الآيات (١٦-١٨).
(٣) سبأ: الآية (٢٣).
(٤) الملك: الآية (٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦-٧).

كما تُقَرّ القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة»(١).

★ غريب الحديث:

العَنان: هو السحاب وزنًا ومعنىً، وواحده عَنانة، كسحابة كذلك، وقوله: **«العنان الغمام»** من تفسير بعض الرواة أدرجه في الخبر.

فتقُرّها: بضم القاف وتشديد الراء، وهو الصحيح، قال الخطابي: يقال: قَررتَ الكلام في أذن الأصم: إذا وضعتَ فمك على صماخه فتلقيه فيه. وقال الهروي: إنه ترديد الكلام في أذن الأبكم حتى يفهم(٢).

كما تقر القارورة: يريد به تطبيق رأس القارورة برأس الوعاء الذي يفرغ منها فيه. وقال القابسي معناه: يكون لما يلقيه الكاهن حِسّ كحس القارورة عند تحريكها مع اليد أو على الصفاء. وفي التوضيح: ويقال بالزاي، وهو ما يسمع من حس الزجاجة حين يحك بها على الشيء. وقال الكرماني: **«فتقرها يروى من الإقرار. وقال الداودي: يلقيها كما يستقر الشيء في قراره»**(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «كانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصًا في العرب لانقطاع النبوة فيهم. وهي على أصناف: منها ما يتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضًا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يُلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن؛ حُرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقي من استِراقهم ما يتخطّفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾. وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدًا كما جاء في أخبار شِقّ وسُطيح ونحوهما، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدًا حتى كاد يضمحل ولله الحمد»(٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٧) البخاري (٦/ ٤١٦/ ٣٢٨٨) ومسلم (٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٨).

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٦٣٦).

(٣) عمدة القاري (١٠/ ٦٣٦).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٦٦).

قال الطيبي: «وأصل ذلك أن الملائكة تسمع في السماء ما قضى اللَّه تعالى في كل يوم من الحوادث في الدنيا، فيُحدّث بعضهم بعضًا، فيسترقه الشيطان، فيلقيه إلى الكهنة»[١].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «وظاهر هذا أنهم لا يسمعون كلام الملائكة الذين في السماء الدنيا، وإنما يسمعون كلام الملائكة الذين في السحاب»[٢].

قال الحافظ: «قال الخطابي: بين ﷺ أن إصابة الكاهن أحيانًا إنما هي لأن الجني يلقي إليه الكلمة التي يسمعها استراقًا من الملائكة، فيزيد عليها أكاذيب يَقيسها على ما سمع، فربما أصاب نادرًا وخطؤه الغالب»[٣].

* * *

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن (٩/ ٢٩٨٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٦٥).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

لازب: اللازب: الثابت الشديد الثبوت. ويقال: أمر لازب ولازم ولاتب؛ أي: لا بد منه. قال النابغة:

ولا يحسبون الخيرَ لا شر بعده ... ولا يحسبون الشر ضَرْبَةَ لازِبِ

وقيل: اللازب: الخالص. وقيل: المنتن. وقيل: اللاصق. ومنه قول علي رضي الله عنه:

تَعَلَّمْ فإن اللَّه زادك بسطةً ... وأخلاقَ خيْرٍ كُلُّها لَكَ لازِبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فاستفت يا محمد هؤلاء المشركين الذي ينكرون البعث بعد الممات، والنشور بعد البَلاء: يقول: فسلهم: أهم أشد خلقا؟ يقول: أخلقهم أشد أم خلق من عَدَدنا خلْقه من الملائكة والشياطين والسماوات والأرض؟ وذكر أن ذلك في قراءة عبد اللَّه بن مسعود: (أهم أشد خلقًا أم من عددنا)»[1].

قال القاسمي: «﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: من السماوات والأرض والجبال، كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾[2] وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[3] وفي اضطرارهم إلى الجواب بصغار خلقهم وتضاؤله عما ذكر؛ اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد هذا كشأن البعث وغيره، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤١).
(٢) النازعات: الآية (٢٧).
(٣) غافر: الآية (٥٧).
(٤) محاسن التأويل (١٤/ ٩٩).

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قال ابن جرير: «يقول: إنا خلقناهم من طين لاصق؛ وإنما وصفه -جل ثناؤه- باللزوب لأنه تراب مخلوط بماء، وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء، والتراب إذا خلط بماء صار طينًا لازبًا..

قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ اختلف القَرَأة في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الكوفة: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾، بضم التاء من عجبتُ؛ بمعنى: بل عظم عندي وكبر اتخاذهم لي شريكًا، وتكذيبهم تنزيلي، وهم يسخرون. وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء، بمعنى: بل عجبتَ أنت يا محمد، ويسخرون من هذا القرآن.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

فإن قال قائل: وكيف يكون مصيبا القارئ بهما مع اختلاف معنييهما؟ قيل: إنهما وإن اختلفت معنياهما فكل واحد من معنييه صحيح؛ قد عجب محمدٌ مما أعطاه اللَّه من الفضل، وسخر منه أهل الشرك باللَّه. وقد عجِب ربنا من عظيم ما قاله المشركون في اللَّه، وسخر المشركون بما قالوه»[1].

قال أبو المظفر السمعاني: «وفي بعض الآثار المسندة عن شقيق بن سلمة أنه قال: كنت عند شريح، فقرأت: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ فقال شريح: بئس القراءة هكذا، واللَّه تعالى لا يتعجب من شيء، وهو عالم بالأشياء كلها، فقال شقيق: قد ذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال إبراهيم: إن شريحًا رجل معجب بعلمه، وعبد اللَّه بن مسعود أعلم منه..

فالتعجب من اللَّه ليس هو مثل التعجب من الآدميين، وقد قال اللَّه تعالى في موضع آخر: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[2] وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[3]، فمعنى قوله: ﴿عجبت﴾؛ أي: عظم حلمي عن ذنوبهم، والمتعجّب هو الذي يرى ما يعظُم عنده»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٣).

(٢) التوبة: الآية (٧٩). (٣) البقرة: الآية (١٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦٤).

قال الشنقيطي: «وبذلك تعلم أن هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات العجب لله تعالى، فهي إذن من آيات الصفات على هذه القراءة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العجب لله تعالى

* عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«عجب ربنا ﷻ من رجلين: رجل ثار عن وِطائه ولحافه من بين أهله وحيّه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي! انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيّه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل اللّه ﷻ فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول اللّه ﷻ لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي، حتى أهريق دمه»**[٢].

* عن عقبة بن عامر ﷺ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: **«يعجب ربكم من راعي غنم في رأس شظِيّة بجبل، يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول اللّه ﷻ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة»**[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«عجب اللّه من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»**[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلّهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: **«من يضيف هذا الليلة رحمه اللّه»** فقام رجل من الأنصار، فقال:

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٦)، وأبو داود (٣/ ٤٢-٤٣/ ٢٥٣٦)، وصححه ابن حبان (٦/ ٢٩٧-٢٩٨/ ٢٥٥٧-٢٥٥٨) والحاكم (٢/ ١١٢)، وأقره الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٧) وأبو داود (٢/ ٩/ ١٢٠٣) والنسائي (٢/ ٣٤٨/ ٦٦٥) وصححه ابن حبان (٤/ ٥٤٥/ ١٦٦٠).

(٤) أحمد (٢/ ٣٠٢)، البخاري (٦/ ١٧٩/ ٣٠١٠)، أبو داود (٣/ ١٢٧/ ٢٦٧٧).

أنا يا رسول اللَّه. فانطلق به إلى رَحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: فعَلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأَرِيه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا، وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: **«قد عجب اللَّه من صنيعكما بضيفكما الليلة»**(١).

★ من فوائد الأحاديث:

دلّت هذه الأحاديث على إثبات صفة العجب لله ﷻ على ما يليق بجلاله، وهي موافقة للآية على قراءة حمزة والكسائي بضم التاء من (عجبتُ) على أنها ضمير للرب جل شأنه.

وقد بوب ابن أبي عاصم في السنة(٢): «باب في تعجّب ربنا من بعض ما يصنع عباده مما يتقرب به إليه» ثم ذكر جملة من الأحاديث التي تثبت هذه الصفة.

قال محمد خليل الهراس: «وليس عجبه سبحانه ناشئًا عن خفاء في الأسباب، أو جهل بحقائق الأمور، كما هو الحال في عجب المخلوقين، بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته، وعند وجود مقتضيه، وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجّب منه»(٣).

وقال القاضي أبو يعلى: «لا يمتنع إطلاق ذلك عليه (يعني صفة العجب) وحمله على ظاهره، إذ ليس في ذلك ما يحيل صفاته، ولا يخرجها عما تستحقه؛ لأنّا لا نثبت عجبًا هو تعظيم لأمر دَهَمه استعظمه لم يكن عالـمًا به، لأنه مما لا يليق بصفاته، بل نثبت ذلك صفة كما أثبتنا غيرها من صفاته»(٤).

وقال قوام السنة الأصبهاني: «قال قوم: لا يوصف اللَّه بأنه يعجَب؛ لأن العجب ممن يعلم ما لم يكن يعلم. واحتجّ مثبت هذه الصفة بالحديث وبقراءة أهل الكوفة: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ على أنه إخبار من اللَّه ﷻ عن نفسه»(٥).

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٨١٤/ ٤٨٨٩)، مسلم (٣/ ١٦٢٤/ ٢٠٥٤) الترمذي (٥/ ٣٨١/ ٣٣٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٦/ ١١٥٨٢).

(٢) (١/ ٢٤٩).

(٣) شرح العقيدة الواسطية (ص١٧٠).

(٤) إبطال التأويلات لأخبار الصفات (١/ ٢٤٥).

(٥) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٥٧).

وقال الشيخ ابن عثيمين: «العجب هو استغراب الشيء، ويكون ذلك لسببين: السبب الأول: خفاء الأسباب على هذا المستغرِب للشيء المتعجِّب منه، بحيث يأتيه بغتة بدون توقّع، وهذا مستحيل على اللَّه تعالى؛ لأن اللَّه بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والثاني: أن يكون السبب فيه خروج هذا الشيء عن نظائره، وعما ينبغي أن يكون عليه، بدون قصور من المتعجّب، بحيث يعمل عملًا مستغرَبا لا ينبغي أن يقع من مثله. وهذا ثابت لله ﷻ؛ لأنه ليس عن نقص من المتعجّب، ولكنه عجب بالنظر إلى حال المتعجَّب منه»[1].

* * *

(١) شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾

★ **غريب الآية:**

يستسخرون: يسخرون، كلاهما بمعنى واحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا ذُكِّر هؤلاء المشركون حجج اللَّه عليهم ليعتبروا ويتفكروا، فينيبوا إلى طاعة اللَّه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾: يقول: لا ينتفعون بالتذكير فيتذكروا.. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ يقول: وإذا رأوا حجة من حجج اللَّه عليهم، ودلالة على نبوة نبيه محمد ﷺ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يقول: يسخرون ويستهزؤون»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

داخرون: أي صاغرون أذلاء.

زجرة: أي: صيحة، قاله الحسن. وهي النفخة الثانية. وسميت الصيحة زجرة، لأن المقصود بها الزجر. وأصل الزجر: الطرد بصوت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء المشركون من قريش بالله لمحمد ﷺ: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر مبين، يقول: يبين لمن تأمله ورآه أنه سحر، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يقولون منكرين بعث الله إياهم بعد بلائهم: أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا، ومصيرنا ترابا وعظاما، قد ذهب عنها اللحوم، ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ الذين مضوا من قبلنا فبادوا وهلكوا، يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء: نعم؛ أنتم مبعوثون بعد مصيركم ترابا وعظاما أحياء كما كنتم قبل مماتكم، وأنتم داخرون.. وقوله: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأنتم صاغرون يقول -تعالى ذكره-: وأنتم صاغرون أشد الصغَر، من قولهم: صاغر داخر»[1].

قال ابن كثير: «﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: قل لهم يا محمد: نَعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٥).

(٢) النمل: الآية (٨٧).

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١]»[٢].

قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فإنما هي صيحة واحدة، وذلك هو النفخ في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يقول: فإذا هم شاخصة أبصارهم، ينظرون إلى ما كانوا يوعدونه من قيام الساعة ويعانونه»[٣].

* * *

(١) غافر: الآية (٦٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

★ **غريب الآية:**

يوم الفصل: أي: يوم القيامة. والفصل: قطع القضاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء المشركون المكذبون إذا زُجرت زجرة واحدة، ونفخ في الصور نفخة واحدة: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يقولون: هذا يوم الجزاء والمحاسبة.. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا يوم فصل اللّٰه بالعدل من قضائه، الذي كنتم به تكذبون في الدنيا فتنكرونه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٥-٤٦).

قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾

★ غريب الآية:

اهدوهم: أي: دلوهم. يقال: هديته إلى الطريق، وهديته الطريق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معنى ذلك: اجمعوا الذين كفروا باللَّه في الدنيا وعَصَوه، وأزواجَهم وأشياعهم على ما كانوا عليه من الكفر باللَّه، وما كانوا يعبدون من دون اللَّه من الآلهة.. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: احشروا هؤلاء المشركين وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون اللَّه، فوجهوهم إلى طريق الجحيم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٦-٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[١] وهو توبيخ لهم»[٢].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقفوهم احبسوهم: أي احبسوا أيها الملائكة هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون اللَّه من الآلهة، ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ فاختلف أهل التأويل في المعنى الذي يأمر اللَّه -تعالى ذكره- بوقفهم لمسألتهم عنه، فقال بعضهم: يسألهم هل يعجبهم ورود النار.. وقال آخرون: بل ذلك للسؤال عن أعمالهم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وقفوا هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وأزواجهم؛ إنهم مسؤولون عما كانوا يعبدون من دون الله»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سؤال العباد يوم القيامة عن أعمالهم

* عن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»**[٤].

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث يعضد قول من قال: إن المراد بالسؤال في الآية العموم؛ أي: أنهم يسألون عن أعمالهم ويوقفون على قبحها. وممن رجح هذا ابن عطية[٥].

---

(١) الأنعام: الآية (٢٧). (٢) البحر المحيط (٧/ ٣٤١).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ٤٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٢٩/ ٢٤١٧) والدارمي في سننه (١/ ١٣٥) وأبو يعلى (١٣/ ٤٢٨/ ٧٤٣٤) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. (٥) المحرر الوجيز (٤/ ٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾

★ **غريب الآية:**

مستسلمون: أي: منقادون، خاضعون. والمستسلم: الذي يلقي بيده لا يُنازِع فيما يراد منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: مالكم أيها المشركون لا ينصر بعضكم بعضا ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ يقول: بل هم اليوم مستسلمون لأمر الله فيهم وقضائه، موقنون بعذابه»[١].

وقال الزمخشري: «هذا تهكم بهم، وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ قد أسلم بعضهم بعضا، وخذله عن عجز، فكلهم مستسلم غير منتصر»[٢].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾:

قال ابن جرير: «قيل: معنى ذلك: وأقبل الإنس على الجن يتساءلون»[٣].

قال ابن عطية: «هذه الجماعة التي يُقبِل بعضها على بعض هي إنس وجن. قاله قتادة. وتساؤلهم هو على معنى التقريع واللوم والتسخط»[٤].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٨).

(٢) الكشاف (٣/ ٣٣٨).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ٤٨).

(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾

⋆ غريب الآية:

سلطان: أي: قوة فنجبركم على الكفر. وقيل: حجة في ترك الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قالت الإنس للجن: إنكم أيها الجن كنتم تأتوننا من قِبل الدِّين والحق، فتخدعوننا بأقوى الوجوه، واليمين القوة والقدرة في كلام العرب.. وقوله: ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قالت الجن للإنس مجيبة لهم: بل لم تكونوا بتوحيد اللّٰه مقرين، وكنتم للأصنام عابدين ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾ يقول: قالوا: وما كان لنا عليكم من حجة فنصدّكم بها عن الإيمان، ونحول بينكم من أجلها وبين اتباع الحق، ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾ يقول: قالوا لهم: بل كنتم أيها المشركون قوما طاغين على اللّٰه، متعدّين إلى ما ليس لكم التعدّي إليه من معصية اللّٰه وخلاف أمره»[1].

وقال ابن كثير: «يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دَرَكات النار، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾[2]. وقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٤٩-٥٠).

(٢) غافر: الآيتان (٤٧و٤٨).

مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١]»[٢].

* * *

(١) سبأ: الآيات (٣١-٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٠).

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حق: وجب. وأصل الحق: الثبوت. يقال: حق الأمرُ: إذا ثبت واستقر.

فأغويناكم: أي: زينا لكم الباطل وحملناكم عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ فوجب علينا عذاب ربنا، ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يقول: إنا لذائقون العذاب نحن وأنتم بما قدمنا من ذنوبنا ومعصيتنا في الدنيا، فهذا خبر من اللَّه عن قيل الإنسان والجن . . وقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ يقول: فأضللناكم عن سبيل اللَّه والإيمان به، إنا كنا ضالين، وهذا أيضًا خبر من اللَّه عن قيل الجن والإنس، قال اللَّه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يقول: فإن الإنس الذين كفروا باللَّه وأزواجَهم وما كانوا يعبدون من دون اللَّه، والذين أغووا الإنس من الجن يوم القيامة، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ جميعًا في النار كما اشتركوا في الدنيا على معصية اللَّه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن هؤلاء المشركين بالله، الذين وصف صفتهم في هذه الآيات؛ كانوا في الدنيا إذا قيل لهم: قولوا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقول: يتعظّمون عن قيل ذلك ويتكبرون، وترك من الكلام: (قولوا)؛ اكتفاء بدلالة الكلام عليه من ذكره.. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ يقول -تعالى ذكره-: ويقول هؤلاء المشركون من قريش: أنترك عبادة آلهتنا لشاعر مجنون؟ يقول: لاتباع شاعر مجنون -يعنون بذلك نبي الله ﷺ- ونقول: لا إله إلا الله؟!»[1].

قال أبو حيان: «وقولهم: ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؛ تخليط في كلامهم، وارتباك في غيّهم؛ فإن الشاعر هو مَن عنده من الفهم والحذق وجودة الإدراك ما ينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونًا لا يصل إلى شيء من ذلك.

ثم أضرب تعالى عن كلامهم، وأخبر بأنه جاء بالحق، وهو إثبات الذي لا يلحقه اضمحلال، فليس ما جاء به شعرًا، بل هو الحق الذي لا شك فيه. ثم أخبر أنه صدّق من تقدمه من المرسلين، إذ هو وهُم على طريقة واحدة في دعوى الأمم إلى التوحيد، وترك عبادة غيره»[2].

وقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾:

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥١).
(٢) البحر (٧/ ٣٤٣).

قال ابن جرير: «هذا خبر من اللَّه مكذبًا للمشركين الذين قالوا للنبي ﷺ: شاعر مجنون، كَذَبوا، ما محمد كما وصفوه به من أنه شاعر مجنون، بل هو لله نبي، جاء بالحق من عنده، وهو القرآن الذي أنزله عليه، وصدق المرسلين الذين كانوا من قبله»[1].

قال ابن القيم: «إن مجيئه تصديقٌ لهم من جهتين: من جهة إخبارهم بمجيئه ومبعثه، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به، ومطابقة ما جاء به لِما جاءوا به؛ فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يُعلم إلا بالوحي، ثم جاء نبيّ آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان، ولا تلقى عنه ما جاء به، وأخبر بمثل ما أخبر به سواء؛ دلّ ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان، ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته -بحيث يُعلم أنه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمن تلقى عنه- فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواء؛ فإنه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني.

والمعنى الثاني: أنه لم يأت مكذِّبا لمن قبله من الأنبياء، مزريا عليهم، كما يفعل الملوك المتغلبون على الناس بمن تقدمهم من الملوك، بل جاء مصدقا لهم، شاهدا بنبوتهم، ولو كان كاذبا متقوّلا منشئا من عنده سياسة؛ لم يصدِّق من قبله، بل كان يزري بهم، ويطعن عليهم، كما يفعل أعداء الأنبياء»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في استكبار المشركين عن قول لا إله إلا الله

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إني أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: (لا إله إلا الله) فمن قال: (لا إله إلا الله)، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله**». وأنزل اللَّه في كتابه، فذكر قومًا استكبروا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥١).
(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٤٨٠).

﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[(١)] وهي: (لا إله إلا اللَّه، محمد رسول الله)، استكبر عنها المشركون يوم الحديبية»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عطية: «هؤلاء أهل الجرم الذين جهلوا اللَّه تعالى وعظموا أصنامًا وأوثانًا، فإذا قيل لهم: لا إله إلا اللَّه -وهي كلمة الحق والعروة الوثقى-؛ أصابهم كِبر، وعظُم عليهم أن يتركوا أصنامهم وأصنام آبائهم. ونحو هذا كان فعل أبي طالب حين قال له رسول اللَّه ﷺ: «**أي عمّ! قل: لا إله إلا اللَّه، كلمة أشهد لك بها عند الله**» فقال أبو جهل: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال آخِرَ ما قال: أنا على ملة عبد المطلب[(٣)].

وبِعرْض قول (لا إله إلا الله) جرت السنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة، ويخضعوا لها»[(٤)].

وقال شيخ الإسلام: «فقد تبين أن المستكبر يصير مشركًا إما بعبادة آلهة أخرى مع استكباره عن عبادة اللَّه، لكن تسمية هذا شركًا نظير من امتنع مع استكباره عن إخلاص الدين لله كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهؤلاء مستكبرون مشركون، وإنما استكبارهم عن إخلاص الدين لله»[(٥)].

* * *

---

(١) الفتح: الآية (٢٦).

(٢) أخرجه بتمامه: ابن جرير (٢٦/ ١٠٣-١٠٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٢٦٣-٢٦٤/ ١٩٦)، وصححه ابن حبان (١/ ٤٥١-٤٥٢/ ٢١٨) وأصله عند أحمد (٢/ ٤٢٣)، والبخاري (٦/ ١٣٨/ ٢٩٤٦)، ومسلم (١/ ٥٢/ ٢١[٣٣])، وأبو داود (٣/ ١٠١/ ٢٦٤٠)، الترمذي (٥/ ٥/ ٢٦٠٦)، والنسائي (٦/ ٣١١-٣١٢/ ٣٠٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥/ ٣٩٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٣)، البخاري (٨/ ٦٤٩/ ٤٧٧٢)، مسلم (١/ ٥٤/ ٢٤)، النسائي (٤/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٢٠٣٤) عن سعيد بن المسيب عن أبيه.

(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٤٧١).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المشركين من أهل مكة القائلين لمحمد: شاعر مجنون ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ الموجع في الآخرة، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ يقول: وما تثابون في الآخرة إذا ذقتم العذاب الأليم فيها ﴿إِلَّا﴾ ثواب ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا معاصي الله»[1].

قال ابن عاشور: «في هذا دليل على أن الكفار مجازون على أعمالهم السيئة من الأقوال والأعمال، كتمجيد آلهتهم والدعاء لها، وتكذيب الرسول ﷺ وأذاه وأذى المؤمنين، وقولهم في أصنامهم: إنهم شفعاء عند اللَّه، وفي الملائكة: إنهم بنات اللَّه، ومِن قتل الأنفس، والغارة على الأموال، ووأد البنات، والزنى؛ فإن ذلك كله مما يزيدهم عذابا، وهو يؤيد قول الذين ذهبوا إلى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وأن ذلك واقع»[2].

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

قال ابن جرير: «يقول: إلا عباد اللَّه الذين أخلصهم يوم خلقهم لرحمته، وكتب لهم السعادة في أم الكتاب؛ فإنهم لا يذوقون العذاب؛ لأنهم أهل طاعة اللَّه وأهل الإيمان به»[3].

وقال ابن كثير: «ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[4]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٩).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ٥٢).

(٤) سورة العصر.

سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[١]، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝﴾[٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝﴾[٣] ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء اللَّه من التضعيف»[٤].

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝﴾:

قال ابن جرير: «يقول: هؤلاء هم عباد اللَّه المخلصون، ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ وذلك الرزق المعلوم هو الفواكه التي خلقها اللَّه لهم في الجنة»[٥].

* * *

---

(١) التين: الآيات (٤-٦).

(٢) مريم: الآيتان (٧١و٧٢).

(٣) المدثر: الآيتان (٣٨و٣٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٢).

(٥) جامع البيان (٢٣/ ٥٢).

قوله تعالى : ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾

★ غريب الآية:

معين: يقال: معنَ الماءُ: جرى. فهو معين.

لا فيها غول: الغول هنا: ذهاب العقل. وأصله: إهلاك الشيء في خفاء. ومنه اغتاله: إذا قتله من حيث لا يشعر. قال الشاعر:

ومَا زَالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأولِ الأولِ

ينزفون: أي: تذهب بعقولهم. يقال: نَزِفَ الرجلُ، فهو نزيف ومنزوف: إذا سكِر. قال امرؤ القيس:

وإذْ هي تمشي كمشي النزيـ ـف يَصْرعُهُ بِالْكَثِيبِ الْبُهرْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ ردًّا على الرزق المعلوم تفسيرا له، ولذلك رفعت، وقوله: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ يقول: وهم مع الذي لهم من الرزق المعلوم في الجنة مكرمون بكرامة اللَّه التي أكرمهم اللَّه بها ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يعني: في بساتين النعيم، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ يعني: أن بعضهم يقابل بعضا، ولا ينظر بعضهم في قَفَا بعض.

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: يطوف الخدم عليهم بكأس من خمر جارية ظاهرة لأعينهم غير غائرة.. وقوله: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يعني: بيضاء الكأس، ولتأنيث الكأس أُنثت البيضاء، ولم يقل: أبيض، وذكر أن ذلك في قراءة عبد الله: صفراء.. وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يقول: هذه الخمر لذة يتلذذ بها شاربها. وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يقول: لا في هذه الخمر

غول، وهو أن تغتال عقولهم، يقول: لا تذهب هذه الخمر بعقول شاربيها كما تذهب بها خمور أهل الدنيا إذا شرِبوها فأكثروا منها. . وقد يحتمل قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أن يكون معنيا به: ليس فيها ما يؤذيهم من مكروه، وذلك أن العرب تقول للرجل يصاب بأمر مكروه، أو يُنال بداهية عظيمة: غال فلانًا غولٌ. وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم: ليس فيها صداع. . وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليس فيها أذى فتَشكّى منه بطونهم. . وقال آخرون: معنى ذلك أنها لا تَغُول عقولهم. . وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليس فيها أذى ولا مكروه. . وقال آخرون: بل معنى ذلك: ليس فيها إثم. .

ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها وجه؛ وذلك أن الغول في كلام العرب: هو ما غال الإنسان فذهب به، فكل من ناله أمر يكرهه ضربوا له بذلك المثل فقالوا: غالت فلانًا غوْل، فالذاهب العقل مِن شُرب الشراب، والمشتكي البطنَ منه، والمُصَدّع الرأس من ذلك، والذي ناله منه مكروه؛ كلهم قد غالته غَولٌ، فإذا كان ذلك كذلك، وكان اللَّه -تعالى ذكره- قد نفى عن شراب الجنة أن يكون فيه غول؛ فالذي هو أولى بصفته أن يقال فيه كما قال -جل ثناؤه-: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فيعم بنفي كل معاني الغول عنه، وأعم ذلك أن يقال: لا أذى فيها ولا مكروه على شاربيها في جسم ولا عقل ولا غير ذلك»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٢-٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾

★ **غريب الآية:**

قاصرات الطرف: أي نساء قصرن طرفهن على أزواجهن؛ فلا ينظرن إلى غيرهم. والقصر معناه: الحبس. والطرف: الجفن.

قال امرؤ القيس:

من القاصرات الطرف لو دَبَّ مُحْوِلُ   من الذَّرِّ فَوْقَ الإتْبِ مِنْهَا لأَثَّـرَا

مكنون: مصون، محفوظ. مِن كَنَنْتُ الشيءَ: إذا سَتَرْته وصُنْته.

قال الشاعر:

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوّاص   مُـيـزَت مـن جَـوهـرٍ مـكْـنـون

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وعند هؤلاء المخلصين من عباد اللَّه في الجنة قاصرات الطرف، وهن النساء اللواتي قصرن أطرافهن على بعولتهن ولا يردن غيرهم، ولا يَمددن أبصارهن إلى غيرهم.. وقوله: ﴿عِينٌ﴾ يعني بالعين: النُّجْل العيون: عظامُها، وهي جمع عيناء، والعيناء: المرأة الواسعة العين عظيمتها، وهي أحسن ما تكون من العيون..

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ اختلف أهل التأويل في الذي به شُبهن من البَيض بهذا القول؛ فقال بعضهم: شبهن ببطن البيض في البياض، وهو الذي داخل القشر، وذلك أن ذلك لم يمسّه شيء.. وقال آخرون: بل شبهن بالبيض الذي يَحضُنه الطائر، فهو إلى الصفرة؛ فشُبه بياضهن في الصفرة بذلك.. وقال آخرون: بل عنى بالبيض في هذا الموضع: اللؤلؤ، وبه شُبهن في بياضه وصفائه..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: شبهن في بياضهن وأنهن لم يمسهن قبل أزواجهن إنس ولا جان؛ ببياض البَيض الذي هو داخل القشر، وذلك

هو الجلدة الملبَسة المُحّ قبل أن تمسه يد أو شيء غيرها ، وذلك لا شك هو المكنون ، فأما القشرة العليا ؛ فإن الطائر يمسها ، والأيدي تباشرها ، والعشّ يلقاها ، والعرب تقول لكل مصون : مكنون ما كان ذلك الشيء لؤلؤًا كان أو بَيضًا أو متاعًا»[1] .

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٦-٥٨).

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾

★ غريب الآية:

لمدينون: أي: مجزيون، محاسبون. من قولهم: كما تدين تدان.

سواء الجحيم: وسطها. يقال: تَعِبْتُ حتى انقطع سَوَائِي؛ أي: وسطي.

لتردين: لتهلكني. من الردى: وهو الهلاك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون؛ أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال قائل من أهل الجنة إذ أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ فاختلف أهل التأويل في القرين الذي ذكر في هذا الموضع، فقال بعضهم: كان ذلك القرين شيطانًا، وهو الذي كان يقول له:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥).

﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث بعد الممات. (وهذا قول مجاهد).. وقال آخرون: ذلك القرين شريك كان لهم من بني آدم، أو صاحب. (وهذا قول ابن عباس»)[1].

قال ابن كثير: «ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاديان، قال اللَّه تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[2] وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[3]»[4].

قوله: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾:

قال ابن جرير: «كأنه قال: أتُصدّق بأنك تبعث بعد مماتك، وتجزى بعملك وتحاسب؟ وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ يقول: أإنا لمحاسبون ومجزيون بعد مصيرنا عظامًا، ولحومنا ترابًا.. قوله: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال هذا المؤمن الذي أدخل الجنة لأصحابه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ في النار، لعلّي أرى قريني الذي كان يقول لي: إنك لمن المصدّقين بأنّا مبعوثون بعد الممات؟ وقوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ يقول: فاطلع في النار فرآه في وسط الجحيم.. وقوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ يقول: فلما رأى قرينه في النار قال: تاللَّه إن كدتّ في الدنيا لتهلكني بصدّك إياي عن الإيمان بالبعث والثواب والعقاب.. وقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ يقول: ولولا أن اللَّه أنعم عليّ بهدايته، والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت؛ لكنتُ من المحضرين معك في عذاب الله»[5].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٨).
(٢) الأنعام: الآية (١١٢).
(٣) سورة الناس.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥).
(٥) جامع البيان (٢٣/ ٥٨-٦٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل هذا المؤمن، الذي أعطاه اللَّه ما أعطاه من كرامته في جنته سرورا منه بما أعطاه فيها ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يقول: أفما نحن بميتين غير موتتنا الأولى في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾ يقول: وما نحن بمعذبين بعد دخولنا الجنة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠﴾ يقول: إن هذا الذي أعطاناه اللَّه من الكرامة في الجنة، أنا لا نعذب ولا نموت؛ لهو النَّجاء العظيم مما كنا في الدنيا نحذر من عقاب اللَّه، وإدراك ما كنا فيها نؤمّل بإيماننا وطاعتنا ربنا.. وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ يقول -تعالى ذكره-: لمثل هذا الذي أعطيتُ هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة؛ فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون، ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم»[(١)].

قال صديق حسن خان: «أي: لنيل مثل هذا العطاء والفضل العظيم ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، فإن هذه هي التجارة الرابحة، لا العمل للدنيا الزائلة، وحظوظها المشوبة بالآلام، السريعة الانصرام، فإنها صفقة خاسرة، نعيمها منقطع، وخيرها زائل، وصاحبها عن قريب منها راحل»[(٢)].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٦٢).
(٢) فتح البيان (١١/ ٣٩١).

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الزقوم: عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير: زقَم فلان وتزقم: إذا ابتلع شيئا كريها.

طَلْعُها: أي: ثمرها، سمي طلعًا لطلوعه.

أصل الجحيم: أي: قعر النار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: أهذا الذي ذَكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ؛ خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي: التي في جهنم.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1]، يعني الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾[2].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾، قال قتادة: ذُكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل

---

(١) المؤمنون: الآية (٢٠).

(٢) الواقعة: الآيتان (٥١و٥٢).

الشجر، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤﴾ غذيت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾ قال أبو جهل -لعنه الله-: إنما الزقوم التمر والزُّبْد أتزقمه[1].

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[2].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤﴾ أي: أصل منبتها في قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها.. وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رءوسها بشعة المنظر.

وقيل: جنس من النبات، طلعه في غاية الفحاشة.

وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطَّعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾[3]»[4].

---

(١) أي: أتلقّمه.

(٢) الإسراء: الآية (٦٠).

(٣) الغاشية: الآيتان (٦و٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٩-٢٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في وصف الزقوم الذي جعله اللَّه فتنة للظالمين

* عن ابن عباس ﵄ قال: إن رسول اللَّه ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] قال رسول اللَّه ﷺ: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا؛ لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «قوله: «**لو أن قطرة من الزقّوم**» شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم والريح، ويُكره أهلُ النار على تناولها؛ «**قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟**» قال: حين قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[3] قال أبو الدرداء: (يُلقى عليهم الجوع حتى يعدِل ما بهم من العذاب، فيستغيثون، فيغاثون بطعام ذي غصة وعذاب أليم)، والقصد بهذا الحديث وما أشبهه: التنبيه على أن أدوية القلوب استحضار أحوال الآخرة، وأحوال أهل الشقاء وديارهم، فإن النفس مشغولة بالتفكر في لذائذ الدنيا، وقضاء الشهوات، وما من أحد إلا وله في كل حالة ونفَس من أنفاسه شهوة سلطت عليه، واسترقّته فصار عقله مسخرًا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة أولَ مباشرة قضاءِ الشهوة، فعلاج ذلك أن تقول لقلبك: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده من أهوال الموقف، ثم عذابُ جهنم وطعامُ أهلها وشرابُهم فيها يورِد على فكره مثلَ هذا الحديث، ويقول: كيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على أدنى آلام الدنيا»[4].

* * *

---

(١) آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠١)، والترمذي (٤/ ٦٠٩/ ٢٥٨٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٣/ ١١٠٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٦/ ٤٣٢٥)، وصححه ابن حبان (١٦/ ٥١١/ ٧٤٧٠) والحاكم (٢/ ٢٩٤) ووافقه الذهبي

(٣) آل عمران: الآية (١٠٢).

(٤) فيض القدير (٥/ ٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾

★ غريب الآية:

شَوْبًا: الشّوب: بفتح الشين وضمها، الخَلْطُ. وكل شيء خلطته فهو مشوب

يهرعون: أي: يسرعون. يقال: هَرَعَ وأَهْرَعَ: إذا اسْتَحَثَّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم، وقال في رواية عنه: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مزجا من حميم.

وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لَإلَى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾[1]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي. وقال السدي في قراءة عبد الله: (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم) وكان عبد الله يقول: (والذي نفسي بيده! لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾[2]).. قلت: على هذا التفسير تكون ثم عاطفة لخبر على خبر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة، فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا

(١) الرحمن: الآية (٤٤).
(٢) الفرقان: الآية (٢٤).

قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يَسفَهون»[١].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذُكر من فنون العذاب بتقليد الآباء في الدِّينِ من غير أنْ يكونَ لهم ولا لآبائِهم شيءٌ يُتمسَّكُ به أصلًا؛ أي: وَجَدوهم ضالِّين في نفس الأمر، ليس لهم ما يَصلُح شبهةً؛ فضلًا عن صلاحيةِ الدَّليلِ، ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ من غير أنْ يتدبروا أنَّهم على الحقِّ أو لا، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمُّلٍ. والإهراعُ: الإسراع الشَّديدُ، كأنَّهم يُزعَجون ويُحثُّون حثًّا على الإسراع على آثارِهم. وقيل هو إسراعٌ فيه شبه رِعْدة»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢١-٢٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ١٩٤-١٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لقد ضل يا محمد! عن قصد السبيل ومَحجة الحق قبل مشركي قومك من قريش أكثرُ الأمم الخالية من قبلهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ يقول: ولقد أرسلنا في الأمم التي خلت من قبل أمتك، ومن قبل قومك المكذبيك منذرين تنذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فكذبوهم ولم يقبلوا منهم نصائحهم، فأحللنا بهم بأسنا وعقوبتنا ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ يقول: فتأمل وتبين كيف كان غِبُّ أمر الذين أنذرتْهُم أنبياؤنا، وإلام صار أمرهم، وما الذي أعقبهم كفرُهم بالله، ألم نهلكهم فنصيّرهم للعباد عبرة، ولمن بعدهم عظة؟.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ يقول تعالى: فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين، إلا عباد الله الذين أخلصناهم للإيمان بالله وبرسله، واستثنى عباد الله من المنذَرين، لأن معنى الكلام: فانظر كيف أهلكنا المنذَرين إلا عباد الله المؤمنين، فلذلك حسن استثناؤهم منهم»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلًا؛ فذكر نوحًا ﷺ، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب اللَّه لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: فلنعم المجيبون له»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد نادانا نوح بمسألته إيانا هلاك قومه، فقال ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[2] إلى قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3] وقوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ يقول: فلنعم المجيبون كنا له إذ دعانا، فأجبنا له دعاءه، فأهلكنا قومه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ يعني: أهل نوح الذين ركبوا معه في السفينة.. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يقول: من الأذى والمكروه الذي كان فيه من الكافرين، ومن كَرْب الطُّوفان والغرق الذي هلك به قوم نوح.. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ يقول: وجعلنا ذريّة نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مَهْلِك قومه، وذلك أن الناس كلهم من بعد مَهْلِك نوح إلى اليوم إنما هم ذرية نوح، فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح، والترك والصقالبة والخَزَر أولاد يافث بن نوح، والسودان أولاد حام بن نوح، وبذلك جاءت الآثار، وقالت العلماء»[4].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٢).
(٢) نوح: الآية (٥-٦).
(٣) نوح: الآية (٢٦).
(٤) جامع البيان (٢٣/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٨٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨﴾: وأبقينا عليه، يعني على نوح ذِكرًا جميلًا، وثناء حسنا في الآخرين، يعني: فيمن تأخر بعده من الناس يذكرونه به.. وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ يقول: أَمَنةٌ من اللَّه لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء»[1].

قال الزمخشري: «فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ قلت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعًا، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثَبَّت اللَّه التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلين؛ يسلمون عليه عن آخرهم، علل مجازاة نوح ﷺ بتلك التكرمة السنية، من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنًا، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا، ليُريك جَلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغّبك في تحصيله والازدياد منه»[2].

قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا كما فعلنا بنوح مجازاةً له على طاعتنا وصبره على أذى قومه في رضانا ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ وأبقينا عليه ثناء في الآخرين ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ الذين يحسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا. وقوله ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ يقول: إن نوحا من عبادنا الذين آمنوا

(١) جامع البيان (٢٣/ ٦٨).
(٢) الكشاف (٣/ ٣٤٣-٣٤٤).

بنا، فوحّدونا، وأخلصوا لنا العبادة، وأفردونا بالألوهة»[١].

قال السعدي: «ودل قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨١﴾ أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه؛ لأن اللّه مدح به خواص خلقه»[٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم أغرقنا حين نجَّينا نوحا وأهله من الكرب العظيم مَن بقي من قومه»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٦٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٨٥).
(٣) جامع البيان (٢٣/ ٦٩).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾

★ غريب الآية:

شيعته: الشيعة: كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فيه.

أئفكًا: الإفك: أسوأ الكذب.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن من أشياع نوح على منهاجه وملّته -والله- لإبراهيمَ، خليل الرحمن.. وقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ يقول -تعالى ذكره-: إذ جاء إبراهيم ربه بقلب سليم من الشرك، مخلصا له التوحيد.. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥﴾ يقول: حين قال -يعني إبراهيم لأبيه وقومه-: أي شيء تعبدون. وقوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾ يقول: أكذبًا معبودًا دون اللَّه تريدون»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٦٩-٧٠).

قوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

★ غريب الآية:

راغ: مال. يقال: راغ يروغ روْغًا ورَوَغانًا: إذا مال. وطريق رائغ: أي مائل. قال الشاعر:

ويُرِيكَ من طَرَفِ اللسانِ حلاوةً ... ويروغُ عنك كما يروغ الثعلبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يقول: فأي شيء تظنون -أيها القوم!- أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره.. وقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ ذُكر أن قومه كانوا أهل تنجيم، فرأى نجما قد طلع، فعَصّب رأسه وقال: إني مَطْعُون، وكان قومه يهرُبون من الطاعون، فأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم، ويخرجوا عنه، ليخالفهم إليها فيكسرها»[1].

قال ابن عاشور: «وما وقع في التفاسير في معنى نظره في النجوم، وفي تعيين سُقمه المزعوم، كلام لا يُمتع بين موازين الفهوم، وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص. ومن يزعم ذلك فقد ضل دينًا، واختل نظرا وتخمينا. وقد دونوا كذبا كثيرا في ذلك وسموه علم أحكام الفَلَك أو النجوم»[2].

وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾:

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٢).

قال ابن جرير: «أي: طعين، أوْ لِسُقم كانوا يهربون منه إذا سمعوا به، وإنما يريد إبراهيم أن يخرجوا عنه، ليَبْلغ من أصنامهم الذي يريد.

واختلف في وجه قِيلِ إبراهيم لقومه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وهو صحيح، فروي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «لَم يَكْذِبْ إبراهِيمُ إلا ثلاث كذبات».. وقال آخرون: إن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كلمة فيها مِعْراض، ومعناها أن كل مَن كان في عَقَبة الموت فهو سقيم، وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر، والخبر عن رسول اللَّه ﷺ بخلاف هذا القول. وقول رسول اللَّه ﷺ هو الحق دون غيره.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾ يقول: فتولّوا عن إبراهيم مدبرين عنه، خوفا من أن يعدِيَهُمْ السقم الذي ذَكَر أنه به.. وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فمال إلى آلهتهم بعد ما خرجوا عنه وأدبروا، وأرى أن أصل ذلك من قولهم: راغ فلانٌ عن فلان: إذا حاد عنه، فيكون معناه إذا كان كذلك: فراغ عن قومه والخروج معهم إلى آلهتهم.. وقوله: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ هذا خبر من اللَّه عن قيل إبراهيم للآلهة، وفي الكلام محذوف استغني بدلالة الكلام عليه من ذكره، وهو: فقرّب إليها الطعام فلم يرها تأكل، فقال لها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فلما لم يرها تأكل قال لها: ما لكم لا تأكلون، فلم يرها تنطق، فقال لها: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ مستهزئا بها، وكذلك ذكر أنه فعل بها»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ من كذبات إبراهيم عليه السلام في ذات اللَّه تعالى

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات اللَّه عز وجل: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[2]».

وقال: «**بينا هو ذات يوم وسارة؛ إذ أتى على جبار من الجبابرة؛ فقيل له: إن ههنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال أختي. فأتى سارة قال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن**

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٧٠-٧٢).

(٢) الأنبياء: الآية (٦٣).

هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ. فقال: ادعي اللَّه لي ولا أضرك، فدعت اللَّه فأُطلق. ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي اللَّه لي ولا أضرك، فدعت فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رد اللَّه كيد الكافر -أو الفاجر- في نحره، وأخدم هاجر». قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

* عن مطرف قال: صحبت عمران بن حصين من الكوفة إلى البصرة، فقلّ منزل ينزله إلا وهو ينشد شعرًا وقال: «**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**»[2].

⋆ غريب الحديث:

المعاريض: التورية بالشيء عن الشيء، وهي من التعريض خلاف التصريح. يقال: عرّض الكاتب إذا كتب مُثَبِّجًا ولم يبيّن الحروف، ولم يقوّم الخطّ.

مندوحة: بوزن مفعولة، بنون ومهملة؛ أي: فسحة ومُتَّسَع، ندحت الشيء: وسّعته، وانتدح فلان بكذا: اتّسع، وانتدحت الغنم في مرابضها: إذا اتسعت من البطنة.

⋆ من فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «أما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا، لكنه إذا حقق لم يكن كذبا؛ لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض، فقوله: «**إني سقيم**»؛ يحتمل أن يكون أراد إني سقيم؛ أي: سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيرا، ويحتمل أنه أراد إني سقيم بما قُدر علي من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٣-٤٠٤)، والبخاري (٦/ ٤٧٨-٤٧٩/ ٣٣٥٨)، ومسلم (٤/ ١٨٤٠/ ٢٣٧١)، وأبو داود (٢/ ٦٥٩-٦٦٠/ ٢٢١٢)، والترمذي (٥/ ٣٠٠-٣٠١/ ٣١٦٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٨-٩٩/ ٨٣٧٤-٨٣٧٥).

(٢) أخرجه: البخاري في «الأدب المفرد» (ص: ٣١٩ رقم: ٨٥٧)، والبيهقي (١٠/ ١٩٩) وصححه. قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٧٢٦): «رجاله ثقات».

وروي مرفوعًا وهو ضعيف، انظر «الفتح» (١٠/ ٧٢٦) و«المقاصد الحسنة» (ص: ١١٥و١١٦ رقم: ٢٢٧)، و«الضعيفة» (١٠٩٤).

وحكى النووي عن بعضهم: أنه كان تأخذه الحمى في ذلك الوقت. وهو بعيد؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن كذبا لا تصريحا ولا تعريضا.

وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾:

قال القرطبي: هذا قاله تمهيدا للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعا لقومه في قولهم أنها تضر وتنفع، وهذا الاستدلال يُتجوّز فيه الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ بقوله: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[1] قال ابن قتيبة: معناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب. وعن الكسائي أنه كان يقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ أي: فعله من فعله كائنا من كان، ثم يبتدئ: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وهذا خبر مستقل، ثم يقول: ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾ إلى آخره. ولا يخفى تكلفه.

وقوله: «**هذه أختي**» يُعتذر عنه بأن مراده أنها أخته في الإسلام»[2].

قال ابن الجوزي: «قوله: «**هي أختي**»: فقد بين أنه أراد أخوة الإسلام.

وعلى هذا إشكال ما زال يختلج في نفسي، وهو أن يقال: ما معنى توريته عن الزوجة بالأخت؟ ومعلوم أن ذكرها بالزوجية أسلم لها؛ لأنه إذا قال: هذه أختي، قال: زوّجنيها. وإذا قال امرأتي: سكت، هذا إذا كان المِلك يعمل بالشرع، فأما إذا كان كما وُصف من جوره ومدّ يده إليها ظلمًا، فما يبالي أكانت زوجة أو أختًا.

وما زلتُ أبحث عن هذا وأسأل، فلم أجد أحدًا يشفي بجواب، إلى أن وقع لي أن القوم كانوا على دين المجوس، وفي دينهم أن الأخت إذا كانت زوجة كان أخوها الذي هو زوجها أحق بها من غيره، فكأن الخليل ﷺ أراد أن يستعصم من الجبار بذكر الشرع الذي يستعمله الجبار، فإذا الجبار لا يراعي جانب دين، فنظر اللَّه ﷻ إلى خليله بلطفه وكفَّ كفَّ الفاجرِ.

وقد اعتُرِض على هذا فقيل: إنما جاء بمذهب المجوس زاردشت وهو متأخر عن زمان الخليل. والجواب: أن لمذهب القوم أصلًا قديمًا فادّعاه زرادشت وزاد

---

(١) الأنبياء: الآية (٦٣).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٨٢-٤٨٣).

عليه، وقد كان نكاح الأخوات جائزًا في زمن آدم، وقيل: إنما حرمه موسى عليه السلام. . ثم سألت عن هذا بعض علماء أهل الكتاب فقال: كان من مذهب القوم أنه من كان له زوجة لا يجوز أن يتزوج بها إلا أن يقتل الزوج، فعلم إبراهيم هذا فقال عن سارة: أختي، وكأنه يقول: إن كان الملك عادلًا فخطبها مني أمكن منعه، وإن كان ظالمًا فأخذها تخلصت من القتل»[1].

قال النووي: «أما قوله ﷺ: «**ثنتين في ذات اللَّه تعالى وواحدة في شأن سارة**»، فمعناه أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع، وأما في نفس الأمر فليست كذبًا مذمومًا لوجهين:

أحدهما: أنه ورّى به فقال في سارة: «**أختي**» في الإسلام، وهو صحيح في باطن الأمر، وسنذكر إن شاء اللَّه تعالى تأويل اللفظين الآخرين.

والوجه الثاني: أنه لو كان كذبًا لا تورية فيه لكان جائزًا في دفع الظالمين، وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنسانًا مختفيًا ليقتله، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصبًا، وسأل عن ذلك؛ وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به، وهذا كذب جائز بل واجب؛ لكونه في دفع الظالم، فنبّه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلة في مطلق الكذب المذموم. قال المازري: وقد تأول بعضهم هذه الكلمات وأخرجها عن كونها كذبًا، قال: ولا معنى للامتناع من إطلاق لفظ أطلقه رسول اللَّه ﷺ.

قلت: أما إطلاق لفظ الكذب عليها فلا يمتنع لورود الحديث به، وأما تأويلها فصحيح لا مانع منه، قال العلماء: والواحدة التي في شأن سارة هي أيضًا في ذات اللَّه تعالى؛ لأنها سبب دفع كافر ظالم عن مواقعة فاحشة عظيمة، وقد جاء ذلك مفسرًا في غير مسلم، فقال: «**ما فيها كذبة إلا بما حل بها عن الإسلام**» أي: يجادل ويدافع. قالوا: وإنما خص الثنتين بأنهما في ذات اللَّه تعالى لكون الثالثة تضمنت نفعًا له وحظًا مع كونها في ذات اللَّه تعالى»[2].

قال الحافظ: «قال ابن عقيل: دلالة العقل تَصرِف ظاهرَ إطلاق الكذب على

---

(١) كشف المشكل (٣/ ٤٨٣-٤٨٤).

(٢) شرح مسلم (١٥/ ١٠١-١٠٢).

إبراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به، ليُعلم صدق ما جاء به عن اللَّه، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام، يعني إطلاق الكذب على ذلك إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب، لتحمّل أخف الضررين دفعا لأعظمهما، وأما تسميته إياها كذبات؛ فلا يريد أنها تُذم، فإن الكذب وإن كان قبيحا مخِلًّا لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها»[1].

وقد تقدّم الكلام على هذه المسألة في سورة (الأنبياء) عند قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.. الآية (٦٣).

* * *

(١) فتح الباري (٦/ ٤٨٢-٤٨٣).

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

★ غريب الآية:

يَزِفُّونَ: يسرعون. يقال: زفّ الظليم: إذا ابتدأ في عَدْوه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فمال على آلهة قومه ضربًا لها باليمين، بفأس في يده يكسّرهن.. وقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ اختلف أهل التأويل في معناه؛ فقال بعضهم: فأقبل قوم إبراهيم إلى إبراهيم يجْرون.. وقال آخرون: أقبلوا إليه يمشون.. وقال آخرون: معناه فأقبلوا يستعجلون.. وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال إبراهيم لقومه: أتعبدون أيها القوم ما تنحتون بأيديكم من الأصنام.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل إبراهيم لقومه: واللَّه خلقكم أيها القوم وما تعملون. وفي قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون قوله: ﴿مَا﴾ بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذ: واللَّه خلقكم وعملكم.

والآخر أن يكون بمعنى (الذي)، فيكون معنى الكلام عند ذلك: واللَّه خلقكم والذي تعملونه: أي والذي تعملون منه الأصنام، وهو الخشب والنحاس والأشياء التي كانوا ينحتون منها أصنامهم»[١].

قال صديق حسن خان: «وقد طوّل صاحب الكشاف الكلام في ردّ قول من قال: إنها مصدرية، ولكن بما لا طائل تحته، وجعلها موصولة أولى بالمقام، وأوفق بسياق الكلام»[٢].

(١) جامع البيان (٢٣/ ٧٣-٧٥).

(٢) فتح البيان (١١/ ٤٠٤).

قال شيخ الإسلام في الرد على الرافضي: «وأما جوابه عن احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ بأن المراد بذلك الأصنام؛ فلا ننازعه في أن المراد بذلك الأصنام؛ فإن هذا هو أصح القولين، و(ما) بمعنى (الذي) ومن قال: إنها مصدرية، والمراد: واللَّه خلقكم وعملكم؛ فهو ضعيف؛ فإن سياق الكلام إنما يدل على الأول؛ لأنه قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فأنكر عليهم عبادة المنحوت، فالمناسب أن يذكر ما يتعلق بالمنحوت، وأنه مخلوق لله، والتقدير واللَّه خلق العابد والمعبود، ولأنه لو قال: واللَّه خلقكم وعملكم؛ لم يكن في هذا ما يقتضي ذمّهم على الشرك، بل قد يقال: إنه إقامة عذر لهم؛ وذلك لأن الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ واو الحال، والحال هنا شِبه الظرف، كلاهما قد يتضمن معنى التعليل، كما يقال: أتذمّ فلانا وهو رجل صالح، وتسيء إليه وهو محسن إليك، فتقرر بذلك ما يوجب ذمّه ونهيه عما أنكرته عليه، وهو سبحانه ينكر عليهم عبادة ما ينحتون، فذَكَر قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ متضمنا ما يوجب ذمهم على ذلك ونهيهم عنه، وذلك كون اللَّه تعالى خلق معمولهم، ولو أريد: واللَّه خلقكم وعملكم الذي هو الكفر وغيره؛ لم يكن في ذلك ما يناسب ذمّهم، ولم يكن في بيان خلق اللَّه تعالى لأفعال عباده ما يوجب ذمهم على الشرك.

لكن يقال: هذه الآية تدل على أن أعمال العباد مخلوقة؛ لأنه قال: واللَّه خلقكم والذي تعملونه من الأصنام، والأصنام كانوا ينحتونها، فلا يخلو إما أن يكون المراد: خلقه لها قبل النحت والعمل، أو قبل ذلك وبعده.

فإن كان المراد ذكر كونها مخلوقة قبل ذلك؛ لم يكن فيها حجة على أن المخلوق هو المعمول المنحوت، لكن المخلوق ما لم يُعمل ولم ينحت. وإن كان المراد خلقها بعد العمل والنحت؛ فمن المعلوم أن النحت الذي فيها هو أثرهم وعملهم.

وعند القدرية أن المتولِّد عن فعل العبد فعلُه لا فعل اللَّه، فيكون هذا النحت والتصوير فعلهم لا فعل اللَّه، فإذا ثبت أن اللَّه خلقها بما فيها من التصوير والنحت؛ ثبت أنه خالق ما تولّد عن فعلهم، والمتولِّد لازم للفعل المباشر وملزوم له، وخلق أحد المتلازمين يسلتزم خلق الآخر، فدلت الآية أنه خالق أفعالهم القائمة بهم، وخالق ما تولد عنها، وخالق الأعيان التي قام بها المتولد، ولا يمكن أن يكون أحد المتلازمين عن الرب، والآخر عن غيره؛ فإنه يلزم افتقاره إلى غيره.

وأيضا فنفس حركاتهم تدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ؛ فإن أعراضهم داخلة في مسمى أسمائهم، فاللَّه تعالى خلق الإنسان بجميع أعراضه، وحركاتُه من أعراضه. فقد تبين أنه خلق أعمالهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وما تولد عنها من النحت والتصوير بقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ؛ فثبت أنها دالة على أنه خالق هذا وهذا، وهو المطلوب. مع أن الآيات الدالة على خلق أعمال العباد كثيرة كما تقدم التنبيه عليها، لكن خلقه للمصنوعات مثل الفلك والأبنية واللباس هو نظير خلق المنحوتات؛ كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خلق أفعال العباد

* عن زهدم قال: كان بين هذا الحي من جَرْمٍ وبين الأشعريين وُدّ وإخاء، فكنا عند أبي موسى الأشعري فقرِّب إليه الطعام فيه لحم دجاج، وعنده رجل من بني تيم اللَّه، كأنه من الموالي، فدعاه إليه، فقال الرجل: إني رأيتُهُ يأكل شيئًا فقَذِرْتُه، فحلفت لا آكله. فقال: هلمّ فلأحدّثك عن ذاك، إني أتيتُ النبي ﷺ في نفر من الأشعريين نستحمله قال: «**والله لا أحملكم وما عندي ما أحملكم**» فأُتي النبي ﷺ بنَهْب إبل، فسأل عنا فقال: «**أين النفر الأشعريون؟**» فأمر لنا بخمس ذَودٍ غُرِّ الذُّرى، ثم انطلقنا قلنا: ما صنعنا! حلف رسول اللَّه ﷺ لا يحملنا، وما عنده ما يحملنا ثم حَمَلَنا، تغفَّلْنا رسول اللَّه ﷺ يمينَه، واللَّه لا نفلح أبدًا، فرجعنا إليه فقلنا له، فقال: «**لستُ أنا أحملكم، ولكن اللَّه حملكم، إني واللَّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيتُ الذي هو خيرٌ منه وتحلّلتُها**»[4].

---

(١) يس: الآيتان (٤١و٤٢). (٢) النحل: الآية (٨١).

(٣) منهاج السنة (٣/ ٣٣٦-٣٣٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥/ ٧٥٥٥)، ومسلم (٣/ ١٢٦٨-١٢٦٩/ ١٦٤٩)، والنسائي (٣/ ٥٨٤/ ٣٢٧٦)، وابن ماجه (١/ ٦٨١/ ٢١٠٧).

★ **غريب الحديث:**

جَرم: بفتح الجيم وسكون الراء، قبيلة شهيرة ينسبون إلى جرم بن ربان.

فقَذِرْتُهُ: بكسر الذال المعجمة؛ أي: كرهتُهُ.

نستحمله: نطلب منه الحملان؛ أي: أن يحملنا.

ذَوْد: بفتح الذال المعجمة، وهي من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر.

غرّ الذُّرى: الغُرّ بضم المعجمة جمع أغر، والأغر الأبيض. والذُّرَى: بضم الذال والقصر: جمع ذِرْوَة وهي أعْلَى سَنام البَعير. وذِرْوة كُلِّ شيء أعلاه. والمعنى: بيضِ الأسْنِمَة سِمانِها.

* عن أبي جمرة الضُّبَعي: قلت لابن عباس فقال: قدم وفد عبد القيس على رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر حرم، فمرنا بجُمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو إليها من وراءنا، قال: «**آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان باللَّه، وهل تدرون ما الإيمان بالله: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتعطوا من المَغْنَم الخمس، وأنهاكم عن أربع: لا تشربوا في الدّباء والنقير والظروف المزفتة والحنتمة**»(١).

★ **غريب الحديث:**

الحنتم: بفتح المهملة وسكون النون وفتح المثناة من فوق: هي الجرة.

الدباء: بضم الدال وتشديد الباء والمد: هو القرع، والمراد: اليابس منه.

النقير: بفتح النون وكسر القاف: أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء.

المزفت: بالزاي والفاء: ما طُلي بالزفت.

* عن عائشة ﵂ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذَّبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم!**»(٢).

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥/ ٧٥٥٦)، ومسلم (١/ ٤٦-٤٧/ ١٧)، وأبو داود (٥/ ٥٧/ ٤٦٧٧)، والترمذي (٤/ ١٣٠-١٣١/ ١٥٩٩)، والنسائي (٨/ ٧٢٨/ ٥٧٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٠)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥-٦٤٦/ ٧٥٥٧)، ومسلم (٣/ ١٦٦٩/ ٢١٠٦[٩٦])، والنسائي (٨/ ٦٠٦/ ٥٣٧٧)، وابن ماجه (٢/ ٢٢٧/ ٢١٥١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: قال اللَّه عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة»[١].

★ من فوائد الأحاديث:

ترجم البخاري رحمه الله على هذه الأحاديث في كتاب التوحيد من صحيحه بقوله: «باب قول اللَّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

«قال المهلب: غرضه في هذا الباب إثبات أفعال العباد وأقوالهم خلقًا لله تعالى.. واحتج بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.. ثم بين لك أن قول الإنسان بالإيمان وغيره قد سمّاه رسول اللَّه ﷺ عملا حين سئل: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله**»[٢]. والإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح. وكذلك أمره وفد عبد القيس حين سألوه أن يدلّهم على ما إن عمِلوه دخلوا الجنة، فأمرهم بالإيمان بالقلب، والشهادة باللسان، وسائر أعمال الجوارح. فثبت أن كلام ابن آدم بالإيمان وغيره عمل من أعماله وفعل له، وأن كلام اللَّه المنزلَ بكلمة الإيمان غير مخلوق. ثم بيّن لك أن أعمالنا كلها مخلوقة لله تعالى، خلافا للقدرية الذين يزعمون أنها غير مخلوقة له تعالى، بقوله في حديث أبي موسى: «**لست أنا حملتكم على الإبل**»، بعد أن حلف لهم أنّ ما عندي ما أحملكم عليه، وإنما اللَّه هو الذي حملكم عليها، ويسّرها لكم، فأثبت ذلك كله فعلا لله تعالى، وهذا بيّن لا إشكال فيه.

وقوله في حديث عائشة: «**يقال للمصورين: أحيوا ما خلقتم**» فإنما نسب خلقها إليهم توبيخًا لهم وتقريعًا لهم في مضاهاتهم اللَّه عز وجل في خلقه، فبكّتهم بأن قال لهم: فإذ قد شابهتم بما صورتم مخلوقات الربّ فأحيوا ما خلقتم كما أحيا هو تعالى ما خلق، فينقطعون بهذه المطالبة حين لا يستطيعون نفخ الروح في ذلك.

ومثل هذا قوله في حديث أبي هريرة: «**قال اللَّه تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**» يريد: يصوّر صورة تشبه خلقي، فسمّى فعل الإنسان في تصوير مثالها

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (١٣/ ٦٤٦/ ٧٥٥٩)، ومسلم (٣/ ١٦٧١/ ٢١١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٠)، والبخاري (٥/ ١٨٥/ ٢٥١٨)، ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٤)، والنسائي (٦/ ٣٢٧/ ٣١٢٩)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٣/ ٢٥٢٣) من حديث أبي ذر.

خلقًا له، توبيخا له على تشبّهه باللَّه فيما صوّر، فأحكم وأتقن على غير مثال احتذاه، ولا من شيء قديم ابتداه، بل أَنشأ من معدوم، وابتدع من غير معلوم، وأنتم صوّرتم من خشب موجود، وحجر غير مفقود، على شَبَه معهود، مضاهين له ومُوهمين الأغمار أنكم خلقتم كخلقه، فاخلقوا أقلّ مخلوقاته وأحقرها، الذَّرةَ المتعدية في أدقّ من الشعر، وأنفذ منكم بغير آلة في نحت الحجر، فتتخذه مسكنًا، وتدّخر فيه قُوتها نظرًا في معاشها، أو اخلقوا حبّة من هذه الأقوات التي خلقها اللَّه لعباده، ثم يخرج منها زرعا لا يشبهها نباته، ثم يُطلِع منها بقدرته من جنسها بعد أن أَعدم شخصها عددًا من غير نوع نباتها الأخضر، قدرة بالغة لمعتبر، وإعجازًا لجميع البشر»[1].

* * *

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٥٥٣-٥٥٥).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال قوم إبراهيم لما قال لهم إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ابنوا لإبراهيم بنيانا، ذكر أنهم بنوا له بنيانا يشبه التنور، ثم نقّلوا إليه الحطب، وأوقِدوا عليه ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾، والجحيم عند العرب: جمر النار بعضُه على بعض، والنار على النار.. وقوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأراد قوم إبراهيم كيدًا، وذلك ما كانوا أرادوا من إحراقه بالنار. يقول الله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ﴾ أي فجعلنا قوم إبراهيم ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ يعني الأذلين حجة، وغلَّبنا إبراهيم عليهم بالحجة، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد.. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ يقول: وقال إبراهيم لما أفْلَجَه[١] اللَّه على قومه ونجاه من كيدهم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يقول: إني مُهَاجِرٌ من بلدة قومي إلى الله: أي إلى الأرض المقدَّسة، ومفارِقهم فمعتزلهم لعبادة اللَّه.. وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يقول: سيثبتني على الهدى الذي أبصرته، ويعينني عليه»[٢].

وقال الرازي: «دلت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته، وذلك لأن إبراهيم صلوات اللَّه عليه وسلامه -مع أن اللَّه سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة- لما أحس منهم بالعداوة الشديدة؛ هاجر من تلك الديار، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى»[٣].

---

(١) أي: نصره وأظفره.

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٧٥-٧٦).

(٣) مفاتح الغيب (٢٥/ ١٥١)

وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾:

قال ابن جرير: «وهذا مسألة إبراهيم ربَّه أن يرزقه ولدا صالحا، يقول: قال: يا رب هب لي منك ولدا يكون من الصالحين الذين يطيعونك، ولا يعصونك، ويصلحون في الأرض، ولا يفسدون»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

السعي: بلغ السعي: أي: بلغ أشده، وهو الاحتلام.

تلّه: صرعه على جنبه. يقال: تَلَلْتُه أتلُّه تَلاًّ: صرعته.

بِذِبْح: الذِّبْحُ: اسم المذبوح. والذَّبْح: بالفتح الفعل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم: إنه بعد ما نصره اللَّه على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة؛ هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يعني: أولادا مطيعين عِوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال اللَّه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل ﷺ، فإنه أولُ ولد بُشّر به إبراهيم ﷺ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم ﷺ ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعُمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن اللَّه تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: (بِكْره)،

فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا (إسحاق)، ولا يجوز هذا؛ لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا (إسحاق) لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك، وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة، وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: (وحيد) إلا لمن ليس له غيره. وأيضا؛ فإن أول ولد له مَعزّة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأُخذ ذلك مسلّما من غير حجة. وهذا كتاب اللّه شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق؛ قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[2]؛ أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن اللّه تعالى قد وعدهما بأنه سيعقّب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم؛ لأنه مناسب لهذا المقام»[3].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وأما القول بأنه إسحاق؛ فباطل بأكثر من عشرين وجهًا. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقىً عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: (إن اللّه أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره)، وفي لفظ: (وحيده)، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: (اذبح ابنك إسحاق)، قال:

---

(١) الحجر: الآية (٥٣).

(٢) هود: الآية (٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧).

وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم؛ لأنها تناقض قوله: (اذبح بكرك ووحيدك)، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى اللَّه إلا أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق، واللَّه تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان (يعقوب) مجرورًا عطفًا على إسحاق، فكانت القراءة: (ومن وراء إسحاق يعقوب) أي: ويعقوب من وراء إسحاق. قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشرًا به؛ لأن البشارة قول مخصوص، وهي أول خبر سارّ صادق. وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولًا، كان موضع هذه الجملة نصبًا على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرتُ فلانًا بقُدوم أخيه وثَقَلِه[2] في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعًا. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة. ثم يُضعف الجر أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور. ويدل عليه أيضًا أن اللَّه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾[3]. ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا

---

(١) هود: الآيتان (٧٠و٧١).

(٢) الثَّقَل بفتحتين: متاع المسافر وحشمه.

(٣) الصافات: الآيات (١٠٣-١١١).

مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[١]. فهذه بشارة من اللَّه تعالى له شكرًا على صبره على ما أُمِر به، وهذا ظاهر جدًّا في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه.

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته؛ أي: لما صبر الأب على ما أُمر به، وأسلم الولد لأمر اللَّه، جازاه اللَّه على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبيًا، ولهذا نصب (نبيًا) على الحال المقدَّر؛ أي: مقدرًا نبوته، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفَضلة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

وأيضًا فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جُعلت القرابين يوم النحر بها، كما جُعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيرًا لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر اللَّه، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانًا ومكانًا، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام، لا بمكة.

وأيضًا فإن اللَّه سبحانه سمى الذبيح حليمًا؛ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليمًا، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٢] إلى أن قال: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[٣] وهذا إسحاق بلا ريب؛ لأنه من امرأته، وهي المبشَّرة به، وأما إسماعيل، فمن السُّرِّيّة. وأيضًا فإنهما بُشّرا به على الكبَر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضًا فإن اللَّه سبحانه أجرى العادة البشرية أن بِكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم ﷺ لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شُعبةٌ من قلبه

---

(١) الصافات: الآية (١١٢).

(٢) الذاريات: الآيتان (٢٤و٢٥).

(٣) الذاريات: الآية (٢٨).

بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلًا، والخُلة منصِب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خَلَصَت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، فنُسخ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور»[1].

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ﴾ قال ابن كثير: «أي: كبر وترعرع، وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأمّ ولده ببلاد «فاران»[2] وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البُراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس ومجاهد وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخراساني، وزيد ابن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ﴾ يعني: شبّ وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْي، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجَلَده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾[3].

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧١-٧٥).

(٢) فاران: بعد الألف راء وآخره نون كلمة عبرانية معربة، وهي من أسماء مكة.

(٣) مريم: الآيتان (٥٤و٥٥).

قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ أي: فلما تشهّدا وذكرا اللَّه تعالى؛ إبراهيمُ على الذبح، والولدُ على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾ يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ اللَّه، وإسماعيل طاعة اللَّه وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهَه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه.. وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح..

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾[1].

وقد استدَل بهذه الآية والقصة جماعةٌ من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن اللَّه تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولًا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده، وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أُمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر اللَّه، منقادا لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ الصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدي بكبش..

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح -وهو إسماعيل- عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذُكرت في سورتي هود والحجر. وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة؛ أي: سيصير منه نبي من الصالحين.

---

(١) الطلاق: الآيتان (٢و٣).

(٢) النجم: الآية (٣٧).

وقوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ابتلاء الله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل ﷺ، ووفائه بذلك، وأن رؤيا الأنبياء وحي

* عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس: . . ويزعم قومك أن رسول الله ﷺ سعى بين الصفا والمروة، وأن ذلك سنة؟ قال: صَدقوا، إن إبراهيم لما أمر بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له شيطان قال يونس: الشيطان- فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات. قال: قد تله للجبين -قال يونس: وثَم تله للجبين- وعلى إسماعيل قميص أبيض، وقال: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ فالتفت إبراهيم، فإذا هو بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتَّبع ذلك الضرب من الكباش»[(٣)].

★ غريب الحديث:

تلّه للجبين: تلّه يتُله تلاً، فهو متلول وتليل: صرعه وقيل: ألقاه على عنقه وخده.

أعين: عظيم سواد العين واسعها، والأنثى عيناء، والجمع منها عِينٌ. وأصل جَمْعِها بضم العَين فكُسِرَتْ لأجل الياء كأبْيَض وبِيض.

★ فوائد الحديث:

فيه أن إسماعيل هو الذبيح، وقد ورد في تفصيل هذه القصة آثار غالبها من

---

(١) هود: الآية (٤٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧-٣٦).

(٣) الحديث بطوله أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٧-٢٩٨).

وأخرجه: مسلم (٢/ ٩٢١-٩٢٢/ ١٢٦٤)، وأبو داود (٢/ ٤٤٤-٤٤٥/ ١٨٨٥) دون موضع الشاهد.

الإسرائيليات، قال ابن كثير في معرض قصة إسماعيل: «غالب ما هنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات، وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم، والاختبار الباهر، وأنه فُدي بذبح عظيم، وقد ورد في الحديث أنه كبش»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**رؤيا الأنبياء وحي**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

فيه «أن الرؤيا لو لم تكن وحيًا لما جاز لإبراهيم عليه السلام الإقدام على ذبح ولده»[٣].

* * *

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٤٩).

(٢) أخرجه: الطبراني (١٢/ ٦/ ١٢٣٠٢). قال في «المجمع» (٧/ ١٧٦): رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن أبي مريم وهو ضعيف وبقية رجاله، رجال الصحيح. وصححه الحاكم (٢/ ٤٣١) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وعلقه البخاري من حديث عبيد بن عمير، انظر «الفتح» (١/ ٣١٧).

(٣) فتح الباري (١/ ٣١٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

المستبين: يقال: استبان كذا: إذا صار بينًا. واستبان فلان الأمر: تبيَّنَه بنفسه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون، من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل اللَّه على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[1]. وقال هاهنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: في الأقوال والأفعال.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾»[2].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٤٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بعلًا: صنمًا، كانوا يعبدونه من دون اللَّه. يقال: هذا بعل الدار؛ أي: رَبُّها. والبعل أيضا: الزوج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: قوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ قال المفسرون: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقصته مشهورة مع قومه»[1].

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

قال ابن كثير: «أي: ألا تخافون اللَّه في عبادتكم غيره.. وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أتعبدون صنمًا؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي للعذاب يوم الحساب. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: الموحِّدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: ثناء جميلا. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ كما يقال في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة بني أسد. وأنشد بعض بني نمير في ضَبٍّ صَادَه.

---

(١) فتح البيان (١١/ ٤١٧).

يَقُولُ رَبُّ السُّوق لما جينا هذا وربِّ البيت إسْرَائينا

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ.

وقرأ آخرون: (سلام على إدراسين)، وهي قراءة عبد اللّٰه بن مسعود. .

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ قد تقدم تفسيره»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦-٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغابرين: الغابر من الأضداد. يقال: غبر: مضى وذهب. وغبر: بقي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها؛ فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾

★ **غريب الآية:**

أبق: الإباقُ: هرَب العبد من سيده. وإنما قيل ليونس -عليه الصلاة والسلام- أبَق، لأنه خرج بغير أمر اللَّه ﷻ مستترًا من الناس.

المشحون: المملوء.

فساهم: المساهمة: المقارعة. أصله من السهام التي تُجَال.

المدحضين: المغلوبين. يقال: أدْحضتُ حجته ودحضتها: إذا أبطلتها. وأصل الدحض: الزلق. قال الشاعر:

قتَلنا المدحَضين بكل فجٍّ ... فقد قرَّتْ بقتلهم العيونُ

التقمه: ابتلعه.

مليم: يقال: ألامَ الرجل فهو مليم: إذا أتى بما يلام عليه. قال لبيد:

سَفَهًا عذلت ولُمْت غير مُليم ... وهَداك قبل اليوم غيرُ حَكيم

العراء: الفضاء لا يواريه شيء من شجر أو غيره.

يقطين: اليقطين: شجر الدباء، وهو القَرْع. قال أبو عبيدة: كل شجرة لا تقوم على ساق فهي يقطين، نحو الدباء والحنظل والبطيخ. قال أمية بن أبي الصلت:

فأنبتَ يقطينًا عليه برَحمة ... من اللَّه لولا اللَّه أُلقِي ضَاحِيا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قد تقدمت قصة يونس عليه السلام في سورة الأنبياء. وفي الصحيحين عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى» و(نَسَبَه إلى أمه)[1]، وفي رواية قيل: (إلى أبيه)[2].

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠﴾ قال ابن عباس: هو المُوقِر؛ أي: المملوء بالأمتعة. ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين. وقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء..

وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَيْر والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن وقتادة: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ أي: يعني من المصلّين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين في جوف أبويه. وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ هو قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] قاله سعيد بن جبير وغيره.. قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ أي: ألقيناه، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فاللَّه أعلم. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيأة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدي: كهيأة الصبي حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس..

قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾:

قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَسَاف، وعبد اللَّه بن طاوس، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني وغير واحد، قالوا كلهم: اليقطين هو القرْع.. وعن سعيد بن

---

(١) وقع ذلك في تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥٦)، وهو مردود بما في حديث ابن عباس أنه نسبه إلى أبيه، وهذا أصح. أفاده الحافظ في الفتح (٦/ ٥٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٥)، والبخاري (٦/ ٥٥٧/ ٣٤١٦)، ومسلم (٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٦)، والترمذي (٥/ ٣٤٨/ ٣٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٨-١٤٢٩/ ٤٢٧٤) من حديث ابن عباس.

(٣) الأنبياء: الآيتان (٨٧و٨٨).

جبير: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين، وفي رواية عنه: كل شجرة تهلِك من عامها فهي من اليقطين..

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ روى شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولًا أُمر بالعوْد إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدّقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون. وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس في رواية عنه: بل يزيدون..

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهكذا سلك ابن جرير ههنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[1]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[2]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾[3] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقوله: ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[4]»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القُرعة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ عَرض على قوم اليمينَ فأسرعوا، فأمر أن يُسهَم بينهم في اليمين أيهم يحلف»[6].

---

(١) البقرة: الآية (٧٤).
(٢) النساء: الآية (٧٧).
(٣) النجم: الآية (٩).
(٤) يونس: الآية (٩٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨-٤١).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (٥/ ٣٥٨/ ٢٦٧٤)، وأبو داود (٤/ ٣٩-٤٠/ ٣٦١٧)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٨٧/ ٦٠٠١).

* عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«مثل المُدْهن في حدود اللَّه والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذين في أسفلها يمرّون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذّوا به، فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه؛ أنجوه ونَجّوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم»**(١).

* عن خارجة بن زيد الأنصاري أن أم العلاء -امرأة من نسائهم قد بايعت النبي ﷺ- أخبرته: أن عثمان بن مظعون طار له سهمه في السكنى حين أقرعت الأنصار سكنى المهاجرين. قالت أم العلاء: فسكن عندنا عثمان بن مظعون، فاشتكى فمرّضناه، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه؛ دخل علينا رسول اللَّه ﷺ فقلت: رحمة اللَّه عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك اللَّه، فقال لي النبي ﷺ: **«وما يدريك أن اللَّه أكرمه؟»** فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال رسول اللَّه ﷺ: **«أما عثمان فقد جاءه -والله- اليقين، وإني لأرجو له الخير، واللَّه ما أدري -وأنا رسول الله- ما يفعل به»** قالت: فواللَّه لا أزكي أحدًا بعده أبدًا، وأحزنني ذلك. قالت: فنمت فأُريت لعثمان عينًا تجري، فجئت إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبرته، فقال: **«ذلك عمله»**(٢).

* عن عائشة ﷺ قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمُها خرج بها معه، وكان يَقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زَمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا رسول اللَّه ﷺ»(٣).

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«لو يعلم الناس ما في النداء**

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٨)، والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٦)، والترمذي (٤/ ٤٠٨/ ٢١٧٣).
(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣٦)، والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٥/ ٧٦٣٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٦٩)، والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٨)، وأبو داود (٢/ ٦٠٣/ ٢١٣٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٩٢-٢٩٣/ ٨٩٢٣).

والصفّ الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا»[(١)].

★ من فوائد الأحاديث:

الغرض من هذه الأحاديث «مشروعية القُرعة، لأن المراد بالاستهام هنا الإقراع»[(٢)].

وفيها أن «القرعة أصل من أصول الشريعة في تبدية من استوت دَعْواهم في الشيء»[(٣)].

وقد تقدمت هذه الأحاديث مع فوائدها في سورة (آل عمران) عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ الآية (٤٤)، واللّه الموفق.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الدباء واختيار النبي لها

* عن أنس بن مالك ﷺ يقول: «إن خياطًا دعا رسول اللّه ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول اللّه ﷺ فرأيته يتتبع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ»[(٤)].

★ غريب الحديث:

الدُّبّاء: هو القرْع، وهو اليقطين أيضًا.

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «فيه دليل على فضيلة القرع على غيره. وذكر أصحابنا أن من قال: كان النبي ﷺ يحب القرع، فقال آخر: لا أحب القرع؛ يخشى عليه من الكفر»[(٥)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦) البخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٩)، ومسلم (١/ ٣٢٥/ ٤٣٧) والترمذي (١/ ٤٣٧/ ٢٢٥)، والنسائي (١/ ٢٩٠-٢٩١/ ٥٣٩) وابن ماجه (١/ ٣١٩/ ٩٩٨).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٦٩).

(٣) شرح ابن بطال (٢/ ٢٤٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٧)، والبخاري (٩/ ٦٥٥/ ٥٣٧٩)، ومسلم (٣/ ١٦١٥/ ٢٠٤١)، وأبو داود (٤/ ١٤٦-١٤٧/ ٣٧٨٢)، والترمذي (٤/ ٢٥٠/ ١٨٥٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٥٥/ ٦٦٦٢-٦٦٦٣)، وابن ماجه (٢/ ١٠٩٨/ ٣٣٠٢-٣٣٠٣)، بنحوه.

(٥) عمدة القاري (٨/ ٣٦٣).

قال ابن القيم: «هو (أي الدباء) من ألطف الأغذية، وأسرعها انفعالًا»[1].

قال ابن كثير: «وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكِبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئًا مطبوخًا بلبّه وقشره أيضًا»[2].

* * *

(١) زاد المعاد (٤/ ٤٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٠).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: سلْ يا محمد! مشركي قومك من قريش.. وقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ ذُكر أن مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات اللّه، وكانوا يعبدونها، فقال اللّه لنبيه محمد -عليه الصلاة والسلام-: سلهم وقل لهم: ألربي البنات ولكم البنون؟!.. وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ يعني -تعالى ذكره-: أم شهد هؤلاء -القائلون من المشركين: الملائكة بنات الله- خلقي الملائكة وأنا أخلقهم إناثا، فشهدوا هذه الشهادة، ووصفوا الملائكة بأنها إناث.. وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: ألا إن هؤلاء المشركين من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ في قيلهم ذلك»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٠٥-١٠٦).

قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- موبّخا هؤلاء القائلين لله البنات من مشركي قريش: ﴿أَصْطَفَى﴾ اللّه أيها القوم ﴿ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾.. وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ يقول: بئس الحكم تحكمون أيها القوم؛ أن يكون لله البنات ولكم البنون، وأنتم لا ترضون البنات لأنفسكم فتجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم.. وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ يقول: أفلا تتدبّرون ما تقولون فتعرفوا خطأه فتنتهوا عن قيله.. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ يقول: ألكم حجة تُبيّن صحتها لمن سمعها بحقيقة ما تقولون؟.. وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ فأتوا بحجتكم من كتاب جاءكم من عند اللّه بأن الذي تقولون من أن له البنات ولكم البنين كما تقولون. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يقول: إن كنتم صادقين أن لكم بذلك حجة»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٠٦-١٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

★ غريب الآية:

نسبًا: مصاهرة.

الجِنّة: أكثر أهل التفسير على أن الجنة ههنا الملائكة، لأنهم لا يرون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وجعل هؤلاء المشركون بين اللَّه وبين الجِنة نسبا. واختلف أهل التأويل في معنى النسب الذي أخبر اللَّه عنهم أنهم جعلوه لله تعالى؛ فقال بعضهم: هو أنهم قالوا أعداء الله: إن اللَّه وإبليس أخوان.. وقال آخرون: هو أنهم قالوا: الملائكة بنات اللَّه، وقالوا: الجِنة هي الملائكة..

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: ولقد علمت الجنة إنهم لَمُشهدون الحساب.. وقال آخرون: معناه أن قائلي هذا القول سيحضرون العذاب في النار.. وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إنهم لمحضرون العذاب؛ لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة إنما عني به الإحضار في العذاب، فكذلك في هذا الموضع.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: تنزيها لله وتبرئة له مما يضيف إليه هؤلاء المشركون به، ويفترون عليه ويصفونه من أن له بنات وأن له صاحبة. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ يقول: ولقد علمت الجنة أن الذين قالوا: إن الملائكة بنات اللَّه لمحضرون العذاب إلا عباد اللَّه الذين أخلصهم لرحمته، وخلقهم لِجَنته»[1].

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٠٧-١٠٩).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠﴾ استثناء منقطع، وهو مِن مثبت إلا أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائدا إلى جميع الناس، ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وفي هذا الذي قاله نظر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الجن يحضرون للحساب يوم القيامة

* عن ابن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: **«إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة؛ فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»** قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ[٢].

★ فوائد الحديث:

بوب البخاري على هذا الحديث في كتاب بدء الخلق من صحيحه بقوله: «باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم» ثم ذكر آيات في هذا المعنى منها قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ ونقل عن مجاهد في تفسيرها قال: (قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سَرَوات الجن، قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ سيحضرون الحساب). ثم أورد حديث أبي سعيد. قال الحافظ: «الغرض منه هنا أنه يدل على أن الجن يحشرون يوم القيامة»[٣].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٢).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٢٣/ ٣٢٩٦)، والنسائي (٢/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٦٤٣).

(٣) فتح الباري (٦/ ٤٢٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

★ غريب الآية:

بفاتنين: أي: مُضِلِّين. والفاتن: الداعي إلى الضلال. قال الشاعر:

فَردّ بنعمته كيدَه عليه وكان له فاتِنا

أي: مُضِلاً.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا للمشركين ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: ما ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذُرِّي للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1]. فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾[2] أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تعالى مُنزها للملائكة مما نَسَبوا إليهم من الكفر بهم، والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: له موضع مخصوص في السماوات ومقامات العبادة، لا يتجاوزه ولا يتعداه..

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: نقف صفوفًا في الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾[3]..

---

(١) الأعراف (١٧٩).
(٢) الذاريات: الآيتان (٨و٩).
(٣) الصافات: الآية (١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝﴾ أي: نصطف فنسبح الرب، ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۝﴾ الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝﴾ الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝﴾: الملائكة يسبحون الله ﷻ. وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝﴾ يعني المصلون يَثبتون بمكانهم من العبادة، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝ ۞ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝﴾[١]»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مقام الملائكة في العبادة

* عن ابن مسعود ﷺ قال: «إن من السماوات سماءً ما فيها موضعٌ إلا فيه ملك ساجد أو قدماه قائم، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝﴾»[٣].

* عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون؛ أَطّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَكٌ واضع جبهته ساجدًا لله، لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذّذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله**»[٤].

★ غريب الحديث:

أطّت السماء: بتشديد الطاء: صوتت، والأطيط: صوت اضطراب الرحْل إذا كان عليه ثقل، ثم فسره بكثرة الملائكة واضطرابهم عليها في السجود

(١) الأنبياء: الآيات (٢٦-٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣-٤٤).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٢٣/ ١١٢)، وعبد الرزاق في التفسير (٢/ ١٥٨) والطبراني (٩/ ٢٤٢/ ٩٠٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ١٧٧/ ١٥٩) وصحح إسناده الألباني الصحيحة (٣/ ٤٩/ ١٠٥٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٤/ ٤٨١-٤٨٢/ ٢٣١٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال: «لوددت أني كنت شجرة تعضد»، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٢/ ٤١٩٠)، والحاكم (٢/ ٥١٠-٥١١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي.

والركوع والتصرف.

الصُّعُدَات: هي الطُّرُق، وهي جَمْعُ صُعُدٍ، وصُعُدٌ جمعُ صَعِيد كطَرِيق وطُرُق وطُرُقَات.

★ من فوائد الحديثين:

قال علي القاري: «يحتمل أن يكون أطيط السماء صوتُها بالتسبيح والتحميد والتقديس والتمجيد لقوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1] لا سيما وهي مَعْبد المسبِّحين والعابدين، ومَنْزِل الراكعين والساجدين»[2].

قال ابن الزملكاني: «وقد دل هذا الخبر ونحوه على أن الملائكة أكثر المخلوقات عددًا، وأصنافهم كثيرة. وقد ورد في القرآن من ذلك ما يوضحه، ومعرفة قدْر كثرتهم وتفصيل أصنافهم؛ موكول إليه ﷻ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٤٤).

(٢) المرقاة (٩/ ٢٠٨).

(٣) المدثر: الآية (٣١).

(٤) فيض القدير (١/ ٥٣٦-٥٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكان هؤلاء المشركون من قريش يقولون قبل أن يبعث إليهم محمد ﷺ نبيا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ يعني كتابا أنزل من السماء كالتوراة والإنجيل، أو نبيّ أتانا مثل الذي أتى اليهود والنصارى لكنّا عباد الله الذين أخلصهم لعبادته، واصطفاهم لجنته»[١].

قال ابن كثير: «أي: كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكّرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[٣] ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ وعيد أكيد، وتهديد شديد، على كفرهم بربهم ﷻ، وتكذيبهم رسوله ﷺ»[٤].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١١٣).

(٢) فاطر: الآية (٤٢).

(٣) الأنعام: الآيتان (١٥٦و١٥٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد سبق منا القول لرسلنا: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾: أي مضى بهذا منا القضاء والحكم في الكتاب، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة بالحجج»[١].

وقال ابن كثير: «تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[٢] وقال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[٣] ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي في الدنيا والآخرة، كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين»[٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾:

قال ابن جرير: «يقول: وإن حزبنا وأهل ولايتنا لهم الغالبون يقول: لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر بنا والخلاف علينا»[٥].

قال السعدي: «وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أُمر بقتالهم؛ أنه غالب منصور»[٦].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١١٤).
(٢) المجادلة: الآية (٢١).
(٣) غافر: الآية (٥١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥).
(٥) جامع البيان (٢٣/ ١١٤).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٠٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الكلمات لله تعالى

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لما قضى اللَّه الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي**»[1].

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ: حدثنا رسول اللَّه ﷺ -وهو الصادق المصدوق-: «**أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا وأربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث اللَّه إليه الملك فيؤذَن بأربع كلمات: فيكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح. فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها**»[2].

* عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يا جبريل! ما يمنعك أن تزورَنا أكثر مما تزورُنا؟**» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾[3] -إلى آخر الآية-. قال: كان هذا الجوابَ لمحمد ﷺ[4].

* عن عبد اللَّه قال: كنت أمشي مع رسول اللَّه ﷺ في حرث بالمدينة، وهو متكئ على عَسِيب، فمرّ بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، فسألوه عن الروح، فقام متوَكئًا على العسيب، وأنا خلفه، فظننت أنه يوحى إليه فقال: «﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٨)، والبخاري (١٣/ ٥٤٠/ ٧٤٥٣)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٧٧٥٠)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (١٣/ ٥٤٠/ ٧٤٥٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

(٣) مريم: الآية (٦٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣١)، والبخاري (١٣/ ٥٤٠/ ٧٤٥٥)، والترمذي (٥/ ٢٩٦/ ٣١٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٤/ ١١٣١٩).

أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾[(١)]» فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم: لا تسألوه»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

حرث: بالثاء المثلثة: هو الزرع.

عَسِيب: بفتح العين المهملة وكسر السين المهملة: القضيب وربما يكون من جريد.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تكفل اللَّه لمن جاهد في سبيله -لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته- بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة**»[(٣)].

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء؛ فأيّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل الله**»[(٤)].

★ **فوائد الأحاديث:**

ترجم البخاري رحمه الله على هذه الأحاديث في كتاب التوحيد من صحيحه بالآية.

«قال المهلب: الكلمة السابقة هي كلمة اللَّه بالقضاء المتقدم منه قبل أن يخلق خلقه في أم الكتاب؛ الذي جرى به القلم للمرسلين: إنهم لهم المنصورون في الدنيا والآخرة.. ومعنى هذا الباب إثبات اللَّه متكلمًا وذا كلام، خلافًا لمن يقول من المعتزلة أنه غير متكلم فيما مضى، وكذلك هو فيما بقي. وهذا كفر؛ قد نصّ اللَّه على إبطاله بقول: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ في آيات أخر، وقد نصّ النبي ﷺ على بيان

---

(١) الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٩)، والبخاري (١٣/ ٥٤٠-٥٤١/ ٧٤٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٥٢/ ٢٧٩٤)، والترمذي (٥/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٣١٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٣/ ١١٢٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٦)، والبخاري (١٣/ ٤٤١/ ٧٤٥٧)، ومسلم (٣/ ١٤٩٥-١٤٩٦/ ١٨٢٦)، والنسائي (٨/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٥٠٤٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٠/ ٢٧٥٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٢)، والبخاري (١٣/ ٥٤١/ ٧٤٥٨)، ومسلم (٣/ ١٥١٢-١٥١٣/ ١٩٠٤)، وأبو داود (٣/ ٣١/ ٢٥١٧)، والترمذي (٤/ ١٥٣-١٥٤/ ١٦٤٦)، والنسائي (٦/ ٣٣٠-٣٣١/ ٣١٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٨٣).

هذا المعنى في أحاديث هذا الباب فقال: «**كتب عنده فوق عرشه**» وقال: «**ثم يبعث الله إليه الملَك فيؤذن بأربع كلمات يوحيها الله إلى الملك فيكتبها في أم الكتاب**» وقال: «**فيسبق عليه الكتاب**» بالقضاء المتقدم في سابق علمه. والكتاب يقتضي كلامًا مكتوبًا، ودلّ ذلك على أنه لم يزل عالمًا بما سيكون قبل كونه، خلافًا لمن يقول: لا يعلم الأشياء قبل كونها.

ووجه مشاكلة حديث ابن عباس للترجمة؛ هو أن الذي تنزّل به جبريل هو كلام الله ووحيه، وكذلك قوله في حديث ابن مسعود: «﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[1]» يريد أن الروح خلق من خلقه تعالى، خلَقه بقوله: (كن)، و(كن) كلامه الذي هو أمره الذي لم يزل ولا يزال. وقوله: «﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾» فيه دليل على أنه لا تُبلَغ حقيقةُ العلم بالمخلوقات فضلا عن العلم بالخالق سبحانه، وأن من العلم ما يلزم التسليم فيه لله تعالى، ويجب الإيمان بمشكله، وأن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه؛ كما يزعم المتكلمون؛ إذ قد أعلَمنا الله أن السؤال عن الروح ابتغاءُ ما لم يؤته من العلم، مع أنه وصف قلوب المتبعين ما تشابه منه بالزيغ وابتغاء الفتنة، ووصف الراسخين في العلم بالإيمان به، وأن كلّه من عند ربهم مستعيذين من الزيغ الذي وَسَم الله به من اتّبع تأويل المتشابه منه، داعين إلى الله لا يزيغ قلوبهم بابتغاء تأويله، بعد إذ هداهم إلى الإيمان به.

وأما قوله: «**كتب عنده: إن رحمتي سبقت غضبي**» فهو -والله أعلم- كتابه في أم الكتاب الذي قضى به، وخطّه القلم، فكان من رحمته تلك أن ابتدأ خلقه بالنعمة بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وبسط لهم من رحمته في قلوب الأبوين على الأبناء من الصبر على تربيتهم، ومباشرة أقذارهم ما إذا تدبّره المتدبّرون أيقنوا أن ذلك من رحمته تعالى، ومن رحمته السابقة أنه يرزق الكفار وينعّمهم ويدفع عنهم الآلام، ثم ربّما أدخلهم الإسلام رحمة منه لهم، وقد بلغوا من التمرّد عليه، والخلع لربوبيته غايات تغضبه، فتغلب رحمته، ويدخلهم جنته، ومن لم يتب عليه حتى توفّاه، فقد رحمه مدّة عمره بتراخي عقوبته عنه، وقد كان له ألا يُمهله بالعقوبة ساعة كفره به، ومعصيته له، لكنه أمهله رحمة له، ومع ذا إن رحمة الله السابقة أكثر من أن يحيط بها الوصف»[2].

---

(١) الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) شرح ابن بطال (١٠/ ٤٨٧-٤٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾: فأعرض عنهم إلى حين. واختلف أهل التأويل في هذا الحين، فقال بعضهم: معناه إلى الموت (وهذا قول قتادة).. وقال آخرون: إلى يوم بدر (وهذا قول السدي).. وقال آخرون: معنى ذلك: إلى يوم القيامة (وهذا قول ابن زيد)..

وهذا القول الذي قاله السديّ أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن اللّٰه توعدهم بالعذاب الذي كانوا يستعجلونه، فقال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾، وأمر نبيه ﷺ أن يُعْرِض عليهم إلى مجيء حينه. فتأويل الكلام: فتول عنهم يا محمد إلى حين مجيء عذابنا، ونزوله بهم.

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾: وأنظرهم فسوف يرون ما يَحُل بهم من عقابنا..

وقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ يقول: فبنزول عذابنا بهم يستعجلونك يا محمد، وذلك قولهم للنبي ﷺ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وقوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يقول: فإذا نزل بهؤلاء المشركين المستعجلين بعذاب اللّٰه العذاب، والعرب تقول: نزل بساحة فلان العذاب والعقوبة، وذلك إذا نزل به، والساحة: هي فِناء دار الرجل، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ يقول: فبئس صباح القوم الذين أنذرهم رسولنا نزول ذلك العذاب بهم فلم يصدقوا به»[2].

---

(١) يونس: الآية (٤٨).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ١١٥-١١٦).

قال الزمخشري: «مثّل العذاب النازل بهم بعد ما أُنذروه فأنكروه؛ بجيش أَنذر بهجومه قومَه بعضُ نُصّاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبّروا أمرهم تدبيرًا ينجيهم، حتى أناخ بفِنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم، وكانت عَادة مغاويرهم أن يغيروا صباحًا، فسميت الغارة صباحًا وإن وقعت في وقت آخر، وما فصحت هذه الآية، ولا كانت لها الروعة التي تُحِسّ بها، ويروقك مَوردها على نفسك وطبعك؛ إلا لمجيئها على طريقة التمثيل»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استشهاد النبي ﷺ بالآية حين فتح خيبر

* عن أنس رضي الله عنه: أن رسول اللّه ﷺ غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي اللّه ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي اللّه ﷺ في زُقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي اللّه ﷺ، ثم حسَر الإزار عن فخذه، حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي اللّه ﷺ، فلما دخل القرية قال: **«اللّه أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين»** قالها ثلاثًا. قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد؟ -قال عبد العزيز وقال بعض أصحابنا-: والخميس، يعني الجيش، قال: فأصبناها عَنوة، فجُمع السبي فجاء دحية فقال: يا نبي الله! أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله! أعطيت دحية صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: **«ادعوه بها»** فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: **«خذ جارية من السبي غيرها»**، قال: فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة! ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقَها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي ﷺ عروسًا، فقال: **«من كان عنده شيء فليجئ به»** وبسط نِطَعًا فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السَّويق، قال: فحاسوا

(١) الكشاف (٣/ ٣٥٧).

حيسًا، فكانت وليمة رسول اللَّه ﷺ[١].

⋆ غريب الحديث:

الزقاق: بضم الزاي وقافين: السكة والطريق.

الخميس: بفتح الخاء: الجيش. وسمي الجيش خميسًا لأنه خمسة أقسام: مقدمة وساقة وقلب وجناحان.

عَنوة: بفتح العين: هو القهر. يقال: أخذته عنوة؛ أي: قهرًا أو عن غير طاعة، أو قهرًا في عنف.

عروس: على وزن (فَعول): يستوي فيه الرجل والمرأة ما داما في أعراسهما.

نِطَع: بكسر النون وفتح الطاء: بساط من جلد.

⋆ فوائد الحديث:

قال القاسمي: «دلّ تمثّله ﷺ بالآية على شمولها لعذاب الدنيا أولا وبالذات»[٢].

قال القاضي: «وفي تصبيحهم النبي ﷺ ولم يَدْعُهم، حجة في أن من بلغته الدعوة لا يُدعى. وفيه أن المستحب في الضرب على العدو أول النهار وصبيحته؛ لأنه وقت غِرتهم وغفلة أكثرهم، ثم ينتشر له النهار وضوؤه لما يحتاج إليه. بخلاف ملاقاة الجيوش، ومناصبة الحصون، فهذا المستحب فيه أن يكون من بعد الزوال ليدوم النشاط ببَرْد الهواء بخلاف ضده»[٣].

وقال: «قوله: «**فإذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين**».. فيه جواز النزاع بآيات القرآن، والاستشهاد بها في الأمور الحقيقية، وقد جاء في هذا كثير في الآثار، ويكره عن ذلك ما كان على ضرب الأمثال في المحاورات والأمزاح ولغو الحديث، تعظيمًا لكتاب اللَّه ﷻ»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٢)، والبخاري (١/ ٦٣٢/ ٣٧١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٦-١٤٢٧/ ١٣٦٥)، وأبو داود (٣/ ٤١٠/ ٣٠٠٩) مختصراً، والنسائي (٦/ ٤٤٢-٤٤٤/ ٣٣٨٠).

(٢) محاسن التأويل (١٤/ ١٤١).

(٣) إكمال المعلم (٦/ ١٧٩).

(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ وأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين، وخلّهم وفريتهم على ربهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يقول: إلى حين يأذن اللَّه بهلاكهم، ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩﴾ يقول: وأنظرهم فسوف يرون ما يحُل بهم من عقابنا في حين لا تنفعهم التوبة، وذلك عند نزول بأس اللَّه بهم»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١١٦).

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ينزه -تبارك وتعالى- نفسه ويقدسها ويبرّئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علوا كبيرا، ولهذا قال -تبارك وتعالى-: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: سلام اللَّه عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيته، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفة الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص؛ قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن، ولهذا قال -تبارك وتعالى-: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»[1].

قال ابن القيم: «فنزّه نفسه عما يصفه به الخلق، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد. ومن ههنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن إدريس الشافعي قدس اللَّه روحه، ونور ضريحه، خطبة كتابه حيث قال: (الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه) فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته إنما تُتلقى بالسمع لا بآراء الخلق، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق، فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، وأن ما وصف به نفسه فهو الذي يوصف به، لا ما وصفه به الخلق»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٣-١٥٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العزة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: «**أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[١].

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك. ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ اللَّه لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة**»[٢].

★ فوائد الحديثين:

ترجم البخاري رحمه الله تعالى على هذين الحديثين في كتاب التوحيد من صحيحه بالآية. قال الحافظ: «والذي يظهر أن مراد البخاري بالترجمة إثبات العزة لله ردًّا على من قال: إنه العزيز بلا عزة، كما قالوا: العليم بلا علم»[٣].

قال الغنيمان تعليقًا على كلام الحافظ: «قلت: لا يقصِد العزة بخصوصها؛ بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر»[٤].

وقال: «المراد من هذه الأحاديث هنا ظاهر، إذ فيها الحلف بعزة اللَّه تعالى، ولا يحلف إلا باللَّه أو بصفاته»[٥].

وقد تقدّم ما يتعلّق بصفة العزة في سورة إبراهيم عند قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الآية (٤).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٢)، والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٦/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٩/ ٧٦٨٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٣٤)، والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٤)، مسلم (٤/ ٢١٨٧-٢١٨٨/ ٢٨٤٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١١/ ٧٧٢٥).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٤٥٧).

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٤٨).

(٥) المصدر نفسه (١/ ١٤٩).



سورة ص

أغراض السورة

من أغراضها: «توبيخ المشركين على تكذيبهم الرسول ﷺ وتكبُّرهم عن قبول ما أرسل به، وتهديدهم بمثل ما حلّ بالأمم المكذبة قبلهم، وأنهم إنما كذبوه لأنه جاء بتوحيد اللَّه تعالى، ولأنه اختصّ بالرسالة من دونهم.

وتسلية الرسول ﷺ عن تكذيبهم، وأن يقتدي بالرسل من قبله: داود وأيوب وغيرهم، وما جوزوا عن صبرهم، واستطراد الثناء على داود وسليمان وأيوب، وأتبع ذكر أنبياء آخرين. .

وإثبات البعث لحكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير أو شر، وجزاء المؤمنين المتقين، وضده من جزاء الطاغين، والذين أضلوهم وقبّحوا لهم الإسلام والمسلمين، ووصف أحوالهم يوم القيامة، وذكر أول غواية حصلت، وأصل كل ضلالة، وهي غواية الشيطان في قصة السجود لآدم.

وقد جاءت فاتحتها مناسبة لجميع أغراضها؛ إذ ابتدأت بالقسم بالقرآن الذي كذب به المشركون، وجاء المقسم عليه أن الذين كفروا في عزة وشقاق، وكل ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم، ومن أحوال المؤمنين؛ سببه ضدّ ذلك، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده، فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء»[1].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٢-٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عزة: أي: تكبر وامتناع من قبول الحق. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[١]. والعزة عند العرب: الغلبة والقهر. يقال: من عَزّ بَزّ: أي: من غلب سلب.

شقاق: أي: خلاف. يقال: شق فلان العصا: إذا خالف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد.

قال الضحاك في قوله: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[٢] أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عيينة وأبو حصين وأبو صالح والسدي ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين؛ فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار.

واختلفوا في جواب هذا القسم؛ فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ

---

(١) البقرة: الآية (٢٠٦).

(٢) الأنبياء: الآية (١٠).

﴿ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾[١] وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾[٢] حكاهما ابن جرير وهذا الثاني فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير.

وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ واختاره ابن جرير. وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم»[٣].

قال ابن القيم: «من حلف لشخص أنه يحبُّه ويعظّمه فقال: (والذي ملأ قلبي من محبتك وإجلالك ومهابتك) ونظائر ذلك؛ لم يَحتج إلى جواب القسم، وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه، فمن هذا قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾؛ فإن في المقسَم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد مايحتاجون إليه، وللشرف والقدر؛ مايدل على المقسَم عليه، وكونه حقا من عند الله غير مفترى كما يقوله الكافرون، وهذا معنى قول كثير من المفسرين -متقدميهم ومتأخريهم-: إن الجواب محذوف تقديره: إن القرآن لحق، وهذا مطرد في كل ماشأنه ذلك.

وأما قول بعضهم إن الجواب قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾[٤] فاعترض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ فبعيد لأن (كم) لا يُتلقى بها القسم، فلا تقول: (والله كم أنفقت مالا، وبالله كم أعتقت عبدا) وهؤلاء لمّا لم يَخْفَ عليهم ذلك احتاجوا أن يقدروا ما يُتلقى بها الجواب، أي: لَكَم أهلكنا. وأبعد من هذا قول من قال: الجواب في قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾[٥]. وأبعد منه قول من قال: الجواب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾[٦]. وأبعد منه قول من قال: الجواب قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾[٧]. وأقرب ما قيل في الجواب لفظا، وإن كان بعيدا معنى، عن قتادة وغيره: إنه في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كما قال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[٨].

---

(١) ص: الآية (١٤).
(٢) ص: الآية (٦٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥١).
(٤) ص: الآية (٣).
(٥) ص: الآية (١٤).
(٦) ص: الآية (٥٤).
(٧) ص: الآية (٦٤).
(٨) ق: الآيتان (١و٢).

وقوله : ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ :

قال ابن كثير : «أي : إن في هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعتبر . وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي : استكبار عنه وحمية ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي : مخالفة له ومعاندة ومفارقة»[1] .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥١).

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

مناص: المناص: النجاة والفوت والملجأ. وأصله من النَّوْص، وهو التأخر. خلافه: البَوْص، وهو التقدم. قال امرؤ القيس:

أمِن ذِكر ليلى إذْ نأتْك تَنُوص … فتَقصُر عنها خُطْوة وتَبُوص

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كثيرًا أهلكنا مِن قبل هؤلاء المشركين من قريش، الذين كذبوا رسولنا محمدا ﷺ فيما جاءهم به من عندنا من الحق ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ يعني: من الأمم الذين كانوا قبلهم، فسلكوا سبيلهم في تكذيب رسلهم فيما أتوهم به من عند الله ﴿فَنَادَوا﴾ يقول: فعجّوا إلى ربهم وضجوا، واستغاثوا بالتوبة إليه، حين نزل بهم بأس الله، وعاينوا به عذابه، فرارا من عقابه، وهربا من أليم عذابه، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يقول: وليس ذلك حين فرار ولا هرب من العذاب بالتوبة، وقد حقت كلمة العذاب عليهم، وتابوا حين لا تنفعهم التوبة، واستقالوا في غير وقت الإقالة»[1].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم الماضية المهلَكة ينادُون عند معاينة العذاب، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء؛ إذ لا ملجأ فيه ولا مفرّ ولا مناص؛ ذكره في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[2] الآية. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۝١٥﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٢٠).
(٢) غافر: الآيتان (٨٤و٨٥).
(٣) الأنبياء: الآيات (١٢-١٥).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٣٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وعجب هؤلاء الكفار من قريش أن جاءهم منذر ينذرهم بأس اللَّه على كفرهم به، مِن أنفسهم ولم يأتهم ملَك من السماء بذلك ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يقول: وقال المنكرون وحدانية الله: هذا: يعنون محمدا ﷺ ساحر كذاب»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول بشرًا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾[2]»[3].

وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ قال ابن جرير: «يقول: وقال هؤلاء الكافرون الذين قالوا: محمد ساحر كذاب: أجَعل محمدٌ المعبودات كلَّها واحدا يسمع دعاءنا جميعنا، ويعلم عبادة كل عابد عَبدَه منا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾: أي إن هذا لشيء عجيب»[4].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم، وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، من عجبهم المذكور؛ ذكره في غير هذا الموضع، وأنكره عليهم وأوضح تعالى سببه وردّه عليهم في آيات أخر، فقال في عجبهم المذكور: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[5].

وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٢٤).
(٢) يونس: الآية (٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٣).
(٤) جامع البيان (٢٣/ ١٢٤).
(٥) ق: الآيتان (١و٢).

﴿٢﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾(١) وذكر مثل عجبهم المذكور في سورة الأعراف عن قوم نوح وقوم هود، فقال عن نوح مخاطبًا لقومه: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾(٢).

وقال عن هود مخاطبًا لعاد: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾(٣) الآية. وبين أن سبب عجبهم من كون منذر منهم أنه بشرٌ مثلُهم زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحدًا من جنسهم. وأنه لو أراد أن يرسل إليهم أحدًا؛ لأرسل إليهم ملكًا، لأنه ليس بشرًا مثلهم، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق.

والآيات في ذلك كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾(٦). وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٧). وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾(٨). وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾(٩) الآية. وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾(١٠) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾(١١) وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ

---

(١) يونس: الآية (١و٢).
(٢) الأعراف: الآية (٦٣).
(٣) الأعراف: الآية (٦٩).
(٤) الإسراء: الآيتان (٩٤و٩٥).
(٥) المؤمنون: الآية (٤٧).
(٦) المؤمنون: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٧) الفرقان: الآية (٧).
(٨) التغابن: الآية (٦).
(٩) القمر: الآيتان (٢٣و٢٤).
(١٠) إبراهيم: الآية (١٠).
(١١) الأنعام: الآيتان (٨و٩).

أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾[١] وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[٥] الآية. وقوله تعالى عن فرعون مع موسى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[٦].

وقد ردّ اللّه تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من البشر في آيات من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾[٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾[١٠] وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾[١١] أي: بالرسالة والوحي لو كان بشرًا مثلكم»[١٢].

* * *

---

(١) فصلت: الآيتان (١٣و١٤).
(٢) المؤمنون: الآية (٢٤).
(٣) الحجر: الآيات (٦-٨).
(٤) الفرقان: الآية (٧).
(٥) الفرقان: الآيتان (٢١و٢٢).
(٦) الزخرف: الآية (٥٣).
(٧) الفرقان: الآية (٢٠).
(٨) الرعد: الآية (٣٨).
(٩) يوسف: الآية (١٠٩).
(١٠) الأنبياء: الآيتان (٧و٨).
(١١) إبراهيم: الآية (١١).
(١٢) أضواء البيان (٦/ ٣٣٥-٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾

★ غريب الآية:

انطلق: الانطلاق: الذهاب بسرعة.

اختلاق: كذب وافتراء. يقال: خلق واختلق، أي: ابتدع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وانطلق الأشراف من هؤلاء الكافرين من قريش، القائلين: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ بأنِ امضُوا فاصبروا على دينكم وعبادة آلهتكم.. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه من قول لا إله إلا اللَّه، شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعا، ولسنا مجيبيه إلى ذلك.

وقوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من البراءة من جميع الآلهة إلا من اللَّه -تعالى ذكره- وبهذا الكتاب الذي جاء به؛ في الملة النصرانية، قالوا: وهي الملة الآخرة.

.. وقال آخرون: بل عنوا بذلك: ما سمعنا بهذا في ديننا دين قريش.. وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل هؤلاء المشركين في القرآن: ما هذا القرآن إلا اختلاق: أي كذب اختلقه محمد وتخرَّصه»[1].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٢٦-١٢٨).

قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل هؤلاء المشركين من قريش: أأنزل على محمد الذكر من بيننا فخصّ به، وليس بأشرف منا حَسَبا»[1].

قال ابن كثير: «يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[3]»[4].

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما بهؤلاء المشركين أن لا يكونوا أهل علم بأن محمدًا صادق، ولكنهم في شك من وحينا إليه، وفي هذا القرآن الذي أنزلناه إليه أنه من عندنا، ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ يقول: بل لم يَنزِل بهم بأسنا، فيذوقوا وبال تكذيبهم محمدا، وشكِّهم في تنزيلنا هذا القرآن عليه، ولو ذاقوا العذاب على ذلك علموا وأيقنوا حقيقة ما هم به مكذِّبون، حين لا ينفعهم علمهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: أم عند هؤلاء المشركين المنكرين وحي الله إلى محمد خزائن رحمة ربك، يعني مفاتيح رحمة ربك يا محمد، العزيز في سلطانه، الوهاب لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة، فيمنعوك يا محمد، ما منّ الله به عليك من الكرامة، وفضّلك به من الرسالة»[5].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٢٨).
(٢) الزخرف: الآية (٣١).
(٣) الزخرف: الآية (٣٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٥).
(٥) جامع البيان (٢٣/ ١٢٨-١٢٩).

قال ابن كثير: «﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾ أي: العزيز الذي لا يرام جنابه. الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾[1] وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾[2] وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ۝٢٦﴾[3]»[4].

* * *

(١) النساء: الآيات (٥٣-٥٥).

(٢) الإسراء: الآية (١٠٠).

(٣) القمر: الآيتان (٢٥و٢٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يرتقوا: الارتقاء: الصعود. قال الشاعر:

لو لم يجد سلمًا ما كان مرتقيًا والمرتقي والذي رقّاه سيان

الأسباب: واحدها: سبب. والسبب: ما يوصل به إلى المطلوب. قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا يَنَلْنَهُ ولو رَامَ أسبابَ السماء بسُلّم

الأحزاب: جمع حزب، وهو الجماعة الكثيفة. ويقال للجند: حزب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أم لهؤلاء المشركين الذين هم في عزة وشقاق ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فإنه لا يُعازُّني ويُشاقُّني من كان في مُلكي وسلطاني. وقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ يقول: وإن كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما، فليصعدوا في أبواب السماء وطرقها، فإنّ مَن كان له مُلك شيء لم يتعذر عليه الإشراف عليه، وتفقُّده وتعهُّده.. وقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: هم جُنْد يعني الذين في عزّة وشقاق هنالك، يعني: ببدر مهزوم. وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ من صلة مهزوم، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني من أحزاب إبليس وأتباعه الذين مضوا قبلهم، فأهلكهم اللَّه بذنوبهم»[1].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٢٩-١٣٠).

وقال ابن كثير: «﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾[1]»[2].

* * *

(١) القمر: الآيات (٤٤-٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٦).

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : كذّبت قبل هؤلاء المشركين من قريش، القائلين : أجعل الآلهة إلها واحدا، رسلَها، قومُ نوح وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد.

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله قيل لفرعون ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾، فقال بعضهم : قيل ذلك له لأنه كانت له ملاعب من أوتاد، يُلْعَب له عليها.. وقال آخرون : بل قيل ذلك له كذلك لتعذيبه الناس بالأوتاد.. وقال آخرون : معنى ذلك : ذو البنيان، قالوا : والبنيان : هو الأوتاد. وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عني بذلك الأوتاد، إما لتعذيب الناس، وإما للعب، كان يُلْعَب له بها، وذلك أن ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد، وثمود وقوم لوط، وقد ذكرنا أخبار كل هؤلاء فيما مضى قبل من كتابنا هذا. ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ يعني : وأصحاب الغَيْضَة. وقوله : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ يقول -تعالى ذكره- : هؤلاء الجماعات المجتمعة، والأحزاب المتحزّبة على معاصي اللّه والكفر به، الذين منهم يا محمد مشركو قومك، وهم مَسْلوكٌ بهم سبيلَهم.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ يقول : ما كلّ هؤلاء الأمم إلا كذّب رسل اللّه، وهي في قراءة عبد اللّه كما ذكر لي : (إنْ كُلٌّ لَمَّا كَذَّبَ الرُّسُل فَحَقَّ عِقَابِ) يقول : فوجب عليهم عقاب اللّه إياهم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٣٠-١٣١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

من فواق: أي: رجوع. والفَواق بفتح القاف وضمها ما بين الحلْبَتين من الوقت. لأن الناقة تُحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدُرّ ثم تُحلب.

قِطَّنا: القِطّ: الكتاب. قال أبو عبيدة: القطوط: الكتب. قال الأعشى:

ولا الملِكُ النعمانُ يَومَ لقيتُهُ ... بغِبطته يُعطي القطوطَ ويَأفِقُ

يعني كتب الجوائز. وأصل القطّ: القطع، وهو اسم للقطعة من الشيء فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره. قال الفراء: القِط في كلام العرب الحظ والنصيب. إلا أنه أكثر استعمالًا في الكتاب. قال أمية بن أبي الصلت:

قوم لهم ساحةُ العراقِ وما ... يُجْبى إليه والقِطُّ والقَلَمُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما ينظر هؤلاء المشركون باللَّه من قُريش ﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني بالصيحة الواحدة: النفخة الأولى في الصور ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ يقول: ما لتلك الصيحة من فِيقة، يعني من فتور ولا انقطاع»[1].

قال الشوكاني: «ومعنى الآية أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم، فإذا جاءت لم ترجع، ولا تُردّ عنهم ولا تُصرف منهم ولا تتوقف مقدار فواق ناقة، وهي ما بين حَلْبتي الحالِب لها»[2].

وقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾:

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٣٢).
(٢) فتح القدير (٤/ ٥٩٥).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش: يا ربنا عجل لنا كتبنا قبل يوم القيامة. والقطّ في كلام العرب: الصحيفة المكتوبة.. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أراد هؤلاء المشركون بمسألتهم ربهم تعجيل القطّ لهم؛ فقال بعضهم: إنما سألوا ربهم تعجيل حظهم من العذاب الذي أعد لهم في الآخرة في الدنيا، كما قال بعضهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]..

وقال آخرون: بل إنما سألوا ربهم تعجيل أنصبائهم ومنازلهم من الجنة حتى يروها فيعلموا حقيقة ما يعدهم محمد ﷺ فيؤمنوا حينئذ به ويصدّقوه..

وقال آخرون: مسألتهم نصيبهم من الجنة، ولكنهم سألوا تعجيله لهم في الدنيا..

وقال آخرون: بل سألوا ربهم تعجيل الرزق..

وقال آخرون: سألوا أن يعجل لهم كتبهم التي قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[2] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾[3] في الدنيا، لينظروا: بأيمانهم يعطونها أم بشمائلهم، ولينظروا مِن أهل الجنة هم، أم من أهل النار قبل يوم القيامة؛ استهزاء منهم بالقرآن وبوعد الله.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صِكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر، الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا؛ استهزاء بوعيد الله.

وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لأن القطّ هو ما وصفت من الكتب بالجوائز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فكان معلوما بذلك أن مسألتهم ما سألوا النبي ﷺ لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم؛ لم يكن بالذي يُتبَع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاء، وكان فيه لرسول الله ﷺ أذى، أمره الله بالصبر

---

(١) الأنفال: الآية (٣٢).

(٢) الانشقاق: الآية (٧).

(٣) الحاقة: الآية (٢٥).

عليه منهم حتى يأتيه قضاؤه فيهم، ولما لم يكن في قوله: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ بيان أيّ القطوط إرادتهم، لم يكن لنا توجيهُ ذلك إلى أنه معني به القطوط ببعض معاني الخير أو الشرّ، فلذلك قلنا إن مسألتهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٣٤-١٣٥).

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: اصبر يا محمد على ما يقول مشركو قومك لك مما تكره قيلهم لك، فإنا ممتحنوك بالمكاره امتحاننا سائر رسلنا قبلك، ثم جاعلو العلوّ والرفعة والظفر لك على من كذبك وشاقك، سنّتنا في الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا قبلك، فمنهم عبدنا أيوب وداود»[1].

قال الرازي: «إن قوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ غير مقتصر على داود فقط، بل ذَكر عقيب قصة داود قصصَ سائر الأنبياء، فكأنه قال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ واعتبر بحال سائر الأنبياء، ليعلّمه أن كل واحد منهم كان مشغولًا بهمّ خاص، وحزنٍ خاص، فحينئذٍ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان، وأن استحقاق الدرجات العالية عند اللّه لا يحصل إلا بتحمل المشاقّ والمتاعب في الدنيا»[2].

وقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ قال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القوّة والبطش الشديد في ذات اللّه والصبر على طاعته.. وقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يقول: إن داود رَجّاع لما يكرهه اللّه إلى ما يرضيه أواب، وهو من قولهم: آب الرجل إلى أهله: إذا رجع»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل داود عليه السلام

* عن سليمان الأحول أن مجاهدا أخبره أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم. ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٣٦).
(٢) مفاتح الغيب (٢٦/ ١٨٥).
(٣) جامع البيان (٢٣/ ١٣٦).

﴿ٱقْتَدِهْ﴾[١]، ثم قال: هو منهم.

زاد يزيد بن هارون ومحمد بن عبيد وسهل بن يوسف عن العوام عن مجاهد: قلت لابن عباس فقال: نبيكم ﷺ ممن أُمر أن يقتديَ بهم[٢].

★ من فوائد الحديث:

ترجم البخاري رحمه الله على هذا الحديث في كتاب أحاديث الأنبياء من صحيحه بالآية، ومقصوده بالترجمة ذِكْر داود عليه السلام، وبيان شيء من فضائله، ومن ذلك ما نصت عليه آية الأنعام من أمر نبينا ﷺ بالاقتداء به؛ لما كان عليه من القوة في العبادة والأوب إليه سبحانه، والصبر على الأذى في ذلك.

قوله: (هو منهم) «أي: داود ممن أُمر نبيكم أن يقتدي به في قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾»[٣].

وقوله: (نبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم) «أي: وقد سجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ اقتداء به»[٤].

وفي هذا «تشريف عظيم، وإكرام لداود؛ حيث أمر الله أفضل الخلق محمدًا ﷺ أن يقتدي به»[٥].

وتقدّم الكلام على الحديث في سورة (الأنعام) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الآية (٩٠).

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «**أَحَبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود** عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويفطر يومًا»[٦].

---

(١) الأنعام: الآيات (٨٤-٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٠)، والبخاري (٨/ ٣٧٤/ ٤٦٣٢).

(٣) فتح الباري (٨/ ٣٧٤).

(٤) إرشاد الساري (١١/ ١٨).

(٥) مفاتح الغيب (٢٦/ ١٨٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠)، والبخاري (٣/ ٢٠/ ١١٣١)، ومسلم (٢/ ٨١٢/ ١١٥٩)، وأبو داود (٢/ ٨٢١/ ٢٤٤٨)، والنسائي (٣/ ٢٣٧/ ١٦٢٩)، وابن ماجه (١/ ٥٤٦/ ١٧١٢).

★ **من فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «إنما أحاله على صوم داود، ووصفه بأنه كان أعبد الناس لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قال ابن عباس: (الأيد) هنا: القوة على العبادة. و(الأوّاب): الرجّاع إلى اللَّه تعالى وإلى عبادته وتسبيحه»[1].

قال الحافظ: «قال المهلب: كان داود ﷺ يُجِمّ نفسَه بنوم أول الليل، ثم يقوم في الوقت الذي ينادي اللَّه فيه: «**هل من سائل فأعطيَه سؤلَه**»[2]، ثم يستدرك بالنوم ما يستريح به من نَصَب القيام في بقية الليل، وهذا هو النوم عند السَّحر كما ترجم به المصنف، وإنما صارت هذه الطريقة أحبَّ من أجل الأخذ بالرفق للنفس التي يخشى منها السآمة، وقد قال ﷺ: «**إن اللَّه لا يَملّ حتى تملّوا**»[3] واللهُ أحبَّ أن يديم فضلَه ويواليَ إحسانه، وإنما كان ذلك أرفق؛ لأن النوم بعد القيام يريح البدن، ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم، بخلاف السهر إلى الصباح. وفيه من المصلحة أيضًا استقبال صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال، وأنه أقرب إلى عدم الرياء؛ لأن من نام السدس الأخير، أصبح ظاهر اللون سليم القوى، فهو أقرب إلى أن يخفي عمله الماضي على من يراه»[4].

وقال ابن الجوزي: «وأما صوم داود ﷺ؛ فإنه صوم يوم وإفطار يوم، وفيه لُطف من وجه ومشقة من وجه: أما اللطف فإنه بإفطار يوم يتقوى ليوم الصوم، وأما المشقة فإن النفس تسكن إلى الإفطار فتصوم، وتسكن إلى الصوم فتفطر»[5].

* * *

---

(١) المفهم (٣/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٤٨٧)، والبخاري (٣/ ٣٦/ ١١٤٥)، ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨)، وأبو داود (٢/ ٧٦-٧٧/ ١٣١٥)، والترمذي (٥/ ٤٩٢/ ٣٤٩٨).

(٣) الطبراني (١٧/ ٢٨٧/ ٧٩١) والبيهقي في شعب الايمان (٥/ ٤٠٧/ ٧٠٩٧) وصححه الحاكم (٤/ ٢٥٦-٢٥٧) ووافقه الذهبي.

وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٠) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن».

(٤) فتح الباري (٣/ ٢١).

(٥) كشف المشكل (٤/ ١١٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا سخرنا الجبال يسبحن مع داود بالعشيّ: وذلك من وقت العصر إلى الليل، والإشراق: وذلك بالغداة وقت الضحى. ذُكر أن داود كان إذا سبّح سبحت معه الجبال»[1].

قال ابن كثير: «أي: أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[2] وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجّع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور؛ لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء وتسبّح معه، وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه، وتسبح تبعًا له»[3].

قال الرازي: «واحتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية.. وعن طاووس عن ابن عباس قال: «هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن؟ قالوا: لا، فقرأ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾» وقال: كان يصليها داود عليه السلام. وقال: لم يزل في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[4]»[5].

قال المراغي: «وتخصيص هذين الوقتين بالذكر يدل على اختصاصهما بمزيد شرف العبادة فيهما؛ فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثرًا في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات»[6].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٣٧).
(٢) سبأ: الآية (١٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٧).
(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٧٩/ ٤٨٧٠).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ١٨٧).
(٦) تفسير المراغي (٢٣/ ١٠٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة صلاة الضحى

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوّاب، قال: وهي صلاة الأوابين**»[١].

* عن القاسم الشيباني أن زيد بن أرقم رأى قومًا يصلون من الضحى فقال: أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه الساعة أفضل؛ إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**صلاة الأوابين حين ترمَض الفصال**»[٢].

★ غريب الحديثين:

الأوّاب: الرّجّاع، كأنه أذنب ثم رجع بالتوبة.

الفِصال: واحد فَصيل، وهو صغير الإبل لأنه يفصل عن أمه. والواحد: فَصيل، ويجمع أيضا على فُصلان.

ترمض: رمِض يومُنا، من باب تعِب: يرمَض، اشتد حرّه. والمراد: يصيبها حرّ الرّمضاء، وهو الرمل يحمى بحرّ الشمس فتبرك الفصال من شدة احتراق أخفافها.

★ من فوائد الحديثين:

قال ابن الجوزي: «المعنى: صلاة الأوّابين عند شدة ارتفاع الشمس، والإشارة إلى صلاة الضحى، وذلك أفضل وقتها»[٣].

وقال الطيبي: «مدحهم بصلاتهم في الوقت الموصوف؛ لأنه وقت تركن النفوس إلى الاستراحة، وتتهيأ فيه أسباب الخلوة، فيرِد على قلوب الأوابين من الأنس بذكر اللَّه، وصفاء الوقت، ولذاذة المناجاة ما يقطعهم عن كل مطلوب سواه، وهذا الوقت مشابه للساعات المختارة في جوف الليل فتغتنم العبادة حينئذ»[٤].

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة (٢/ ٢٢٨/ ١٢٢٤)، والحاكم (١/ ٣١٤) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٦)، ومسلم (١/ ٥١٥-٥١٦/ ٧٤٨).

(٣) كشف المشكل (٢/ ٢٢٨).

(٤) شرح الطيبي على المشكاة (٤/ ١٢٤١).

وقال النووي: «فيه فضيلة الصلاة هذا الوقت، قال أصحابنا: هو أفضل وقت صلاة الضحى، وإن كانت تجوز من طلوع الشمس إلى الزوال»[١].

* * *

(١) شرح مسلم (٦/ ٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

أواب: أي: كثير الأوب، وهو الرجوع. قال الشاعر:

وكـــلُّ ذي غَـــيْـــبَـــةٍ يَـــؤُوبُ وغـــائـــبُ الـــمـــوتِ لا يـــؤوبُ

فصل الخطاب: أي: الفصل في القضاء ببيان الحق من الباطل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وسخرنا الطير يسبحن معه محشورة، بمعنى: مجموعة له، ذُكر أنه ﷺ كان إذا سبّح أجابته الجبال، واجتمعت إليه الطير، فسبحت معه، واجتماعها إليه كان حشرها.. وقوله: ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ يقول: كل ذلك له مطيع رجَّاع إلى طاعته وأمره. ويعني بالكلّ: كل الطير.. وقال آخرون: معنى ذلك كل ذلك لله مسبّح..

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ اختلف أهل التأويل في المعنى الذي به شُدّد ملكه، فقال بعضهم: شدّد ذلك بالجنود والرجال، فكان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف، أربعة آلاف.. وقال آخرون: كان الذي شُدد به ملكه، أن أعطي هَيبة من الناس له لقضية كان قضاها..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللّه تبارك تعالى أخبر أنه شَدَّد ملك داود، ولم يحصر ذلك من تشديده على التشديد بالرجال والجنود دون الهيبة من الناس له، ولا على هيبة الناس له دون الجنود. وجائز أن يكون تشديده ذلك كان ببعض ما ذكرنا، وجائز أن يكون كان بجميعها، ولا قول أولى في ذلك بالصحة من قول اللّه، إذ لم يحصر ذلك على بعض معاني التشديد خبرٌ يجب التسليم له..

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى الحكمة في هذا الموضع؛

فقال بعضهم: عنى بها النبوة.. وقال آخرون: عنى بها أنه عُلم السّنن..

وقوله: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك؛ فقال بعضهم: عنى به أنه عُلم القضاء والفهم به.. وقال آخرون: بل معنى ذلك وفصل الخطاب بتكليف المدّعي البينة، واليمين على المدعى عليه.. وقال آخرون: هو قول أما بعد..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه أخبر أنه آتى داود صلوات اللَّه عليه فصلَ الخطاب، والفصل: هو القطع، والخطاب هو المخاطبة. ومِن قطْع مخاطبة الرجل الرجلَ في حال احتكام أحدهما إلى صاحبه قطعُ المحتكَم إليه الحُكمَ بين المحتكِم إليه وخصمِه بصوابٍ من الحكم. ومِن قطْع مخاطبته أيضا صاحبَه إلزامُ المخاطَب في الحكم ما يجب عليه؛ إن كان مدعيا فإقامة البينة على دعواه، وإن كان مدعىً عليه فتكليفه اليمين إن طلب ذلك خصمُه. ومِن قطع الخطاب أيضا الذي هو خُطبة عند انقضاء قصة وابتداء في أخرى؛ الفصلُ بينهما بـ: (أما بعد).

فإذ كان ذلك كله محتملا ظاهر الخبر، ولم تكن في هذه الآية دلالة على أي ذلك المراد، ولا ورد به خبر عن الرسول ﷺ ثابت؛ فالصواب أن يعم الخبر، كما عمه اللَّه، فيقال: أوتي داود فصل الخطاب في القضاء والمحاورة والخطب»[1].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٣٧-١٤١).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

الخصم: يطلق على الواحد والاثنين والجماعة. قال الشاعر:

وخصم غِضابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ كنفض البراذينِ العرابِ المَخَالِيَا

تسوّروا: يقال: تسوَّر الحائط إذا تَسَلَّقَهُ. والمعنى: أتوه من أعلى سُوره.

المحراب: هنا الغرفة. قال أبو عبيدة: أشرف كلِّ مجلس وبيت ومُقَدَّمُه: مِحْرابه.

لا تُشطط: لا تسرف ولا تَجُرْ. وأصله البعد، من شطت الدارُ: أي: بعدت. وأَشطّ في السَّوم: أبعد. وفي القضية: جار. قال أبو عمرو: الشطط: مجاوزة القدر في كل شيء.

أكفلنيها: أي: ضُمَّها إلي حتى أكفُلها.

عزّني: غلبني. يقال: عَزَّه يَعُزُّه: إذا غلبه. وفي المثل: مَنْ عَزَّ بَزَّ. أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

الخلطاء: الخَليطُ المُخالِطُ، كالنديم المُنادِم، والجليس المُجالِس. وهو

واحدٌ وجمعٌ. قيل: لا يكون إلا في الشّرِكة، ويُجمع على خُلُطٍ وخُلطاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾. قال ابن عرفة: الخَلِيطُ: من خالطك في متجر أو ديْن أو معاملة أو جوار.

خر راكعًا: المراد: خر ساجدًا. لأنه قد يعبّر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخرّ على وجهِه راكعًا وتَابَ إلى اللَّه من كلِّ ذَنب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما أثنى تعالى على داود ﷺ بما أثنى، ذكر قصته هذه، ليُعلم أن مثل قصته لا يقدح في الثناء عليه والتعظيم لقدره، وإن تضمّنت استغفاره ربه، وليس في الاستغفار ما يُشعر بارتكاب أمر يُستغفر منه، وما زال الاستغفار شعار الأنبياء المشهود لهم بالعصمة. ومجيء مثل هذا الاستفهام إنما يكون لغرابة ما يجيء معه من القصص، كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾[1] فيتهيأ المخاطب بهذا الاستفهام لما يأتي بعده، ويصغي لذلك. وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحًا، وتكلمنا على ألفاظ الآية»[2].

وقال: «والذي يُذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسوِّرين المحرابَ كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحُكم، وأنه فزع منهم ظانًا أنهم يغتالونه، إذ كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه. فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم، كما قص اللَّه تعالى، وأن داود ﷺ ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت، ومن تلك الجهة إنفاذا من اللَّه له أن يغتالوه؛ فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، حيث أخلف ولم يكن يقع مظنونه، وخر ساجدًا، ورجع إلى اللَّه تعالى فغفر له ذلك الظن؛ ولذلك أشار بقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، ولم يتقدّم سوى قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، ويعلم قطعًا أن الأنبياء ﷺ معصومون من الخطايا، لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة، إذ

(١) النازعات: الآية (١٥).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٧٥).

لو جوزنا عليهم شيئًا من ذلك بطَلت الشرائع، ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى اللَّه به إليهم، فما حكى اللَّه تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى، وما حكى القُصاص مما فيه غضٌّ عن منصب النبوة طرحناه»[١].

وقال المراغي: «وما جاء في بعض كتب التفسير من أن المراد بالنّعاج النساء، كما جاء كناية عن ذلك في كلام العرب كما قال: (كنعاج الفلا تعسّفن رملا)؛ فذلك يَتوقف على أن كلمة (نعجة) في اللغة العبرية تستعمل كناية عن المرأة كما هي في العربية، وتأباه كلمة ﴿ٱلْخُلَطَآءِ﴾. وكذلك ما يقال من أن الخصمين كانا ملَكين؛ فإنّ ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ تأباه، لأن الملائكة أجسام نورانية لا أجسام كثيفة، فلا حاجة إلى التسوّر، إلا أن ما جاء من القصص عن ذكر السبب في مجيء الملكين مما يخلّ بمنصب النبوة، وفيه نسبة الكبائر إلى الأنبياء، فيجب علينا أن نطرحه، إذ يبطل الوثوق بالشرائع، إلى ما فيه من مطعن لأرباب الأديان الأخرى على المسلمين، إذ نسبوا إلى الأنبياء ما يُجلّ مقامهم عنه، ويأباه عامة الناس فضلا عن الأنبياء الذين اصطفاهم اللَّه لرسالاته، ومن ثَمّ أُثر عن علي ﷺ أنه قال: (من حدّثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدتُه مائة وستين»)[٢].

وقال ابن كثير: «قد ذكرالمفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس -ويزيد وإن كان من الصالحين- لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يُقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى اللَّه ﷻ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا»[٣].

وقال البقاعي: «وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود ﵇؛ لأن عيسى ﵇ من ذريته، ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه.. ثم قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع كلامه.. فكانت هذه الدعوة تدريبا لداود ﵇

(١) البحر (٧/ ٣٧٧-٣٧٨).
(٢) تفسير المراغي (٢٣/ ١١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٠).

في الأحكام، وذكرُها للنبي ﷺ تدريبًا له على الأناة في جميع أموره على الدوام.

ولما كان ذكر هذا ربما أوهم شيئًا في مقامه ﷺ، سيق في أسلوب التأكيد قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي مع الغفران، وعظّم ذلك بمظهر العظمة؛ لأن ما ينسب إلى العظيم لا يكون إلا عظيمًا؛ فقال: ﴿عِندَنَا﴾ وزاد في إظهار الاهتمام بذلك نفيًا لذلك الذي ربما توهم، فأكد قوله: ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ أي: قربة عظيمة ثابتة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: مرجع في كل ما يُؤمّل من الخير وفوق ذلك، فهذا مُعلِم، ولا بد بأن هذه القضية لم يجر إلى ذكرها إلا الترقية في رتب الكمال لا غير ذلك، وأدل دليل على ما ذكرته أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم لا بامرأة ولا غيرها، وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر، فكم من باطل مشهور، ومذكورٍ هو عين الزور»[1].

وقال القاضي عياض: «وأما قصة داود عليه السلام؛ فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيه الإخباريون عن أهل الكتاب، الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح، والذي نص عليه قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، وقوله فيه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾. فمعنى ﴿فَتَنَّٰهُ﴾: اختبرناه، و﴿أَوَّابٌ﴾: قال قتادة: مطيع، وهذا التفسير أولى. . وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قولُه لأحد الخصمين: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فظلّمه بقول خصمه. وقيل: بل لما خشي على نفسه، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا. وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام وغيرهما من المحققين. وقال الداودي: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم. وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في نتاج غنم على ظاهر الآية»[2].

قال ابن حزم بعد أن ذكر الآية: «وهذا قول صادق صحيح، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود، وإنما كان ذلك

(١) انظر الدرر (١٦/ ٣٦٢-٣٦٥).
(٢) الشفا (٢/ ٣٧١-٣٧٣).

الخصم قوما من بني آدم بلا شك مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية، ومن قال: إنهم كانوا ملائكة معرّضين بأمر النساء؛ فقد كذب على اللّه ﷻ، وقوّله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذّب اللّه ﷻ، وأقرّ على نفسه الخبيثة أنه كذّب الملائكة؛ لأن اللّه تعالى يقول: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١﴾ فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾، فاعجبوا لِم يقحمون فيه أهلُ الباطل أنفسَهم، ونعوذ باللّه من الخذلان، ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردة، وتاللّه إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره، ثم يعرّض زوجها للقتل عمدا ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، هذه أفعال السفهاء المتهوكين، الفساق المتمردين، لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول اللّه داود ﷺ، الذي أوحى إليه كتابه، وأجرى على لسانه كلامه، لقد نزهه اللّه ﷻ عن أن يمر مثلُ هذا الفحش بباله، فكيف أن يستضيف إلى أفعاله، وأما استغفاره وخروره ساجدا ومغفرة اللّه تعالى له، فالأنبياء ﷺ أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة، والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي ولا من مذنب ولا من غير مذنب، فالنبي يستغفر اللّه لمذنبي أهل الأرض والملائكة؛ كما قال اللّه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[1].

وأما قوله تعالى عن داود ﷺ ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾؛ فقد ظن داود ﷺ أن يكون ما أتاه اللّه ﷻ من سعة الملك العظيم فتنة، فقد كان رسول اللّه ﷺ يدعو في صلاته أن يثبت اللّه قلبه على دينه، فاستغفر اللّه تعالى من هذا الظن، فغفر اللّه تعالى له هذا الظن إذ لم يكن ما أتاه اللّه تعالى من ذلك فتنة»[2].

وقال السعدي: «وهذا الذنب الذي صدر من داود ﷺ، لم يذكره اللّه لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه اللّه علينا من

---

(١) غافر: الآية (٧).

(٢) الفصل (٤/ ١٨-١٩).

لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محلُّه، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها»[١].

قال ابن كثير: «﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.. أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه اللَّه ﷻ بها، وحسن مرجع وهو الدرجات العاليات في الجنة، لتوبته وعدله التام في ملكه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سجدة (ص)

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سجد في (ص) وقال: «**سجدها داود عليه السلام توبة، ونسجدها شكرًا**»[٣].

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: رأيت فيما يرى النائم: كأني تحت شجرة، وكانت الشجرة تقرأ (ص) فلما أتت على السجدة سجَدت، فقالت في سجودها: اللهم اكتب لي بها أجرًا، وحطّ عني بها وزرًا، وأحدث لي بها شكرًا، وتقبّلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته. فلما أصبحتُ غدوتُ على النبي ﷺ فأخبرته، بذلك فقال: «**سجدتَ أنت يا أبا سعيد؟**» فقلت: لا، قال: «**أنت كنتَ أحق بالسجود من الشجرة** فقرأ رسول اللَّه ﷺ سورة (ص) حتى أتى على السجدة، فقال في سجوده ما قالت الشجرة في سجودها»[٤].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «(ص) ليس من عزائم السجود، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها»[٥].

* عن مجاهد قال: قلت لابن عباس: أنسجد في (ص)؟ فقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٠-٦٢).

(٣) أخرجه: النسائي (٢/ ٤٩٨/ ٩٥٦)، وصححه ابن السكن كما في التلخيص (٢/ ٩).

(٤) أبو يعلى (٢/ ٣٣٠/ ١٠٦٩)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٨٦/ ٤٧٦٥)، وصححه الشيخ الألباني في صحيحته (٢٧١٠).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٠)، والبخاري (٢/ ٧٠٣/ ١٠٦٩)، وأبو داود (٢/ ١٢٣-١٢٤/ ١٤٠٩)، والترمذي (٢/ ٤٦٩/ ٥٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٢/ ١١١٧٠).

﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ -حتى أتى- ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[١]، فقال ابن عباس ﷺ: «نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدي بهم»[٢].

★ **من فوائد الأحاديث:**

دلّت هذه الأحاديث على مشروعية السجود في (ص)، وهذه مسألة قد اختلف أهل العلم فيها، «فقالت طائفة: لا سجود فيها، روي ذلك عن ابن مسعود، وقال: هي توبة نبي. وروي مثله عن عطاء، وبه قال الشافعي. وقالت طائفة بالسجود فيها. روي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وعقبة ابن عامر وعن سعيد بن المسيب والحسن وطاووس، وبه قال مالك وأبو حنيفة والثوري، وروي عن ابن عباس مثله، ذكره البخاري في كتاب الأنبياء عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: أأسجد في (ص) فقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ -حتى انتهى- ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٣]، فقال ابن عباس ﷺ: (نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدي بهم) فاحتجاج ابن عباس بالقرآن أولى من قوله: (ليس (ص) من عزائم السجود). وقال مالك: إنها من عزائم السجود. وقال الطحاوي: والنظر عندنا أن يكون في ص سجدة؛ لأن موضع السجود منها موضع خبر لا موضع أمر، فينبغي أن يرد إلى حكم أشكاله من الأخبار، فيكون فيها سجود»[٤].

وقد تقدّم ما يتعلق بمسألة سجود التلاوة في سورة (الأعراف) فلينظر هناك. والله ولي التوفيق.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة العدل بين الناس

* عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسِطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»[٥].

---

(١) الأنعام: الآيات (٨٤-٩٠).
(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٠)، والبخاري (٦/ ٥٦٤/ ٣٤٢١).
(٣) الأنعام: الآيات (٨٤-٩٠). (٤) شرح ابن بطال (٣/ ٥٥).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠)، ومسلم (٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧)، والنسائي (٨/ ٦١٢-٦١٣/ ٥٣٩٤).

★ **فوائد الحديث:**

مطابقة الحديث للآية من جهة أن القسط والعدل من أسباب نيل الزلفى والدرجات العليا في الجنة، قال النووي: «معناه: أن هذا الفضل إنما هو لمن عدَل فيما تقلّده من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة أو نظر على يتيم أو صدقة أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك. والله أعلم»[١].

* * *

(١) شرح مسلم (١٢/ ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «بعد أن قص سبحانه علينا قصص داود والخصمين؛ أردف ذلك بيان أنه فوّض إلى داود خلافة الأرض، وأوصاه بالحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى، حتى لا يضل عن سبيل اللَّه، ثم ذكر أن من ضل عن سبيله فله شديد العذاب، وسوء المنقلب إذ قد نسي يوم الحساب الجزاء»[١].

وقال أبو حيان: «جَعْله تعالى داود خليفة في الأرض يدل على مكانته عليه السلام عنده واصطفائه، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئًا مما لا يليق بمنصب النبوة»[٢].

قال ابن كثير: «هذه وصية من اللَّه عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزّل من عنده -تبارك وتعالى-، ولا يعدِلوا عنه فيضلوا عن سبيله، وقد توعد اللَّه تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد، والعذاب الشديد»[٣].

وقال الرازي: «واعلم أن الإنسان خلق مدنيًا بالطبع، لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة، حتى إن هذا يحرث، وذلك يطحَن، وذلك يخبِز، وذلك ينسج، وهذا يخيط، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولًا بمهم، وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع.

فثبت أن الإنسان مدني بالطبع، وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات، ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات،

(١) تفسير المراغي (٢٣/ ١١١).
(٢) البحر (٧/ ٣٧٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٢-٦٣).

وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل، فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وَفق هواه، ولطلب مصالح دنياه؛ عظم ضرره على الخلق، فإنه يجعل الرعية فِداء لنفسه، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه، وذلك يفضي إلى تخريب العالم، ووقوع الهرْج والمرْج في الخلق، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك. أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية؛ انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه. فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق، فكن أنت ذلك الحاكم، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية. وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب»[1].

وقال إلكيا الهراسي: «فيه بيان وجوب الحكم بالحق، وألا يميل إلى أحد الخصمين لقرابته أو لجاهه، أو سبب يقتضي الميل»[2].

* * *

(١) مفاتح الغيب (٢٦/ ٢٠٠-٢٠١).
(٢) أحكام القرآن (٤/ ٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه ما خلق الخلْق عبثًا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم ليوم الجمع؛ فيثيب المطيع، ويعذب الكافر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الذين لا يرون بعثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدّة لهم»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله»[(١)].

قال أبو حيان: «والمعنى أنه لا يستوي عند اللَّه من أصلح ومن أفسد، ولا من اتقى ومن فجر، وكيف تكون التسوية بين من أطاع ومن عصى؟ إذن كان يبطل الجزاء، والجزاء لا محالة واقع، والتسوية منتفية»[(٢)].

وقال المراغي: «أي: أنجعل من آمن بربهم واعتقدوا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ملكه، وأصلحوا أعمالهم، فأدّوا ما يجب للخلق والخالق، وائتمروا بما أمر به ربهم على لسان أنبيائه، وانتهوا عما نهوا عنه، فلم يدسّوا أنفسهم بفعل شيء من كبائر الآثام، خوفًا من يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، ولا تقبل الشفاعة ولا الفداء من أحد، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[(٣)]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[(٤)]، كمن كفروا به وعاثوا في الأرض فسادا، وهاموا فيها على وجوههم، لا دين يمنعهم، ولا زاجر يردعهم، إذ هم ينكرون الجزاء والحساب، والإعادة بعد الموتة الأولى، ويقولون: ما هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٣).

(٢) البحر (٧/ ٣٧٩).

(٣) الإسراء: الآيتان (١٣و١٤).

(٤) عبس: الآيات (٣٤-٣٧).

يهلكنا إلا الدهر، فأنى لمثل هؤلاء أن يرعووا عن غي! أو يكفوا عن معصية! بل هم جهد استطاعتهم يحصلون على اللذات، ويجترحون السيئات، بما وسوس إليهم به الشيطان، ألاّ حلال ولا حرام، ولا جنة ولا نار، فما هذه إلا أساطير الأولين، وخزعبلات الموسوسين المتزمّتين.

وإذا كان هذا حقا، واقتضته الحكمة وأوجبته العدالة؛ فلابد من دار أخرى يجازى فيها المطيع، ويثاب على ما عمل، ويعاقب فيها العاصي على ما دنّس به نفسه من شرك بربه، واجتراح للإثم والعصيان، ومخالفة أمر الواحد الديان.

والعقول السليمة، والفطر الصحيحة، ترشد إلى هذا وتؤيّده، وتدلّ عليه وتثبته، فإنا نرى الظالم الباغي قد يزداد في دنياه مالا وولدًا، ويتمتع بصنوف اللذات، من الدور والقصور، والفراش الوثير، والسكن في الجنات، ويركب فارِهَ الخيول المطهّمة، والمراكب الفاخرة، ويشار إليه بالبنان، بينا نرى المطيع لربه، المظلوم من بني جنسه، قد يعيش عيش الكفاف، ولا يجد ما يقيم به أَوَده[1]، ويسدّ به مخمصته، أفيكون من حكمة الحكيم العادل، الذي لا يَظلم مثقال ذرة أن يترك الناس سدى يفعلون ما شاءوا بلا حساب ولا عقاب؟! أو ينتصف للمظلوم من الظالم، ويرجع الحق إلى صاحبه؟! وربما لا يحصل هذا في الدنيا، فلابد من دار أخرى يكون فيها العدل والإنصاف، والكيل بالقسط والميزان، وتلك هي الدار التي وعد بها الرحمن، على ألسنة رسله الكرام، صدق ربنا، وإن وعده الحق، وإن هذا اليوم آت لا شك فيه، لتجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم»[2].

* * *

(١) الأوَد: العوج.

(٢) تفسير المراغي (٢٣/ ١١٥-١١٦).

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وهذا القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يقول: ليتدبَّروا حُجَج اللَّه التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتّعظوا ويعملوا به.. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: وليعتبر أولوا العقول والحِجا ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلّهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب»[1].

وقال المراغي: «أي: أنزلنا إليك هذا الكتاب النافع للناس، المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دينهم ودنياهم، الجامع لوجوه المصالح، ليتدبرها أولوا الحجا الذين قد أنار اللَّه بصائرهم، فاهتدوا بهديه، وسلكوا في أعمالهم ما أرشد إليه، وتذكروا مواعظه وزواجره، واعتبروا بمن قبلهم فارعووا عن مخالفته حتى لا يَحُل بهم مثل ما حلّ بالغابرين، ويستأصلهم كما استأصل السابقين ممن بغوا في الأرض فسادًا.

وما تدبُّره بحسن تلاوته، وجودة ترتيله، بل بالعمل بما فيه، واتباع أوامره ونواهيه، ومن ثَم قال الحسن البصري: (قد قرأ القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه، وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: واللَّه لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد وَاللهِ أسقطه كلَّه، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلق ولا عمل، واللَّه ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، واللَّه ما هؤلاء بالحكماء ولا الوَرَعة، لا أكثر اللَّه في الناس من مثل هؤلاء)[2]»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٣-٣٦٤/ ٥٩٨٤) والمروزي في قيام الليل (المختصر ص١٥٩).

(٣) تفسير المراغي (٢٣/ ١١٦-١١٧).

وقال الشوكاني: «في الآية دليل على أن اللَّه سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر»[١].

* * *

(١) فتح القدير (٤/ ٦٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا أنه وهب لداود سليمان، أي: نبيا كما قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[1] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأةٍ حرائر.

وقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر سليمان عليه السلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن عفريتًا من الجن تفلّت عليّ البارحة -أو كلمة نحوها- ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان:** ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[3]، قال روح: فردّه خاسئًا»[4].

★ **غريب الحديث:**

عفريت: متمرد من إنس أو جانّ.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال سليمان بن داود: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل، ولم تحمل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا أحدُ شِقّيه. فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله**». قال شعيب وابن أبي الزناد: «تسعين»

---

(١) النمل: الآية (١٦). (٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٤).

(٣) ص: الآية (٣٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٨)، والبخاري (١/ ٧٢٩/ ٤٦١)، ومسلم (١/ ٣٨٤/ ٥٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣/ ١١٤٤٠).

وهو أصح[١].

★ **غريب الحديث:**

لأطوفنّ: معنى الطواف في هذا الحديث: الجماع.

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أيّ مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المسجد الحرام**». قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «**المسجد الأقصى**». قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة. ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلّه، فإن الفضل فيه**»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «**مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فجعل الفَراش وهذه الدوابّ تقع في النار**».

وقال: «**كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود، فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما. فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك اللّه، هو ابنها، فقضى به للصغرى**». قال أبو هريرة: واللّه إنْ سمعت بالسكين إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المُدية[٣].

★ **غريب الحديث:**

المُدية: سميت بذلك لأنها تقطع مدى حياة الحيوان.

★ **فوائد الأحاديث:**

ترجم البخاري رحمه الله على هذه الأحاديث في كتاب أحاديث الأنبياء من

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٥)، والبخاري (٦/ ٥٦٦/ ٣٤٢٤)، ومسلم (٣/ ١٢٧٥/ ١٦٥٤) والنسائي (٧/ ٣٢/ ٣٨٤٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٠)، والبخاري (٦/ ٥٠٢/ ٣٣٦٦)، ومسلم (١/ ٣٧٠/ ٥٢٠)، والنسائي (٢/ ٣٦٢/ ٦٨٩)، وابن ماجه (١/ ٢٤٨/ ٧٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٢)، والبخاري (٦/ ٥٦٦/ ٣٤٢٦-٣٤٢٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٤-١٣٤٥/ ١٧٢٠)، والنسائي (٨/ ٦٢٦-٦٢٧/ ٥٤١٧).

صحيحه بقوله: «باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ «أي: هذا باب في بيان ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ . . الآية»[١]. ثم أورد هذه الأحاديث، والغرض منها ذكر سليمان ﷺ، وبيان شيء من سيرته.

قوله في الحديث الأول: «**فذَكرتُ قول أخي سليمان . .**»

قال القاضي: «يفهم منه أن مثل هذا مما خُص به سليمان دون غيره من الأنبياء، واستجيبت دعوته في ذلك، ولذلك امتنع نبينا ﷺ من أخذه»[٢].

قال العيني: «وفيه دلالة على أنه كان يقدر على ذلك، إلا أنه تركه رعاية لسليمان -عليه الصلاة والسلام-»[٣].

وسيأتي مزيد كلام عليه قريبا عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ . . الآية: (٣٥).

قوله في الحديث الثاني: «**«قال سليمان بن داود: لأطوفنّ . .**»

قال القرطبي: «وهذا الكلام من سليمان ﷺ ظاهره الجزم على أن اللَّه يفعل ذلك الذي أراد، لكن الذي حمله على ذلك صِدقُ نيته في حصول الخير، وظهور الدين، وفعل الجهاد، وغلبة رجاء فضل اللَّه تعالى في إسعافه بذلك. ولا يُظن به أنه قَطع بذلك على اللَّه تعالى إلا من جَهِل حالة الأنبياء في معرفتهم باللَّه تعالى وبحدوده، وتأدبهم معه»[٤].

وقال ابن الجوزي: «والمراد بالاستثناء قول: (إن شاء الله). وتعليق الأمر بالمشيئة تسليم للقدر. وإنما ترك سليمان الاستثناء نسيانًا، فلم يُسامَح بتركه وهو نبي كريم، حتى أثّر التركُ فقْدَ الغرض، ونَفَع قول (إن شاء الله) قومًا كافرين، فإنه في حديث أبي هريرة: «**إن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم، ويقولون: غدًا نتمّه، فيجيئون وقد عاد كما كان، فإذا أُذِن في خروجهم قال قائلهم: إن شاء اللَّه، فيجيئون وهو على حاله فيفتحونه**»[٥]. فبان لهذا مرتبة المشيئة، وأدبُ نبينا ﷺ فيما

---

(١) عمدة القاري (١١/ ١٦٣).
(٢) إكمال المعلم (٢/ ٤٧٣).
(٣) عمدة القاري (١١/ ١٦٨).
(٤) المفهم (٤/ ٦٣٥-٦٣٦).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٠-٥١١)، والترمذي (٥/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٣١٥٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٤-١٣٦٥/ ٤٠٨٠) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٢٤٢-٢٤٣/ ٦٨٢٩)، والحاكم (٤/ ٤٨٨) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

يتعلق بها، فقيل له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[١] أي: إلا أن تقول: إن شاء اللّه، فكان يقولها في المتيقَّن كما يقولها في المظنون، فإذا مرّ على القبور قال: «**وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون**»[٢].

فإن قال قائل: من أين لسليمان أن يُخلق من مائه في تلك الليلة مائةُ غلام، لا يجوز أن يكون بوحي لأنه ما وقع، ولا يجوز أن يكون الأمر في ذلك إليه؛ لأنه لا يكون إلا ما يريده الله؟ فالجواب: إنه من جنس التمني على اللّه، والسؤال له أن يفعل، والقسم عليه، كقول أنس بن النضر: واللهِ لا تُكسَر سن الرُّبَيِّع[٣]. غير أنه لما خلا لفظه من استثناء لم يُسامَح مثله بتركه ذلك لأنه نبي يقتدى به»[٤].

وأما الحديث الثالث: فمطابقته للآية «تستأنس من قوله: «**ثم المسجد الأقصى**»؛ لأن سليمان هو الذي بناه»[٥].

وقوله فيه: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**». قال القرطبي: «فيه إشكال، وذلك أن مسجد مكة بناه إبراهيم بنص القرآن. إذ قال: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾[٦] الآية. والمسجد الأقصى بناه سليمان ﷺ، كما خرّجه النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد اللّه بن عمرو، عن النبي ﷺ: «**أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل اللّه تعالى خلالًا ثلاثة: سأل اللّه تعالى حكمًا يصادف حكمَهُ؛ فأُوتِيه، وسأل اللّه تعالى مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأوتِيه، وسأل اللّه تعالى حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزُهُ إلا الصلاة فيه أن يُخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه**»[٧] وبين إبراهيم وسليمان آماد طويلة. قال أهل التاريخ:

---

(١) الكهف: الآيتان (٢٣و٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠١) والبخاري (١/ ٣١٣/ ٦٣١)، ومسلم (١/ ٨١٢/ ٩٤٢)، وأبو داود (٣/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٣٢٣٧)، والنسائي (١/ ١٠١-١٠٢/ ١٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٩-١٤٤٠/ ٤٣٠٦) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨) والبخاري (٦/ ٢٦/ ٢٨٠٦) ومسلم (٣/ ١٣٠٢/ ١٦٧٥) وأبو داود (٤/ ٧١٧-٧١٨/ ٤٥٩٥) والنسائي (٨/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٤٧٦٩) وابن ماجه (٢/ ٨٨٤-٨٨٥/ ٢٦٤٩).

(٤) كشف المشكل (٣/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٥) عمدة القاري (١١/ ١٧٠).

(٦) البقرة: الآية (١٢٧).

(٧) سيأتي تخريجه في هذه السورة: الآية (٣٥).

أكثر من ألف سنة.

ويرتفع الإشكال بأن يقال: الآية والحديث لا يدلاّن على أن بناء إبراهيم وسليمان لما بنيا ابتداءُ وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسّسه غيرهما وبدأه»[1].

وقال ابن الجوزي مجيبا عن الإشكال نفسه: «الجواب: الإشارة إلى أول البناء، ووضع أساس المسجدين، وليس أول من بنى الكعبة إبراهيم، ولا أول من بنى بيت المقدس سليمان، وفي الأنبياء والصالحين والبانين كثرة، فاللّه أعلم بمن ابتدأ»[2].

وأما الحديث الرابع: «فمطابقته للآية في قوله: «**كانت امرأتان**. .» الخ؛ فإن فيه ذكر سليمان، وأما تعليق الحديث الأول (حديث الفَراش) بحديث الترجمة؛ فهو أن الراوي ذكره معه كما سمعه معه. وقال الكرماني: متابعة الأنبياء موجِبة للخلاص، كما أن في هذا التحاكم خلاصُ الكبرى من تلبّسها بالباطل ووباله في الآخرة، وخلاصُ الصغرى من ألَم فِراق ولدها، وخلاص الابن من القتل»[3].

وقال ابن الجوزي: «أما داود عليه السلام فرأى استواءهما في اليد (الدعوى) فقدم الكبرى لأجل السن. وأما سليمان عليه السلام فرأى الأمر محتملًا، فاستنبط فأحسن، فكان أحدَّ فطنة من داود، وكلاهما حكم بالاجتهاد؛ لأنه لو كان داود حكم بالنص لم يسَعْ سليمان أن يحكم بخلافه، ولو كان ما حكم به نصًا لم يخفَ على داود.

وهذا الحديث يدل على أن الفطنة والفهم موهبةٌ لا بمقدار السن. قال أبو بكر الخطيب: وفيه دليل على أن الحق في جهة واحدة؛ لأنَ سليمان لو وجد مساغًا ألاّ ينقض على داود حكمه لفعل»[4].

وقال النووي: «إن سليمان فعل ذلك حيلة إلى إظهار الحق وظهور الصدق، فلما أقرّت به الكبرى عمل بإقرارها وإن كان بعد الحكم، كما إذا اعترف المحكوم

(١) المفهم (٢/ ١١٤-١١٥).

(٢) كشف المشكل (١/ ٣٦٠).

(٣) عمدة القاري (١١/ ١٧١).

(٤) كشف المشكل (٣/ ٥١٠-٥١١).

له بعد الحكم أن الحق هنا لخصمه»[١].

«وفيه استعمال الحيل في الأحكام لاستخراج الحقوق، ولا يتأتى ذلك إلا بمزيد الفطنة وممارسة الأحوال»[٢].

«وفيه فضل سليمان عليه السلام في العلم والفقه ومعرفة الأحكام، الذي اقتضى ثناء الله عليه بقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[٣]..

وفيه أن سليمان هو ابن داود عليهما السلام لقوله ﷺ: «**فخرجتا على سليمان بن داود**»، وهو مطابق للآية الكريمة التي ترجم لها البخاري حيث قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾»[٤].

* * *

(١) شرح مسلم (١٢/ ١٧-١٨).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٧٥).

(٣) الأنبياء: الآية (٧٩).

(٤) منار القاري في شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾

★ غريب الآية:

الصافنات: القائمات. يقال: صَفَنَ الفرسُ: أي: قام. وقال أهل اللغة: صُفُونها: رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى تقوم على ثلاث. كما قال الشاعر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزالُ كأنه ... ممّا يقوم على الثلاث كَسِيرا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: إذْ عُرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرفِ حافر الرابعة، والجياد: السِّراع. وكذا قال غير واحد من السلف»[1].

قال البقاعي: «﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ أي الخيول العربية الخالصة التي لا تكاد تتمالك بجميع قوائمها الاعتماد على الأرض؛ اختيالًا بأنفسها، وقربًا من الطيران بلطافتها وهمتها، وإظهارًا لقوتها ورشاقتها وخفتها»[2].

قال أبو حيان: «قد اختلقوا في عدد هذه الخيل على أقوال متكاذبة، سوّدوا الورق بذكرها»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصف خيل سليمان عليه السلام

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول اللّه ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سَهوَتها سِتر، فهبّت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لُعَب، فقال: «**ما هذا يا عائشة؟**» قالت: بناتي. ورأى بينهنّ فرسا لها جناحان من رِقَاع؛ فقال: «**ما**

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٤).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٧٨).
(٣) البحر (٧/ ٣٨١).

هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان؟» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رَأَيت نواجذه[1].

★ **غريب الحديث:**

السّهْوة: شبيه بالرفّ والطاق يوضع فيه الشيء.

★ **من فوائد الحديث:**

في الحديث وصف خيل سليمان عليه السلام، وأن لها أجنحة.

* * *

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢٢٧/ ٤٩٣٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٦-٣٠٧/ ٨٩٥٠) وصححه ابن حبان (١٣/ ١٧٤-١٧٥/ ٥٨٦٤).

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢﴾

★ **غريب الآية:**

توارت: غابت واختفت. والمقصود هنا: الشمس، وهي مضمرة. كمثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾[1]. يريد: ظهر الأرض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أي: أحببت حبًا للخير، ثم أضيف الحب إلى الخير، وعنى بالخير في هذا الوضع الخيل، والعرب فيما بلغني تسمّي الخيل الخير، والمال يسمونه الخير..

وقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ يقول: إني أحببت حبَّ الخير حتى سَهوتُ عن ذكر ربي وأداء فريضته. وقيل: إن ذلك كان صلاة العصر..

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ يقول: حتى توارت الشمس بالحجاب، يعني: تغيبت في مغيبها»[2].

قال ابن كثير: «ذكر غير واحد من السلف والمفسرين: أنه اشتغل بعرضها (الخيل) حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدًا، بل نسيانًا، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب.. ويحتمل أنه كان سائغًا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنُسخ ذلك بصلاة الخوف. ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة؛ حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة ﷺ في فتح «تُستر»[3]،

---

(١) فاطر: الآية (٤٥).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ١٥٤-١٥٥).

(٣) تُستَر بالضم ثم السكون وفتح التاء.

وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما، والأول أقرب، لأنه قال بعده: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في تأخير الصلاة نسيانا بسبب الاشتغال بالجهاد

* عن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، جعل يسبّ كفار قريش، وقال: يا رسول الله! ما كِدتُ أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب. قال النبي ﷺ: «**واللّه ما صَلّيتها**». فنزلنا مع النبي ﷺ بُطحان فتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب[٢].

٭ غريب الحديث:

بُطحان: بضم أوله وسكون ثانيه: وادٍ بالمدينة. وقيل: هو بفتح أوله وكسر ثانيه، حكاه أبو عبيد البكري.

٭ من فوائد الحديث:

مطابقة الحديث للآية في كون النبي ﷺ أخّر الصلاة يوم الخندق نسيانًا بسبب اشتغاله بالغدو، وكذلك سليمان عليه السلام أخّرها نسيانًا بسبب عرض الخيل للجهاد.

قال النووي: «وأما تأخير النبي ﷺ صلاة العصر حتى غربت الشمس، فكان قبل نزول صلاة الخوف. قال العلماء: يحتمل أنه أخرها نسيانًا لا عمدًا، وكان السبب في النسيان الاشتغال بأمر العدو. ويحتمل أنه أخرها عمدًا للاشتغال بالعدو، وكان هذا عذرًا في تأخير الصلاة قبل نزول صلاة الخوف، وأما اليوم فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب العدو والقتال، بل يصلي صلاة الخوف على حسب الحال، ولها أنواع معروفة في كتب الفقه»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٥).

(٢) أخرجه: البخاري (٧/ ٥١٥/ ٤١١٢)، ومسلم (١/ ٤٣٨/ ٦٣١)، والترمذي (١/ ٣٣٨/ ١٨٠)، والنسائي (٣/ ٩٤/ ١٣٦٥).

(٣) شرح مسلم (٥/ ١١٠-١١١).

وقال ابن هبيرة: «وفيه أيضًا الاشتغال بالعدو حتى غربت الشمس، وهذا قد يكون عن اشتداد القتال، ويكون عن نسيان وشدة جلبة القتال»[١].

* * *

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ٢٥٠).

قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مسحًا: مَسَحَ عُنُقَه وبها يَمْسَحُ مَسْحًا ضربها، وقيل قطعها، يقال: مَسَحَه بالسَّيْف أَي: ضَرَبَه، ومَسَحه بالسَّيْف: قطعه. قال ذو الرُّمة:

ومُسْتامةٍ تُسْتامُ وهي رَخِيصةٌ تُباعُ بساحاتِ الأَيادِي وتُمْسَحُ

أي: تقطع. وقال قوم: إنه مَسَحَ أعناقَها وسوقها بالماء بيده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

اختلف المفسرون في معنى الآية على قولين:

أحدهما: أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده، إكراما منه لها. وهذا قول ابن عباس ورجحه كثير من المفسرين.

قال ابن جرير: «وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية، لأن نبيّ اللّه ﷺ لم يكن إن شاء اللّه ليعذب حيوانًا بالعَرْقبة، ويهلك مالًا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها»[1].

قال الرازي: «الصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو، فجلس وأمر بإحضار الخيل، وأمر بإجرائها، وذَكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر اللّه وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله عن ذكر ربي، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي: غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين[2] بأن يردّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٥٦).

(٢) جمع رائض، يقال: راضَ المُهْرَ رِياضاً ورِياضةً: ذَلَّلَهُ فهو رائضٌ.

وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

الأول: تشريفًا لها، وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو. الثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتّضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه. الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض. فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقًا مطابقًا موافقًا»[1].

قال ابن حزم: «وذكروا أيضا قول اللَّه ﷻ عن سليمان ﵇: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٣﴾ وتأولوا ذلك على ما قد نزه اللَّه عنه من له أدنى مسكة من عقل من أهل زماننا وغيره، فكيف بنبيّ معصوم مفضَّل في أنه قَتلَ الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة.

قال أبو محمد: وهذه خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة، قد جمعت أفانين من القول، والظاهر أنها من اختراع زنديق بلا شك؛ لأن فيها معاقبةُ خيل لا ذنب لها، والتمثيلُ بها، وإتلافُ مال منتفَع به بلا معنى، ونسبةُ تضييع الصلاة إلى نبي مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها. وهذا أمر لا يستجيزه صبيّ ابن سبع سنين، فكيف بنبي مرسل.

ومعنى هذه الآية ظاهر بيّن؛ وهو أنه ﵇ أخبر أنه أحبّ حب الخير من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب، أو حتى توارت تلك الصافنات الجياد بحجّابها، ثم أمر بردها، فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده، برًّا بها وإكراما لها، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره، وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل، وتعطيل الصلاة، وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين، فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول اللَّه ﷺ»[2].

قال أبو حيان: «وهذا القول هو الذي يناسب مناصب الأنبياء، لا القول المنسوب للجمهور، فإن في قصته ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء»[3].

---

(١) مفاتح الغيب (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) الفصل (٤/ ٢٠).

(٣) البحر (٧/ ٣٨٠)

القول الثاني : أن المسح ههنا هو القطع ، أُذن له في قتلها . وهذا قول قتادة والسدي والحسن ، وبه قال جمهور المفسرين .

وذكر الشوكاني «أن هذا القول أولى بسياق الكلام ؛ فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر ، ثم أمرهم بردّها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك ، وما صده عن عبادة ربه ، وشغله عن القيام بما فرضه اللّه عليه ، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردها عليه هو كشف الغبار عن سوقها وأعناقها بالمسح عليها بيده أو بثوبه . ولا متمسك لمن قال : إن إفساد المال لا يصدر عن النبي ﷺ ، فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرر في شرعنا ، مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح ، على أن إفساد المال المنهي عنه في شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح ، وأما لغرض صحيح فقد جاز مثله في شرعنا ، كما وقع منه ﷺ من إكفاء القدور التي طُبخت من الغنيمة قبل القسمة ، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة ، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكِر»[1] .

وعلّق ابن كثير على اختيار ابن جرير المتقدّم بقوله : «وهذا الذي رجّحه ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولاسيما إذا كان غضبًا لله ﷻ ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوّضه اللّه تعالى ما هو خير منها ، وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع ، وخير من الخيل»[2] .

وقال صديق حسن خان تعليقًا على كلام الرازي : «ما أبرد هذا التفسير من الرازي ، وأبعده عن النظم القرآني ، والحق ما ذكرناه ؛ فإن اللغة تشهد بضرب السوق والأعناق ، ولا وجه للعدول عنه إلى تأويل ركيك ، وتوجيه بعيد ، بناء على عصمة الأنبياء ﷺ»[3] .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن «سليمان بن داود لما فاتته صلاة العصر بسبب الخيل ؛ طفِق مسحا بالسوق والأعناق فعقرها كفارة لما صنع»[4] .

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٥-٦٦).

(٣) فتح البيان (١٢/ ٤١).

(٤) منهاج السنة (٥/ ٢٣١).

قال القرطبي: «وقد استدل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا، وهو استدلال فاسد؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد، والمفسرون اختلفوا في معنى الآية، فمنهم من قال: مسح على أعناقها وسوقها إكراما لها.. ومنهم من قال: عرقبها ثم ذبحها. وذبح الخيل وأكل لحومها جائز، وعلى هذا فما فعل شيئا عليه فيه جناح. فأما إفساد ثوب صحيح، لا لغرض صحيح؛ فإنه لا يجوز»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كرسيه: المراد: السرير. أصله من التكرّس وهو الاجتماع. ومنه سميت الكرّاسة لاجتماعها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالًا يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وأما هي من وضع اليهود والزنادقة، ولم يبيّن اللَّه الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان. وأقرب ما قيل فيه: أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: «**لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل اللَّه، ولم يقل إن شاء اللَّه، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، وجاءته بشِقِّ رجل**». قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء اللَّه لجاهدوا في سبيل اللَّه فرسانًا أجمعون**»[1] فالمراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هو هذا، والجسد الملقى هو المولود شق رجل. وقال قوم: مرض سليمان مرضًا كالإغماء حتى صار على كرسيه جسدًا كأنه بلا روح. ولما أمر تعالى نبيه ﷺ بالصبر على ما يقول كفار قريش وغيرهم؛ أمره بأن يذكر من ابتلي فصبر، فذكر قصة داود وقصة سليمان وقصة أيوب ليتأسى بهم، وذكر ما لهم عنده من الزلفى والمكانة، فلم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يُتفوّه به ويستحيل عقلًا وجود بعض ما ذكروه، كتمثل الشيطان بصورة نبي، حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المتصوِّر هو النبي، ولو أمكن وجود هذا؛ لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية، نسأل اللَّه سلامة أذهاننا وعقولنا منها»[2].

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث: الآية (٣٠).

(٢) البحر (٧/ ٣٨١).

قال ابن حزم: «معنى قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته، كما قال تعالى مصدقا لموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾[1]، أن من الفتنة من يهدي اللّه من يشاء. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③﴾[2] فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدي من الضال، فهذه فتنة اللّه تعالى لسليمان، إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط، وما عدا هذا فخرافات ولّدها زنادقة اليهود وأشباههم، وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب اللّه تعالى به ما أراد، نؤمن بهذا كما هو، ونقول صدق اللّه ﷻ، كلٌّ من عند اللّه ربِّنا، ولو جاء نص صحيح في القرآن أو عن رسول اللّه ﷺ بتفسير هذا الجسد ما هو؛ لقلنا به، فإذا لم يأت بتفسيره ما هو نص ولا خبر صحيح، فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو أكذب الحديث في ذلك، فيكون كاذبا على اللّه ﷻ، إلا أننا لا نشك البتة في بطلان قول من قال: إنه كان جنيا تصور بصورته، بل نقطع على أنه كذب، واللّه تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك، وكذلك نُبعد قول من قال: إنه كان ولدا له أرسلَه إلى السحاب ليربّيَه، فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربي ابنه بغير ما طبع اللّه ﷻ بنية البشر عليه من اللبن والطعام، وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة، لم يصحّ إسنادها قط»[3].

قال الشنقيطي: «وما روي عن السلف من جملة تلك الروايات أن الشيطان أخذ خاتم سليمان، وجلس على كرسيه وطرد سليمان، إلى آخره؛ يُوضّح بطلانه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ㊷﴾[4] واعتراف الشيطان بذلك في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ㊵﴾[5][6].

قال ابن كثير بعدما ذكر قصةً رويت عن ابن عباس عند هذه الآية: «الظاهر أنه إنما تلقّاه ابن عباس -إن صحّ عنه- من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٥).
(٢) العنكبوت: الآيات (١-٣).
(٣) الفصل (٤/ ١٩-٢٠).
(٤) الحجر: الآية (٤٢).
(٥) الحجر: الآية (٤٠).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٣٤٧).

سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن ذلك الجني لم يُسلَّط على نساء سليمان، بل عصمهن اللَّه منه تشريفًا وتكريمًا لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين، وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب. واللَّه أعلم بالصواب»[(١)].

قال النسفي: «وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام؛ فمن أباطيل اليهود»[(٢)].

قال القاضي عياض: «ولا يصح ما نقله الأخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلّطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله»[(٣)].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٩).

(٢) تفسير النسفي (٤/ ٤٢).

(٣) الشفا (٢/ ٣٨١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «هذا أدب الأنبياء والصالحين من طلب المغفرة من اللَّه هضمًا للنفس، وإظهارًا للذّلة والخشوع، وطلبًا للترقي في المقامات، وفي الحديث: «**إني لأستغفر اللَّه في اليوم والليلة سبعين مرة**»[(١)]، والاستغفار مقدمة بين يدي ما يطلُب المستغفر بطلب الأهم في دينه، فيترتب عليه أمر دنياه، كقول نوح في ما حكى اللَّه عنه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[(٢)]»[(٣)].

وقوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ قال ابن كثير: «قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحد من بعدي أي: لا يصلح لأحد أن يَسلُبنيه كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه، لا أنه يُحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من اللَّه تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول اللَّه ﷺ»[(٤)].

وقال الزمخشري: «كان سليمان عليه السلام ناشئًا في بيت الملك والنبوّة ووارثًا لهما، فأراد أن يطلب من ربه معجزة، فطلب على حسب إلفه ملكًا زائدًا على الممالك، زيادة خارقة للعادة، بالغة حدّ الإعجاز، ليكون ذلك دليلًا على نبوّته قاهرًا للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يَخرِق العادات، فذلك معنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾»[(٥)].

---

(١) أخرجه: أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٢)، والبخاري (١١/ ١٢١/ ٦٣٠٧) والترمذي (٥/ ٣٥٧/ ٣٢٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٤/ ١٠٢٦٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٤/ ٣٨١٦).

(٢) نوح: الآيتان (١٠و١١).

(٣) البحر (٧/ ٣٨١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٠).

(٥) الكشاف (٣/ ٣٧٥).

قال القاضي عياض: «لم يفعل سليمان هذا غيرة على الدنيا، ولا نفاسة بها، ولكن مقصده في ذلك -على ما ذكره المفسرون[١]- ألا يُسلّط عليه أحد كما سُلط عليه الشيطان الذي سلبه إياه مدة امتحانه على قول من قال ذلك. وقيل: بل أراد أن يكون له من اللَّه فضيلة وخاصة يختص بها، كاختصاص غيره من أنبياء اللَّه ورسله بخواص منه. وقيل: ليكون ذلك دليلًا وحجة على نبوته، كإلانة الحديد لأبيه، وإحياء الموتى لعيسى، واختصاص محمد ﷺ بالشفاعة ونحو هذا»[٢].

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ قال ابن جرير: «يقول إنك وهاب ما تشاء لمن تشاء، بيدك خزائن كل شيء تفتح من ذلك ما أردت لمن أردت»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصف دعوة سليمان عليه السلام التي من أجلها ترك ﷺ ذلك الشيطان

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن عفريتًا من الجن تفلّت علي البارحة** -أو كلمة نحوها- **ليقطع علي الصلاة، فأمكنني اللَّه منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان بن داود وقوله**: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾». قال روح: فرده خاسئًا[٤].

⋆ غريب الحديث:

عفريت: قال الراغب: العفريت من الجن هو العارم الخبيث، وإذا بولغ فيه قيل: عفريت نفريت. وقال ابن قتيبة: العفريت: الموثق الخَلْق. وأصله من العفر، وهو التراب، ورجل عِفِرّ، بكسر أوله وثانيه وتثقيل ثالثه: إذا بولغ فيه أيضًا.

تفلّت: بشديد اللام، أي: تعرض لي فلتة، أي: بغتة.

البارحة: أي: الليلة الخالية الزائلة. والبارح: الزائل، ويقال: من بعد الزوال

---

(١) وقد تقدم بيان بطلان تسلط الشيطان على ملكه.

(٢) الشفا (٤/ ٣٨٢).

(٣) جامع البيان (٢٣/ ١٦٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٨)، والبخاري (١/ ٧٢٩/ ٤٦١)، ومسلم (١/ ٣٨٤/ ٥٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣/ ١١٤٤٠).

إلى آخر النهار البارحة.

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول اللَّه ﷺ فسمعناه يقول: «**أعوذ باللَّه منك**» ثم قال: «**ألعنك بلعنة الله**» ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: «**إن عدو اللَّه إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ باللَّه منك، ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة اللَّه التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، واللَّه لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة**»[1].

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول اللَّه ﷺ: «**أن سليمان بن داود ﷺ لما بنى بيت المقدس سأل اللَّه ﷻ خلالًا ثلاثة: سأل اللَّه ﷻ حُكمًا يصادف حكمه فأوتيه، وسأل اللَّه ﷻ ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل اللَّه ﷻ حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا يَنهزُه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه**»[2].

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «قوله: «**فذكرت دعوة أخي سليمان**: أي: قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ وفي هذه إشارة إلى أنه تركه رعاية لسليمان عليه السلام، ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن في جميع ما يريده لا في هذا القدر فقط. واستدل الخطابي بهذا الحديث على أن أصحاب سليمان كانوا يرون الجن في أشكالهم وهيئتهم حال تصرفهم، قال: وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[3] فالمراد الأكثر الأغلب من أحوال بني آدم، وتعقب بأن نفي رؤية الإنس للجن على هيئتهم ليس بقاطع من الآية بل ظاهرها أنه ممكن، فإن نفي رؤيتنا

(١) أخرجه: مسلم (١/ ٣٨٥/ ٥٤٢)، والنسائي (٣/ ١٨-١٩/ ١٢١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٦) مطولاً، والنسائي (٢/ ٣٦٤/ ٦٩٢)، وابن ماجه (١/ ٤٥١-٤٥٢/ ١٤٠٨)، وصححه: ابن خزيمة (٢/ ٢٨٨/ ١٣٣٤)، وابن حبان (٤/ ٥١١-٥١٢/ ١٦٣٣)، والحاكم (١/ ٣٠-٣١)، ووافقه الذهبي.

(٣) الأعراف: الآية (٢٧).

إياهم مقيد بحال رؤيتهم لنا، ولا ينفي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة، ويحتمل العموم. وهذا الذي فهمه أكثر العلماء حتى قال الشافعي: من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته، واستدل بهذه الآية. والله أعلم»[(١)].

قال القرطبي: «قوله: «**لولا دعوة أخينا سليمان**..» يدل على أن مِلك الجن والتصرف فيهم بالقهر مما خُصّ به سليمان. وسبب خصوصيته: دعوتُهُ التي استجيبت له، حيث قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ ولما تحقق النبي ﷺ الخصوصية امتنع من تعاطي ما همّ به من أخذ الجني وربطه. فإن قيل: كيف يتأتى ربطه وأخذه واللعب به مع كون الجن أجسامًا لطيفة روحانية؟ قلنا: كما تأتى ذلك لسليمان عليه السلام حيث جعل الله له منهم ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾[(٢)] ولا شك أن الله تعالى أوجدهم على صور تخصّهم، ثم مكّنهم من التشكل في صور مختلفة. فيتمثّلون في أي صورة شاؤوا، أو شاء الله. وكذلك فعل الله بالملائكة. كما قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[(٣)]، وقال ﷺ: «**وأحيانًا يتمثّل لي الملك رجلًا فيكلّمني**»[(٤)] فيجوز أن يمكّن الله نبيه محمدًا ﷺ من هذا الجني مع بقاء الجني على صورته التي خُلق عليها، فيوثقه كما كان سليمان عليه السلام يوثِقهم؛ ويرفع الموانع عن أبصار الناس؛ فيرونه موثَقًا حتى يلعب به الغلمان. ويجوز أن يشكّله الله تعالى في صورة جسمية محسوسة فيربطه ويُلعب به، ثم يمنعه من الزوال عن تلك الصورة التي تشكّل فيها، حتى يفعل الله ما همّ به النبي ﷺ»[(٥)].

* * *

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٦٨).

(٢) ص: الآيتان (٣٧و٣٨).

(٣) مريم: الآية (١٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٨)، والبخاري (١/ ٢٣/ ٢)، ومسلم (٤/ ١٨١٦-١٨١٧/ ٢٣٣٣)، والترمذي (٥/ ٥٥٧-٥٥٨/ ٣٦٣٤) والنسائي (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٩٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) المفهم (٢/ ١٤٩-١٥٠).

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

★ **غريب الآية:**

رخاء: الرُخاء بالضم: الريح اللّيِّنة؛ أي: جعلناها لينة سهلة.

حيث أصاب: حيث أراد. قال الشاعر:

أَصَابَ الكَلامَ فلم يَسْتَطِعْ ... فَأَخْطَا الجواب لدى المِفْصَل[1]

مقرنين: مجتمعين. تقول: قرَنتُ البعير بالبعير في قِرانٍ وهو الحبلِ، والقَرَن بفتحتين لغة فيه: إذا جمعتَهما.

الأصفاد: الأغلال. واحدها: صَفَد. قال الشاعر:

فَآبُوا بالنِّهَابِ وبالسبَايَا ... وَأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فاستجبنا له دعاءه، فأعطيناه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ مكان الخيل التي شغلته عن الصلاة ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ يعني: رِخوة لينة وهي من الرخاوة»[2].

قال الرازي: «فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾[3] قلنا الجواب من وجهين الأول: لا منافاة بين الآيتين؛ فإن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة، إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة، فكانت رُخاء. والوجه الثاني من الجواب: أن تلك الريح كانت لينةً مرّة،

---

(١) المِفصَل: اللسان.

(٢) جامع البيان (٢٣/ ١٦٠).

(٣) الأنبياء: الآية (٨١).

وعاصفةً أخرى، ولا منافاة بين الأمرين»[١].

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ قال ابن جرير: «يقول: حيث أراد من قولهم: أصاب اللَّه بك خيرًا أي: أراد اللَّه بك خيرًا»[٢].

وقوله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ قال ابن كثير: «أي: منهم من هو مستعمَل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يَقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار، يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر، والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ أي: مَوثُوقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرّد وعصى، وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى»[٣].

قوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ قال أبو حيان: «إشارة لما أعطاه اللَّه تعالى من الملك الضخم، وتسخير الريح والإنس والجنّ والطير، وأمره بأن يمنّ على من يشاء ويمسك عن من يشاء، وقّفه على قَدْر النعمة، ثم أباح له التصرف فيها بمشيئته، وهو تعالى قد علم أنه لا يتصرف إلا بطاعة الله»[٤].

قال ابن كثير: «أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام، والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعطِ مَن شِئتَ واحرم من شئتَ، لا حساب عليك، أي: مهما فعلتَ فهو جائز لك، احكم بما شئتَ فهو صواب، وقد ثبت في الصحيحين[٥] أن رسول اللَّه ﷺ لما خُير بين أن يكون عبدًا رسولًا -وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره اللَّه تعالى به- وبين أن يكون مِلكًا نبيًّا يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح؛ اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرًا عند اللَّه ﷻ، وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع

(١) مفاتح الغيب (٢٦/ ٢١١).
(٢) جامع البيان (٢٣/ ١٦١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٣).
(٤) البحر (٧/ ٣٨٢).
(٥) الحديث ليس في الصحيحين وإنما أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١) وابن حبان (١٤/ ٢٨١/ ٦٣٦٦) وأبو يعلى (١٠/ ٤٩١/ ٦١٠٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨-١٩) وقال: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح. وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٠٠٢) من حديث أبي هريرة.

الملك عظيمة أيضا في الدنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر -تبارك وتعالى- ما أعطى سليمان -عليه الصلاة والسلام- في الدنيا؛ نبّه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند اللّه يوم القيامة أيضا، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي في الدار الآخرة»[1].

فصل فيما تضمنته قصة داود وسليمان عليهما السلام من الفوائد والعبر:

«فمنها: أن اللّه تعالى يقصّ على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده، وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوّقه إلى منافستهم، والتقرب إلى اللّه الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا -في هذا الموضع- لما ذكر اللّه ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به؛ أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن اللّه تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخِلّة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى اللّه في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء اللّه وخواصّ خلقه، كما أثنى اللّه على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2].

ومنها: ما أكرم اللّه به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل اللّه بسببه الجبال الصمّ، والطيور البُهم، يجاوِبْنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن مِن أكبر نعم اللّه على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن اللّه به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء اللّه تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٤).
(٢) الأنعام: الآية (٩٠).

إياهم، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء -صلوات اللّه وسلامه عليهم- معصومون من الخطأ فيما يُبلّغون عن اللّه تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن اللّه يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام، كان في أغلب أحواله ملازما محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتا يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة، ومن غير الباب المعهود؛ فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوءُ أدب الخصم، وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبّخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» أو «باغ عليّ» ونحو ذلك لقولهما: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر؛ فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئزَّ ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصِّرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجِبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يردّ عن ذلك إلا استعمال تقوى اللّه، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، من مكفرات الذنوب؛ فإن

اللّه رتّب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام اللّه لعبده داود وسليمان بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند اللّه تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم؛ أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال اللّه تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل اللّه وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكمُ بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كلَّ محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن اللّه عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم اللّه على عبده، أن يهب له ولدا صالحا، فإن كان عالما كان نورا على نور.

ومنها: ثناء اللّه تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كثرة خير اللّه وبره بعبيده، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة اللّه تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما شغل العبد عن اللّه فإنه مشئوم مذموم، فليفارقه وليُقبل على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «من ترك شيئا لله عوضه اللّه خيرا منه» فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديما لمحبة اللّه، فعوّضه اللّه خيرا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي

لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان ملِكًا نبيًّا، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبيّ العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر اللّه، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٢٢-٤٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بنُصْب: النَّصْبُ بفتح فسكون والنُّصْبُ بالضّمّ وبضمَّتَيْن: هو الداءُ والبلاءُ والتَّعَبُ والشَّرُّ. قال اللَّيْثُ: النَّصْبُ نَصْبُ الدَّاءِ يقال: أَصابهُ نَصْبٌ من الدّاءِ. وفي التّنزيلِ العزيزِ: ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. والنَّصِبُ كَكَتِف: المرِيضُ الوَجِعُ. قد نَصَبَه المَرَضُ يَنْصِبُهُ بالكَسر: أَوْجَعَهُ كَأَنْصَبَهُ إِنْصابًا.

اركض: الرّكض: الدفع بالرِّجل على جهة الإسراع. ومنه ركض الفرس: إذا دفعه برِجله لكي يسرع.

ضغث: الضِّغث: قَبْضَة حشيش مختلط رطبها بيابسها، ويقال ملء الكفّ من قُضْبان أو حشيش أو شماريخ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض اللَّه عليهما أصناف الآلاء والنعماء، وأيوب كان ممن خصه اللَّه تعالى بأنواع البلاء، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار. كأن اللَّه تعالى قال: يا محمد اصبر على سفاهة قومك؛ فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالًا وجاهًا من داود وسليمان عليهما السلام، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره»[1].

---

(١) مفاتح الغيب (٢٦/ ٢١٣).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضا يا محمد ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ مستغيثا به فيما نزل به من البلاء: يا رب ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾.. وكأن معنى النصب في هذا الموضع العلّة التي نالته في جسده، والعناء الذي لاقى فيه، والعذاب في ذهاب ماله»[1].

قال أبو حيان: «والذي نقوله: أن اللّه تعالى ابتلى أيوب عليه السلام في جسده وأهله وماله، على ما روي في الأخبار. وروى أنس عن النبي ﷺ أن أيوب بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتى ملّه العالَم[2]، ولم يصبر عليه إلا امرأته، ولم يبين لنا توالي السبب المقتضي لعلته.. ووصف اللّه تعالى نبيه بالصبر، وقد قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾[3]؛ فدل على أن الشكوى إلى اللّه تعالى لا تنافي الوصف بالصبر. وقد قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[4] على أن أيوب عليه السلام طلب الشفاء خيفة على قومه أن يوسوِس إليهم الشيطان أنه لو كان نبيًا لم يُبتَل، وتألفًا لقومه على الطاعة، وبلغ أمره في البلاء إلى أنه لم يبق منه إلا القلب واللسان»[5].

قوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ قال ابن جرير: «معنى الكلام: إذ نادى ربَّه مستغيثا به أني مسني الشيطان ببلاء في جسدي، وعذاب بذهاب مالي وولدي، فاستجبنا له وقلنا له: اركض برجلك الأرضَ: أي حرّكها وادفعها برجلك، والركض: حركة الرجل، يقال منه: ركضَت الدابة، ولا تَركُض ثوبَك برِجلك.. وقوله: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ذُكر أنه نبعت له حين ضرب برجله الأرض عينان، فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى..

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ فتأويل الكلام: فاغتسل وشرب ففرّجنا عنه ما كان فيه من البلاء، ووهبنا له أهله من زوجة وولد، ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ له ورأفة، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يقول: وتذكيرا لأولي العقول ليعتبروا بها فيتعظوا.. وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ يقول: وقلنا لأيوب: خذ بيدك

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٦٥-١٦٦).

(٢) سيأتي مع تخريجه.

(٣) الأنبياء: الآية (٨٣).

(٤) يوسف: الآية (٨٦).

(٥) البحر (٧/ ٣٨٤-٣٨٥).

ضِغثا، وهو ما يُجمع من شيء مثل حزمة الرُّطبة، وكملء الكفّ من الشجر أو الحشيش والشماريخ ونحو ذلك مما قام على ساق ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ يقول: فاضرب زوجتك بالضغث لتَبُرّ في يمينك التي حلفت بها عليها أن تضربها ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ يقول: ولا تحنث في يمينك. وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ يقول: إنا وجدنا أيوب صابرًا على البلاء، لا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة اللّه والدخول في معصيته ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يقول: إنه إلى طاعة اللّه مقبل وإلى رضاه رجّاع»[1].

فصل فيما تضمنته قصة أيوب عليه السلام من الفوائد والحكم:

«فمنها: أن الصبر الجميل على البلاء فيه الفوز في الدنيا والآخرة.

ومنها: أن اللّه تعالى قد يبتلي من يحبّه من عباده ليزيد في علو مقامه، ورفعة شأنه.

ومنها: علو مقام الصبر، ومثله الشكر، فالأول على البأساء، والثاني على النعماء.

ومنها: وجوب الكفارة على من حنث في يمينه.

ومنها: أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد قبل شريعتنا، وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر لابد من وفائه، وكالحدود الموجبة، ولو كان في شرعهم كفارة لعدَل إلى التكفير.

ومنها: أن من لا يَحتمل إقامة الحدّ عليه لضعف ونحوه؛ أنه يقام عليه مسمى ذلك، لأن الغرض التنكيل، وليس الإتلاف والإهلاك.

ومنها: رحمة اللّه لعباده المؤمنين؛ فقد كانت امرأة أيوب ضعيفة عن احتمال مائة ضربة، التي حلف أن يضربها إياها، وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجبة باليمين بأن أفتاه بجمع الضربات بالضغث، كما خفف عن المريض.

ومنها: فضل رعاية الزوجة لزوجها المبتلى والصبر عليه.

ومنها: أهمية الدعاء، وكما قال ابن القيم رحمه الله: الدعاء إذا سلم من الموانع

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٦٦-١٦٧).

من أنفع الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، فهو من أنفع الأدوية، وهو عدوّ البلاء يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، أو يخففه إذا نزل، ولقد ظهر أثره في قول أيوب ﷺ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(١)].

ومنها: أن أيوب ﷺ جمع في هذا الدعاء: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملّق له والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه.. ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه.

ومنها: مشروعية التداوي، وأنه من الأسباب التي يرفع اللَّه بها البلاء؛ لأن اللَّه تعالى أمر أيوب ﷺ، أن يشرب ويغتسل من الماء الذي نبع تحت رجليه، وكان بإمكانه تعالى أن يَشفيه دون أن يدعوه لاتخاذ هذه الوسيلة للتداوي.

ومنها: الحث على حسن معاملة الزوجة والرفق بها»[(٢)].

«وفي الآية دليل على أن للزوج ضربَ زوجته، وأن يحلف ولا يستثني»[(٣)].

«واستُدل بها على أن الاستثناء شرطه الاتصال، إذ لو لم يشترط لأمَره تعالى بالاستثناء، ولم يحتَج إلى الضرب بالضِّغث»[(٤)].

قال ابن القيم: «أما قوله تعالى لأيوب ﷺ: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ فمن العجب أن يحتَج بهذه الآية من يقول: إنه لو حلف: ليضربنّه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبُر في يمينه. هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد، وقال الشافعي: إن علم أنها مسّته كلُّها برّ في يمينه، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر، وإن شك لم يحنث، ولو كان هذا موجبا لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب تعدد الضرب بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضرب بها ضربة واحدة، وهذا إنما يُجزئ في حق المريض كما قال الإمام أحمد في المريض عليه الحد: يضرب بعثكال يسقط عنه الحدّ.. وأما قصة أيوب فلها فقه

---

(١) الأنبياء: الآية (٨٣).

(٢) قصص القرآن لفؤاد بن سراج عبد الغفار (٢٧٧-٢٧٨).

(٣) أحكام القرآن لإلكيا الهراسي (٤/ ٣٦١).

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل (٢٢٢).

دقيق؛ فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال: أخبرت أيوب ﷺ بذلك فقال: إنه الشيطان، ثم حلف: لئن شفاه اللَّه تعالى ليضربنّها مائة سوط، فكانت معذورة محسنة في شأنه، ولم يكن في شرعهم كفارة، فإنه لو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذورا خفف عنه بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة، وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى اللَّه نبيه أيوب ﷺ أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه، فجمع اللَّه له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة. فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب ﷺ لنصّ السنة في شأن الضعيف الذي زنى فلا يتعدى بها عن محلها. فإن قيل: فقولوا هذا في نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة وكانا معذورين لا ذنب لهما: أنه يبر بجمع ذلك في ضربة بمائة شمراخ. قيل: قد جعل اللَّه له مخرجا بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر عن يمينه ولا يعصي اللَّه بالبر في يمينه ههنا، ولا يحل له أن يبر فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة، ولا يحل له أن يضربها لا مفرَّقا ولا مجموعًا.

فإن قيل: فإذا كان الضرب واجبا كالحد؛ هل تقولون: ينفعه ذلك؟ قيل: إما أن يكون العذر مرجوَّ الزوال كالحَرّ والبرد الشديد والمرض اليسير؛ فهذا يُنتظر زواله ثم يحد الحد الواجب، كما روى مسلم في صحيحه عن علي ﷺ أن أمة لرسول اللهﷺزنت، فأمرني أن أجلدها، فأتيتها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك لرسول اللهﷺ فقال: «**أحسنتَ، اتركها حتى تُماثِل**»[1]»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٣٠/ ١٧٠٥) والترمذي (٤/ ٣٧/ ١٤٤١).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٢٩-١٣٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أيوب عليه السلام وإنعام اللَّه تعالى عليه بعد شدة ابتلائه

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن نبي اللَّه أيوب ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم؛ واللَّه لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه اللَّه، فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن اللَّه يعلم أني كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران اللَّه، فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يُذكر اللَّه إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم؛ أبطأ عليها، فأوحى اللَّه إلى أيوب في مكانه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾[1] فاستبطأته، فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب اللَّه ما به من البلاء، فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك اللَّه فيك! هل رأيت نبي اللَّه هذا المبتلى؟ واللهِ على ذلك ما رأيت أحدا كان أشبه به منك إذ كان صحيحا! قال: فإني أنا هو. وكان له أندَران: أندَر القمح، وأندَر الشعير، فبعث اللَّه سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندَر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندَر الشعير الورِق حتى فاضت**»[2].

★ **غريب الحديث:**

أندران: الأنْدَر: البَيْدَر وهو الموضع الذي يُداسُ فيه الطَّعام بلغة الشام.

★ **من فوائد الحديث:**

قال الشيخ الألباني: «وهذا الحديث مما يدل على بطلان الحديث الذي في

---

(١) ص: الآية (٤٢).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٢٣/ ١٦٧) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧٤-٣٧٥) وصححه ابن حبان (٧/ ١٥٧-١٥٩/ ٢٨٩٨) والحاكم (٢/ ٥٨١-٥٨٢) ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الصحيحة (١٧).

الجامع الصغير بلفظ: «**أبى اللَّه أن يجعل للبلاء سلطانا على عبده المؤمن**»»[١].

قال الشنقيطي: «يمكن أن يكون سلّطه اللَّه على جسده وماله وأهله؛ ابتلاء ليُظهر صبره الجميل، وتكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند اللَّه تعالى. وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب؛ لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء، فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة. ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**بينا أيوب يغتسل عريانًا، فخرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه فناداه ربه: يا أيوب! ألم أكن أغنيتُك عمّا ترى؟ قال: بلى وعزتِك، ولكن لا غنى بي عن بركتك**»[٣].

★ غريب الحديث:

فخرّ: خَرَّ يَخُرُّ بالضم والكسر: إذا سقط من علوّ، وخرّ الماء يخِرُّ بالكسر.

يَحتثي: بإسكان المهملة وفتح المثناة بعدها مثلثة. والحَثية: هي الأخذ باليد.

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «مطابقته للترجمة ظاهرة من حيث إن عقيب قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[٤] جاء الوحي بقوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، فركض، فنبع الماء، فاغتسل فيه وهو عريان، فنزل عليه رِجل جراد»[٥].

وقال ابن بطال: «قال المهلب: في حديث موسى وأيوب دليل على إباحة التعري في الخلوة للغسل وغيره؛ بحيث يأمن أعين الناس؛ لأن أيوب وموسى من

---

(١) السلسلة الصحيحة (١/ ٥٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (١/ ٥٠٩/ ٢٧٩)، والنسائي (١/ ٢١٩-٢٢٠/ ٤٠٧).

(٤) الأنبياء: الآية (٨٣).

(٥) عمدة القاري (١١/ ١١٠).

الذين أمرنا أن نهتدي بهداهم، ألا ترى أن اللَّه عاتب أيوب على جمع الجراد، ولم يعاتبه على غسله عريانًا، ولو كَلَّف اللَّه عباده الاستتار في الخلوة كان في ذلك حرج على العباد، إذ كان المغتسل من الجنابة لا يجد بدًّا من التعرّي، واللَّه تعالى لا يغيب عنه شيء من خلقه، عراة كانوا أو مكتسين»[١].

وقال ابن رجب: «وأما الاستدلال به على جواز الاغتسال في الخَلوة عريانًا فهو مبني على القول بأن شرع من قبلَنا شرع لنا ما لم يأت شرعنا بخلافه، وقد استدل بهذا على جواز الغُسل في الخلوة عريانًا إسحاق بن راهويه أيضًا.

وذُكر أنه وإن كان شرع من قبلنا إلا أنه لم يرد شرعنا بخلافه، وقد يَمنع هذا من يقول: قد ورد شرعنا بالتستر في الخلوة»[٢].

قال الحافظ: «والذي يظهر أن وجه الدلالة منه أن النبي ﷺ قصّ القصتين ولم يتعقب شيئًا منهما؛ فدل على موافقتهما لشرعنا، وإلا فلو كان فيهما شيء غير موافق لبيّنه، فعلى هذا فيجمع بين الحديثين بحمل حديث بهز بن حكيم -«**اللهُ أحق أن يستحيى منه**»[٣]- على الأفضل»[٤].

* * *

(١) شرح ابن بطال (١/ ٣٩٣).

(٢) فتح الباري (١/ ٣٣٠-٣٣١).

(٣) أخرجه أخرجه: أحمد (٥/ ٣-٤)، وأبو داود (٤/ ٣٠٤/ ٤٠١٧)، والترمذي (٥/ ٩٠/ ٢٧٦٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣١٣/ ٨٩٧٢)، وابن ماجه (١/ ٦١٨/ ١٩٢٠)، وذكره البخاري تعليقا بصيغة الجزم (١/ ٥٠٧).

(٤) فتح الباري (١/ ٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ يعني بذلك العمل الصالح، والعلم النافع، والقوة في العبادة، والبصيرة النافذة»[١].

وقال السعدي: «أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم اللّه من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال، والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السديدة»[٢].

وقوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ قال ابن جرير: «معناه: إنا أخلصناهم بخالصة هي ذكرى الدار الآخرة، فعملوا لها في الدنيا، فأطاعوا اللّه وراقبوه. وقد يدخل في وصفهم بذلك أن يكون من صفتهم أيضا: الدعاء إلى اللّه، وإلى الدار الآخرة، لأن ذلك من طاعة اللّه، والعمل للدار الآخرة»[٣].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾:

قال ابن كثير: «أي: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون»[٤].

وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٣٠).
(٣) جامع البيان (٢٣/ ١٧٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٧).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد إسماعيل واليسع وذا الكفل وما أبلوا في طاعة اللَّه، فتأسّ بهم، واسلك منهاجهم في الصبر على ما نالك في اللَّه والنفاذ لبلاغ رسالته.. والكفل في كلام العرب: الحظ والجَد»[1].

قال الشوكاني: «المراد من ذكر هؤلاء أنهم من جملة من صبر من الأنبياء، وتحملوا الشدائد في دين اللَّه، أَمَر اللَّه رسوله ﷺ بأن يذكرهم ليسلك مسلكهم في الصبر»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٧٢).

(٢) فتح القدير (٤/ ٦١٤).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾

★ **غريب الآية:**

أتراب: أي: على سِنّ واحد. واحدها: تِرْب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فصلٌ فيه ذكرٌ لمن يتذكر»[1].

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا القرآن الذي أنزل إليك يا محمد ذكرٌ لك ولقومك ذكّرناك وإياهم به»[2].

وقال السعدي: «أي: ذكرُ هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكرُ أوصافهم، ﴿ذِكْرٌ﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يَتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما منَّ اللّه عليهم به من الأوصاف الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر»[3].

قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: وإن للمتقين الذين اتقوا اللّه فخافوه بأداء فرائضه،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٧).
(٢) جامع البيان (٢٣/ ١٧٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٣١).

واجتناب معاصيه، لحسن مرجع يرجعون إليه في الآخرة، ومصير يصيرون إليه، ثم أخبر -تعالى ذكره- عن ذلك الذي وعدهم من حسن المآب ما هو فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾. قوله -تعالى ذكره-: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بيان عن حسن المآب وترجمة عنه، ومعناه: بساتين إقامة.. وقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ يعني مفتحة لهم أبوابها، وأدخلت الألف واللام في الأبواب بدلا من الإضافة كما قيل: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[١] بمعنى هي مأواه.. فإن قال قائل: وما في قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ من فائدة خبرٍ حتى ذكر ذلك؟ قيل: فإن الفائدة في ذلك إخبار اللَّه تعالى عنها أن أبوابها تفتح لهم بغير فتح سكانها إياها بمعاناةٍ بيد ولا جارحة، ولكن بالأمر فيما ذُكر»[٢].

قال ابن القيم: «وتأمل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ كيف تجد تحته معنى بديعًا لا يخفى على المتأمل، وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي، وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي: مطبقة مغلقة، ومنه سمي الباب وصيدًا، وهي ﴿مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[٣] قد جُعلت العُمد مُمسِكة للأبواب من خلفها، كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب، قال مقاتل: يعني أبوابها عليهم مطبقة، فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها غمّ، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد.

وأيضا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة حيث شاؤا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتّحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت.

وأيضا إشارة إلى أنها دار أمْن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب، كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا»[٤].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ قال ابن جرير: «يقول:

---

(١) النازعات: الآية (٤١).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ١٧٣-١٧٤).

(٣) الهمزة: الآيتان (٨و٩).

(٤) حادي الأرواح (ص: ٤٩).

متكئين في جنات عدن على سرر يدعون فيها بفاكهة، يعني بثمار من ثمار الجنة كثيرة، وشراب من شرابها.

﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: عند هؤلاء المتقين الذين أكرمهم اللَّه بما وصف في هذه الآية من إسكانهم جنات عدن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ يعني: نساء قَصَرن أطرافهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، ولا يمددن أعينهن إلى سواهم.. وقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾ يعني: أسنان واحدة.. وقال بعضهم: متواخيات لا يتباغضن ولا يتعادين ولا يتغايرن ولا يتحاسدن.

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي يعدكم اللَّه في الدنيا أيها المؤمنون به من الكرامة لمن أدخله اللَّه الجنة منكم في الآخرة.. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن هذا الذي أعطينا هؤلاء المتقين في جنات عدن من الفاكهة الكثيرة والشراب والقاصرات الطرف، ومكنّاهم فيها من الوصول إلى اللذات وما اشتهته فيها أنفسهم؛ لَرِزقنا رزقناهم فيها كرامة منا لهم ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ يقول: ليس له عنهم انقطاع ولا له فناء، وذلك أنهم كلما أخذوا ثمرة من ثمار شجرة من أشجارها فأكلوها، عادت مكانها أخرى مثلها، فذلك لهم دائم أبدا لا ينقطع انقطاع ما كان أهل الدنيا أوتوه في الدنيا فانقطع بالفناء، ونفد بالإنفاد»[1].

قال القرطبي: «فيه دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع، كما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2] وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[3]»[4].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٧٤-١٧٥).
(٢) هود: الآية (١٠٨).
(٣) الانشقاق: الآية (٢٥).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٤٣).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾

★ غريب الآية:

غساق: الغسَّاق: ما يصهر من جلود أهل النار ويسيل. قال الشاعر:

إذا ما تذكَّرْتُ الحياة وطيبَها إلي جرى دَمعٌ من الليل غاسِقُ

من شكله: من ضَرْبه. يقال: ما أنت من شكلي، أي: ما أنت من ضربي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء، ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم»[1].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ الذي وصفت لهؤلاء المتقين: ثم استأنف جلّ وعزّ الخبر عن الكافرين به الذين طَغَوا عليه وبَغَوا، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ وهم الذين تمرّدوا على ربهم، فعصوا أمره مع إحسانه إليهم ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ يقول: لشرّ مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا.. ثم بين -تعالى ذكره-: ما ذلك الذي إليه ينقلبون ويصيرون في الآخرة، فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ فترجم عن جهنم بقوله: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ ومعنى الكلام: إن للكافرين لشرَّ مَصِير يصيرون إليه يوم القيامة، لأن مصيرهم إلى جهنم، وإليها منقلبهم بعد وفاتهم ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم. وقوله: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا حميم، وهو الذي قد أغلي حتى انتهى حرّه، وغساق فَلْيذوقوه، فالحميم مرفوع

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٨).

بـ﴿هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ معناه التأخير، لأن معنى الكلام ما ذكرت، وهو: هذا حميم وغساق فليذوقوه. وقيل: إنما معناه: أنهم يُسْقَون الحميم، وما يسيل من صديدهم»[1].

وقوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾:

قال ابن جرير: «يعني هذا حميم وغساق فليذوقوه، وعذاب آخر من نحو الحميم ألوان وأنواع، كما يقال: لك عذاب من فلان: ضروب وأنواع. وقيل: إنه الزمهرير»[2].

قال ابن كثير: «أما الحميم فهو الحارّ الذي قد انتهى حرّه، وأما الغساق فهو ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها.. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزمهرير، والسَّموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود، والهوي، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به ويهانون بسببه»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تبشير الملائكة الكافر بالحميم والغساق وآخر من شكله وأزواج

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجلُ الصالح، قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري برَوح وريحان، ورب غير غضبان. قال: فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فيُستفتح لها، فيقال: مَن هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. قال: فلا يزال يقال لها حتى يُنتهى بها**

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٧٥-١٧٦).
(٢) جامع البيان (٢٣/ ١٧٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٨-٧٩).

إلى السماء التي فيها اللَّه ﷻ.

وإذا كان الرجل السوء؛ قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث. اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغسّاق وآخر من شكله أزواج، فلا تزال تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فيُستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث. ارجعي ذميمة، فإنه لا يُفتح لكِ أبواب السماء..»[1].

★ غريب الحديث:

أزواج: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة: زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج، كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلًا له أو مضادّ: زوج.

★ من فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «**أبشري بجهنم**» وضع موضع (أنذري)، إما على سبيل الاستعارة التهكّمية كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] أو على المشاكلة والازدواج. و﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ مقابل لـ ﴿رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ الغساق بالتخفيف والتشديد- ما يغسق من صديد أهل النار، يقال: غَسَقت العين، إذا سال دمعها. قيل: لو قطرت قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب. وعن الحسن: الغساق عذاب لا يعلمه إلا اللَّه. وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ أي: وآخر مذوقاته من مثل الغساق في الشدة والفظاعة، و«**أزواج**» أي: أجناس، و«**آخَر**» في محل الجر عطف على «**حميم**» و«**أزواج**» صفة لـ«**آخر**» وإن كان مفردًا؛ لأنه في تأويل الضروب والأصناف، كقول الشاعر: معًا جياعًا»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٤-٣٦٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣-٤٤٤/ ١١٤٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣-١٤٢٤/ ٤٢٦٢). وبنحوه صححه: ابن حبان (٧/ ٢٨٣/ ٣٠١٣)، والحاكم (١/ ٣٥٣-٣٥٤)، ووافقه الذهبي.

(٢) التوبة: الآية (٣٤).

(٣) الكاشف عن حقائق السنن (٤/ ١٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مقتحم: الاقتحام: الدخول في الشيء بصعوبة.

لا مرحبًا بكم: قال أبو عبيدة: تقول العرب للرجل: لا مرحبًا بك، ومنه رحبة المسجد. قال النابغة:

لا مَـرْحَـبًـا بـغـدٍ ولا أهـلًا بـه ... إن كـانَ تَـفْـرِيـقُ الأَحِـبَّـةِ فـي غَـدِ

زاغت: أصل: الزيغ: الميل. وزاغت الشمس: مالت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[1]، يعني: بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل معكم ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ كما قال ﷻ: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ

---

(١) الأعراف: الآية (٣٨).

رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[1] أي: لكل منكم عذاب بحسبه.

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يَفقِدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا: مالنا لا نراهم معنا في النار. قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: مالي لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا. وهذا ضَرب مثلٍ وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يسألون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك»[3].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٣٨).

(٢) الأعراف: الآيات (٤٤-٤٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٩-٨٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي قومك. ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ لكم يا معشر قريش بين يدي عذاب شديد، أنذركم عذاب اللّه وسَخطه أن يحلّ بكم على كفركم به، فاحذروه وبادروا حلوله بكم بالتوبة ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يقول: وما من معبود تصلح له العبادة، وتنبغي له الربوبية، إلا اللّه الذي يدين له كل شيء، ويعبدُه كلّ خلق، الواحد الذي لا ينبغي أن يكون له في ملكه شريك، ولا ينبغي أن تكون له صاحبة، القهار لكلّ ما دونه بقدرته، ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول: مالك السموات والأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق، يقول: فهذا الذي هذه صفته، هو الإله الذي لا إله سواه، لا الذي لا يملك شيئا، ولا يضرّ، ولا ينفع. وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ يقول: العزيز في نقمته من أهل الكفر به، المدّعين معه إلها غيره، الغفّار لذنوب من تاب منهم ومن غيرهم من كفره ومعاصيه، فأناب إلى الإيمان به، والطاعة له بالانتهاء إلى أمره ونهيه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٨٢-١٨٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك المكذبيك فيما جئتهم به من عند اللّه من هذا القرآن، القائلين لك فيه: إنْ هذا إلا اختلاق: ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ يقول: هذا القرآن خبر عظيم»[1].

وقال القرطبي: «﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر، فلا ينبغي أن يُستخفّ به. قال معناه قتادة، نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾[2]»[3].

وقال الرازي: «وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهًا؛ فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم. ويمكن أن يقال: المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم. ويمكن أن يقال: المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم. وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة في أول السورة، ولأجلها أنجز الكلام إلى كل ما سبق ذكره. ويمكن أيضًا أن يكون المراد كون القرآن معجزًا؛ لأن هذا أيضًا قد تقدم ذكره في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[4]»[5].

وقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ قال ابن جرير: «يقول: أنتم عنه منصرفون لا تعملون به، ولا تصدّقون بما فيه من حجج اللّه وآياته..

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في شأن آدم من قبل أن يوحي إلي ربّي فيعلمني ذلك، يقول: ففي إخباري لكم عن ذلك دليل

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٨٢).
(٢) النبأ: الآيتان (١و٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٤٧).
(٤) ص: الآية (٢٩).
(٥) مفاتح الغيب (٢٦/ ٢٢٦).

واضح على أن هذا القرآن وحي من اللَّه وتنزيل من عنده، لأنكم تعلمون أن علم ذلك لم يكن عندي قبل نزول هذا القرآن، ولا هو مما شاهدته فعاينته، ولكني علمت ذلك بإخبار اللَّه إياي به»[1].

وقال القاسمي: «وبالجملة فالاختصام المذكور في الآية هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]»[3]. قال الرازي: «وهو أحسن ما قيل فيه»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر اختصام الملأ الأعلى

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أتاني الليلة ربي -تبارك وتعالى- في أحسن صورة، قال: أحسبه في المنام، فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو قال: في نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، قال: في الكفارات. والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: يا محمد! إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون. قال: والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام**»[5].

* عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «احتبس عنا رسول اللَّه ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعًا فثوّب بالصلاة، فصلى رسول اللَّه ﷺ وتجوز في صلاته، فلما سلم دعا بصوته، قال لنا: على مصافّكم

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ١٨٣).
(٢) البقرة: الآية (٣٠).
(٣) محاسن التأويل (١٤/ ١٨٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٦).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٨)، والترمذي (٥/ ٣٤٢/ ٣٢٣٣) وأخرج له متابعاً: (٥/ ٣٤٢/ ٣٢٣٤) ثم قال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

كما أنتم، ثم انفتل إلينا ثم قال: أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة: إني قمت من الليل، فتوضأت وصليت ما قدر لي، فنعست في صلاتي حتى استثقلت، فإذا أنا بربي -تبارك وتعالى- في أحسن صورة، فقال: يا محمد. قلت: لبيك رب. قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، قالها ثلاثًا، قال: فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد. قلت: لبيك رب. قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال: ما هنّ؟ قلت: مشي الأقدام إلى الحسنات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء حين الكريهات. قال: فيم؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام. قال: سل، قل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون، أسألك حبك وحب من يحبك، وحب عملٍ يقرّب إلى حبك، قال رسول اللَّه ﷺ: إنها حق فادرسوها ثم تعلموها»[1].

★ **غريب الحديثين:**

احتبس: لم يخرج إلينا.

غداة: البكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس.

فثوّب: من التثويب، أي: أُقيم بها.

مصافّكم: أي: اثبتوا عليها. جمع مصفّ، وهو موضع الصف.

انفتل: أي: توجّه إلينا وأقبل علينا.

استثقلت: أي: غلبني النعاس.

لبيك: مأخوذ من لب بالمكان وألب إذا قام به، أي: إجابة بعد إجابة.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٣)، الترمذي (٥/ ٣٤٣-٣٤٤/ ٣٢٣٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم (١/ ٥٢١) ووافقه الذهبي.

فادرسوها: أي: احفظوها ألفاظها.

★ فوائد الحديثين:

أفاد الحديثان اختصام الملإ الأعلى في الدرجات والكفارات. وذكر بعض المفسرين أن هذا الاختصام هو المراد في الآية، وهذه مسألة قد اختلف أهل التأويل فيها.

قال ابن عطية: «اختلف الناس في الشيء الذي هو اختصامهم فيه، فقالت فرقة: اختصامهم في أمر آدم وذريته في جعلهم في الأرض، ويدل على ذلك ما يأتي من الآيات، فقول الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾[1] هو الاختصام. وقالت فرقة: بل اختصامهم في الكفارات وغَفْر الذنوب ونحوه»[2].

وقال الخازن: «وسبب اختصام الملإ الأعلى -وهم الملائكة- في الكفارات، وهي الخصال المذكورة في الحديث؛ في أيهما أفضل، وسميت هذه الخصال كفارات؛ لأنها تكفّر الذنوب عن فاعلها، فهي من باب تسمية الشيء باسم لازمه، وإنما سمّاه مخاصمة؛ لأنه ورد مورد سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه. والله تعالى أعلم»[3].

وقال ابن العربي: «قال بعضهم: اختصم الملأ الأعلى في خلق آدم، وهذا ضعيف؛ لأن الكلام في خلق آدم لم يكن بين الملائكة، وإنما كان بين الرب تعالى وبينهم، وإنما اختصامهم فيما أخبر الله عنهم.

.. فَفَسّر المعنى الذي يختلفون فيه فقال: هو الكفارات والدرجات، فأما الكفارات فالمشي على الأقدام إلى الجماعات، والمكث في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء في الكريهات، يعني السّبرات، وهي الأوقات الباردة، فهذه كلها كفارات للذنوب كما قال في الحديث الصحيح، فإن لم تجد ذنوبًا كانت ذخرًا. فأما الدرجات فهي لين الكلام، فالمؤمن هين لين، وإطعام الطعام في الصدقات والكرامات والضيافات، وإفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف،

---

(١) البقرة: الآية (٣٠).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٥١٣).

(٣) لباب التأويل (٤/ ٤٧).

وصلاة الليل إذا رقد الناس»(١).

وقال ابن رجب: «وفيه دلالة على أن الملأ الأعلى، وهم الملائكة أو المقربون منهم، يختصمون فيما بينهم، ويتراجعون القول في الأعمال التي تُقرّب بني آدم إلى اللَّه -ﷻ- وتُكفّر بها عنهم خطاياهم. وقد أخبر اللَّه عنهم بأنهم يستغفرون للذين آمنوا، ويدعون لهم»(٢).

وذكر ابن كثير: أن اختصام الملائكة في شأن آدم-عليه الصلاة والسلام- وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه. وقال بعدما أورد (حديث معاذ) «وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن؛ فإن هذا قد فُسر، وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾»(٣).

وقال الآلوسي: «ومعنى اختصامهم في ذلك على ما في البحر اختلافهم في قدر ثوابه، ولا يخفى أن حمل الاختصام في الآية على ما ذكر بمراحل عن السياق؛ فإنه مما لم يعرفه أهل الكتاب، فلا يسلّمه المشركون له -عليه الصلاة والسلام- أصلًا، نعم هو اختصام آخر لا تعلق له بالمقام»(٤).

* * *

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ١١٤-١١٥).

(٢) «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» ضمن «الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب» (ص: ٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨١).

(٤) روح المعاني (٢٤/ ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

★ غريب الآية:

سويته: جعلته في سواء، وهوتمام الخلق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدًا ﷺ بسبب الحسد والكبر، فاللَّه تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرًا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين»[1].

قال ابن كثير: «هذه القصة ذكرها اللَّه، تعالى في سورة «البقرة» وفي أول «الأعراف» وفي سورة «الحجر» وفي «سبحان» و«الكهف»، وهاهنا، وهي أن اللَّه سبحانه أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ

(١) مفاتح الغيب (٢٦/ ٢٢٨).

مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما وامتثالا لأمر الله ﷻ. فامتثل الملائكة كلهم ذلك، سِوى إبليس ولم يكن منهم جنسا، كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوجَ ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه ﷻ فيه، وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق.

وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه (إبليس) إعلاما له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النّظِرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يَعْجَل على من عصاه. فلما أمِن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[1] وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾[2].

وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع ﴿الْحَقُّ﴾ الأولى وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحقَّ أقول، وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3] وكقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾[4]»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة اليد لله -تبارك وتعالى-

* عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أما ترى الناس؟ خلقك الله بيده، وأسجد لك الملائكة، وعلمك أسماء كل**

(١) الإسراء: الآية (٦٢).
(٢) الإسراء: الآية (٦٥).
(٣) السجدة: الآية (١٣).
(٤) الإسراء: الآية (٦٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨١-٨٢).

شيء، اشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناك -ويذكر لهم خطيئته التي أصاب- ولكن ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض..»[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يد اللَّه ملأى لا يغيضها نفقة، سحّاءَ الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق اللَّه السماوات والأرض؛ فإنه لم يغِضْ ما في يده، وقال: عرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»[2].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إن اللَّه يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السماوات بيمينه ثم يقول: أنا الملك»[3].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقبض اللَّه الأرض..»[4].

★ **فوائد الأحاديث:**

ترجم البخاري رحمه الله على هذه الأحاديث في «كتاب التوحيد» من صحيحه بقوله: «باب قول اللَّه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾».

قال عبد اللَّه الغنيمان: «أراد رحمه الله بهذه الترجمة بيان ما أثبته اللَّه تعالى لنفسه من صفة اليدين، وأثبته له رسوله ﷺ على ظاهر ما نطقت به النصوص المتنوعة الدلالة في ذلك»[5].

قال ابن القيم: «من أقبح الغلط والتلبيس تأويل اليدين في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول: (لفلان عندي يد) وقال

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (١٣/ ٤٨٣/ ٧٤١٠)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤-٣٦٥/ ١١٢٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٢)، والبخاري (١٣/ ٤٨٤/ ٧٤١١)، ومسلم (٢/ ٦٩٠-٦٩١/ ٩٩٣)، والترمذي (٥/ ٢٣٤/ ٣٠٤٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٣٩) وابن ماجه (١/ ٧١/ ١٩٧).

(٣) أخرجه: البخاري (١٣/ ٤٨٤/ ٧٤١٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٨)، وأبو داود (٥/ ١٠٠/ ٤٧٣٢)، وابن ماجه (١/ ٧١-٧٢/ ١٩٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤) والبخاري (١٣/ ٤٨٤/ ٧٣٨٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧-٢١٤٨/ ٢٧٨٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧-٤٤٨/ ١١٤٥٥) وابن ماجه (١/ ٦٨-٦٩/ ١٩٢).

(٥) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٩٢).

عروة بن مسعود للصدّيق : (لولا يد لك عندي لم أجْزِك بها لأجبتك) ولكنّ وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه ، ثم تعدى الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير : (كتبت بالقلم) وهي اليد ، وجعل ذلك خاصة خصّ بها صفيه آدم دون البشر ، كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه ، وخص موسى بأنه كلمه بلا واسطة ، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة ، وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك ، فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيتُه له في كل تركيب»[1] .

وقد تقدم الكلام على صفة اليد عند تفسير الآية (٦٤) من سورة المائدة ؛ فلينظر هناك ، وبالله التوفيق .

* * *

(١) الصواعق المرسلة (١/ ١٩٢-١٩٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني اللَّه به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أُمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه اللَّه ﷻ والدار الآخرة»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التكلف، والخوض فيما لا يُعلم

* عن شقيق قال: «إن سلمان دخل عليه رجل فدعا له بما كان عنده فقال: لولا أن رسول اللَّه ﷺ نهانا، أو لولا أنّا نهينا أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلّفنا لك»[2].

* عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ يقرأ: (قال الله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾[3] فكلّ هذا قد عرفنا فما الأبّ؟ ثم نفض ما كان في يده فقال: هذا لعمر اللَّه التكلف، اتبعوا ما يتبين لكم من هذا الكتاب)[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤١)، والطبراني (٦/ ٢٣٥/ ٦٠٨٣و٦٠٨٥)، قال في المجمع (٨/ ١٧٩): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» بأسانيد، وأحد أسانيد «الكبير» رجاله رجال الصحيح»، وصححه الحاكم (٤/ ١٢٣) ووافقه الذهبي.

(٣) عبس: الآيات (٢٧-٣١).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٦٠-٦١) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٢٤/ ٢٢٨١) والحاكم (٢/ ٥١٤). وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ونسبه الحافظ في الفتح (٦/ ٣٦٤) لعبد بن حميد وصححه، وصحح إسناده أيضا ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٤٨).

* عن مسروق قال: كنا عند عبد اللَّه جلوسًا وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن قاصًا عند أبواب كِندة يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام، فقال عبد اللَّه، وجلس وهو غضبان: يا أيها الناس! اتقوا اللَّه، من علم منكم شيئًا فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم، فليقل: اللَّه أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: اللَّه أعلم، فإن اللَّه ﷻ قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾. إن رسول اللَّه ﷺ لما رأى من الناس إدبارًا، فقال: «**اللهم! سبعٌ كسبع يوسف**» قال: فأخذتهم سَنة حصّت كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك جئت تأمر بطاعة اللَّه وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع اللَّه لهم، قال اللَّه ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[(١)]. قال: أفيكشف عذاب الآخرة؟ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾[(٢)] فالبطشة يوم بدر، وقد مضت آية الدخان والبطشة، واللزام، وآية الروم[(٣)].

* **غريب الحديث:**

حصّت كل شيء: أي استأصلته

اللزام: المراد به قوله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾[(٤)] أي: يكون عذابهم لازما، وهو ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر وهي البطشة الكبرى.

آية الروم: المراد بها قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾[(٥)] وقد مضت غلبة الروم على فارس يوم الحديبية.

---

(١) الدخان: الآيات (١٠-١٥).

(٢) الدخان: الآية (١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٤١)، والبخاري (٢/ ٦٢٦/ ١٠٠٧)، ومسلم (٤/ ٢١٥٥-٢١٥٦/ ٢٧٩٨) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣٥٣-٣٥٤/ ٣٢٥٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٥/ ١١٤٨١).

(٤) الفرقان: الآية (٧٧).

(٥) الروم: الآيتان (٢و٣).

★ **فوائد الحديثين:**

قال العيني: «وأما مناسبة الآية له: فلِأن القول فيما لا يُعلم قسم من التكلف»[١].

وقال الراغب: «التكلف على ضربين: الأول: محمود، وهو ما يتحراه الإنسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلًا عليه، ويصير كَلِفًا به ومحبًا له، وبهذا النظر يستعمل التكليف في تكلف العبادات.

الثاني: مذموم، وهو ما يتحراه الإنسان مراءاة، وإياه عني بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾»[٢].

وقال ابن هبيرة: «إنما كره عمر التكلف، وهو التتبع لكتاب الله بمشقة لا ترجع إلى التماس فائدة على سبيل التعنت والاعتراض، ولذلك ضرب صبيغًا إذ كان يتتبع من القرآن ما يظنه إشكالًا، وإلا فلا خلاف بين المسلمين أن السؤال عن غريب القرآن من الأبّ وغيره طلبًا للفائدة وعلم ما يعرفه العرب منه؛ أن ذلك قربة إلى الله ﷻ- وإنما المكروه التكلف والتتبع لما لا فائدة ولا نفع فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾»[٣].

وقال المباركفوري: «قوله: «فإن الله قال لنبيه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾»: في قول ابن مسعود هذا وفيما قبله تعريض بالرجل القاصّ الذي كان يقول: يجيء يوم القيامة كذا، فأنكر ابن مسعود ذلك وقال: لا تتكلفوا فيما لا تعلمون، وبيّن قصة الدخان، وقال: إنه كهيئة.. إلخ»[٤].

وقال ابن هبيرة: وقول ابن مسعود: «فليقل: الله أعلم» له وجه؛ فإن من لا يعلم إذا ردّ العلم إلى الله؛ فقد أحال على مليء»[٥].

* * *

(١) عمدة القاري (١٣/ ٢٢٨).

(٢) المفردات للراغب (٧٢١-٧٢٢)

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ١٧٨-١٧٩).

(٤) تحفة الأحوذي (٩/ ٩٤-٩٥).

(٥) الإفصاح (٢/ ٢٦).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس.. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[(١)] وكقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾[(٢)].

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ قال الحسن: (يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين)»[(٣)].

قال السعدي: «فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين. فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ﴾ ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ اللّهم علّمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة، ونسيان ترك»[(٤)].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٩).
(٢) هود: الآية (١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤٢).

فهرس الموضوعات

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة يس

سورة الصافات

سورة ص

* * *